



مجلة الأدب واللغات

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية
تصدر عن كلية الآداب واللغات
جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج - الجزائر
العدد -02- المجلد -07- جانفي 2022

المجلد 04، العدد 01، ديسمبر 2017

ردم د: 2477-9792 رد م د: 2588-2422

رقم الإيداع القانوني: 342-2015

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية
تصدر عن كلية الآداب واللغات جامعة محمد البشير الإبراهيمي

برج بوعريبريج - الجزائر

ر.د.م.د: 2477-9792 ر.ت.م.د.إ: 2588-2422

رقم الإيداع: 342 / 2015

المجلد (04)، العدد(01) - ديسمبر 2017

العدد 07(خاص) من المجلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة

الآداب واللغات

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية

ISSN: 2477-9792 ر . د . م . د :

العدد السابع - ديسمبر 2017

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية حولية محكمة نصف سنوية

تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية

تصدر عن كلية الآداب واللغات بجامعة محمد المشير الإبراهيمي برج بوعكريج

هيئة تحرير المجلة	
أ. ناصر معماش	د. مباركية عبد الناصر
أ. بن صافية عبد الله	د. عزوز زرقان
أ. عزوزي بشير	د. صابري بوبكر الصديق
أ. موساوي سميرة	

المدير الشرفي للمجلة

أ.د. عبد الكريم بن يعيش

مدير الجامعة

مدير المجلة مسؤول النشر

أ.د. رحيم حسين

عميد كلية الآداب واللغات

رئيس التحرير

د. رابع بن خوية

نائب رئيس التحرير

د. جمعة بن سالم

توجه المراسلات والأبحاث إلى السيد:

رئيس تحرير مجلة الآداب واللغات

كلية الآداب واللغات، جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريش

34230 الجزائر

هاتف/فاكس: 00213(0)35862170

00213 (0) 35862171

بريد إلكتروني: revuefl.bba@gmail.com

الهيئة العلمية

السعودية	د. محمد علي أحمد قنديل	سطفيف2	أ.د. عبد المالك بومنجل
خنشلة	د. مجيد قري	تيزي وزو	أ.د. صالح بلعيد
المسيلة	د. عبد الرحمن بن يطو	المغرب	أ.د. محمد علي الرباوي
سكيكدة	د. عبد الحق منصور بوناب	خنشلة	أ.د. فيصل حصيد
جيجل	د. فيصل لحر	المسيلة	أ.د. عبد الغني بن الشيخ
برج بوعريبيج	د. بلقاسم ذواوي	سطفيف2	أ.د. محمد بوادي
برج بوعريبيج	د. عبد الناصر مباركية	تيازة	أ.د. عبد الحميد بورايو
برج بوعريبيج	د. زهر الدين رحمانى	المغرب	أ.د. سعاد الناصر
برج بوعريبيج	د. عزوز زرقان	العراق	أ.د. محمد جواد حبيب البدراني
برج بوعريبيج	د. بوبكر الصديق صابري	سورية	أ.د. أحمد ويس
برج بوعريبيج	د. رابع بن خوية	برج بوعريبيج	أ.د. حورية عروي
برج بوعريبيج	د. جمعة بن سالم	باتنة2	د. جمال سعادنة

الهيئة الاستشارية للعدد

باتنة1	د. زهور شتوح	تبسة	د. عادل بوديار
تيارت	د. محمد دبيح	سوق أهراس	د. غزلان هاشمي
ورقلة	د. محمد الصالح بوعافية	المسيلة	د. ناصر بركة
تبسة	د. أمال كبير	سطفيف2	د. مبروك دريدي
المسيلة	د. عمروش فوزية	بريكة	د. شراك راضية
المسيلة	د. عمور عز الدين	بجاية	د. نادرى نادية

قواعد النشر في المجلة

- ❖ ترحب المجلة بمشاركة كل الأساتذة والباحثين وتعد بنشر أبحاثهم ودراساتهم شريطة التقيد بقواعد النشر في المجلة والأصول المتعارف عليها خاصة فيما يتعلق بالتوثيق.
- ❖ يقدم الباحث تعهدا بعدم نشر بحثه المقترح أو تقديمه للنشر إلى جهة أخرى.
- ❖ يرسل البحث على البريد الإلكتروني للمجلة وفق برنامج Microsoft Word متضمنا ملخصين: أحدهما بلغة البحث وآخر بلغة أخرى، مع كلمات مفتاحية لا يتجاوز عددها (6) كلمات.
- ❖ تخصص ورقة أولى مستقلة لعنوان المقال، واسم الباحث ورتبته العلمية والمؤسسة وانتمائه المهني، إضافة إلى الهاتف والفاكس وعنوان البريد الإلكتروني.
- ❖ تخصص ورقة ثانية مستقلة لعنوان البحث أو المقال مع الملخصين المذكورين أعلاه، ثم تتبع بصفحات المقال مفتوحة بالعنوان.
- ❖ لا يتجاوز حجم المقال (20) صفحة، بما في ذلك قائمة المصادر والمراجع والجداول والأشكال-إن وجدت-، والتي تضبط مرقمة ومعنونة وفقا لهوامش الصفحة؛ مدار الصفحة: 02سم، رأس الورقة: 1.25سم، أسفل الورقة: 1.25سم، حجم الصفحة: العرض 16سم العلو 24سم.
- ❖ يرقم التمهيش بطريقة آلية Note De Fin، حيث يشار إلى المصادر والمراجع في متن المقال بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين على أن تعرض المراجع في نهاية المقال مرتبة هجائيا.
- ❖ تكتب المادة العربية بخط Simplified Arabic حجم 14 والهوامش أسفل الصفحة بخط حجم 12، والخط اللاتيني بنوع Simplified Arabic حجم 10، مع ضرورة مراعاة توثيق المراجع وفق المنهجية المتعارف عليها.
- ❖ المقالات لا تعبر إلا عن آراء أصحابها، والتي لا تنشر لا تعاد إلى أصحابها دون ذكر للأسباب.
- ❖ تخضع المقالات المقدمّة للتحكيم العلمي على نحو سري بحسب الأصول المتعارف عليها.

تقع مسؤولية كل ما ينشر في المجلة على عاتق صاحبه

افتتاحية

تمثل الآداب والفنون والقيم المخزون الروحي للمجتمعات، وتمثل اللغات قنوات للتواصل ما بين الأمم. وما بين الآداب واللغات جسر يطفوه الكثير من الرموز والدلالات التي تستحق الدراسة، استنطاقا وتأويلا ونقدا. والمبدع الحقيقي لابد أن يتقن فن اللغة و منطق التركيب وقوة النقد، فالقراءة ليست كالكتابة، والكتابة إنما هي لغة وفن وفكر. فلا مجال إذا في هذا الحقل لمن يفتقد إلى قوة اللغة وروح النقد وعمق التحليل.

إننا إذ نقدم هذه الافتتاحية الخاصة بالعدد السابع - ديسمبر 2017 من مجلة كليتنا "مجلة الآداب واللغات"، يتعين علينا بداية، بعد حمد الله تعالى حق حمده على توفيقه ومنه، أن ننوه مجددا بجهود القائمين على هذا الإصدار العلمي الذي تفتخر به الكلية، أملين لهذه المجلة الاستمرار والرقى على أسس متينة تلفها العلمية والمصداقية، كما ويتعين علينا أيضا أن نشكر كافة الخبراء الذي ساهموا في تحكيم الأبحاث الواردة فيه.

كما هو الحال في الأعداد السابقة، تم في هذا العدد أيضا تقديم مزيج من الأبحاث تستجيب لشتى الانشغالات البحثية للقراء، وتلي في ذات الوقت مختلف اهتمامات الباحثين الذين تقدموا بمقترحات للنشر بالمجلة، حيث يجد فيه القارئ أبحاثا في الدراسات اللغوية للقرآن الكريم، كالدلالة الصرفية ومعاني الألفاظ والتناسخ القرآني، ونجد أخرى في الظاهرة الصوفية وفي الرواية والسرد، كما ويجد ثلاثة أبحاث باللغة الأجنبية، اثنان باللغة الإنجليزية وواحد باللغة الفرنسية، وهذا التنوع يضيف على المجلة طابع التعددية في اللغة وفي الاتجاهات الفنية والنقدية والأدبية، ومن ثم تعدد في الأطروحات وفي الرؤى والتحليل.

أخيرا، تسعد دوما هيئة التحرير وإدارة المجلة باستقبال ونشر مقترحات كل الباحثين، التي تندرج ضمن مجال اهتمام المجلة، وتحظى بالقدر المطلوب من الأصالة والجدة والقواعد العلمية، وذلك على حساب المجلة في البوابة الوطنية للمجلات العلمية ASJP:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/94>

عميد الكلية

أ.د. رحيم حسين

المحتويات

09	افتتاحية
10	الظاهرة الصوفية في شعر الشهاوي؛ دراسة في كتاب الموت د. أحمد فرحات - السعودية
40	الدلالة الصرفية لأبنية القرآن الكريم (فعال) أنموذجا د. جنان ناظم حميد - كلية الآداب - الجامعة المستنصرية د. أحمد عاشور جعاز - كلية التربية / ابن رشد - جامعة بغداد
72	العلاقة السياقية بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم د. إبراهيم صبر الراضي - كلية الآداب - جامعة ذي قار - العراق
117	الكتابة التوثيقية في الرواية العربية المعاصرة؛ رواية "مصائر" لربعي المدهون أنموذجا د. عبد الرحمان بن يطو - جامعة المسيلة
126	النصوص المحيطة في الرواية؛ بين المفهوم والإجراء د. هند بوعود - جامعة خنشلة
148	المفارقة الساخرة في أدب السعيد بوطاجين؛ "مفارقة العتونة مثالا" د. عمار بن لقريشي - جامعة المسيلة سليمان لبشيري - جامعة بسكرة
171	الحجاج من المنطق الصوري إلى البلاغة الجديدة بداش حنيفة - جامعة برج بوعرييج
186	الرؤية السردية في مقامات الهمذاني (358-398 هـ) د. أمال كبير - جامعة تبسة
203	التناص القرآني في ديوان (تغريبة جعفر الطيار) ليوسف وجليسي د. رابع بن خوية - جامعة برج بوعرييج يونس عبو - طالب دكتوراه - جامعة برج بوعرييج
219	صورة المدينة الصحراوية الجزائرية من خلال الكتابات الرحلية الفرنسية حسن دواس - جامعة سكيكدة
230	دور السياق في تحديد معاني الألفاظ في التراث اللغوي العربي صالح دريسي - جامعة برج بوعرييج
242	من أسرار التنكير والتعريف في القرآن الكريم؛ جزء الأحقاف أنموذجا

عنتر مخناش طالب دكتوراه جامعة باتنة 1

- | | |
|----|---|
| 03 | <i>L'intégration des textes littéraires dans l'apprentissage de l'arabe
LVE : une motivation pour la lecture ?
Hilda MOKH Université de Rennes 2, France</i> |
| 22 | <i>A Think-aloud Protocol Investigation of Two EFL Students'
Essay Planning Strategies at Setif 2 University, Algeria
Moussaoui samira Doctorante à l'université de Sétif 2</i> |

الظاهرة الصوفية في شعر الشهاوي؛ دراسة في كتاب الموت

د. أحمد فرحات

كلية الفارابي بجدة – المملكة العربية السعودية

الملخص:

يمثل شعر أحمد الشهاوي تجربة مائزة من التجارب الصوفية الماتعة، إذ تتماس أفكاره مع أفكار الصوفيين الكبار؛ لذا عمدت إلى "كتاب الموت" لدراسة الظاهرة الصوفية من الناحية الشكلية والمضمونية والفنية، متخذاً من إجراءات المناهج الحديثة مدخلاً لتفكيك النص الشهاوي وإعادة عناصره المؤسسة للمذهب الصوفي غير متغافل الرؤية الفنية واللغوية والرمزية في التعامل مع النص الشهاوي.

الكلمات المفتاحية: الصوفية-الموت- الشهاوي-المناهج الحديثة-الحروف-

The sufi method in shihawi poetry is a study of death book.

Dr.Ahmed Farahat Al Faraby .Faculty in Jeddah-K.S.A.

Ahmed Al Shihawi represents a distinguished expresents of exciting Sufism as his thoughts. Are as similar as great sufists. So I tended to the "Death Book" to discuss the Sufi method out of form , content and artistic. Itended to consider modern curriculumprocedurrs as away to simplify Shihawy text and reback its essential elements of Sufi method, putting into our consideration the symbolitic, lingyistic vision in dealing with the Shihawi text.

مقدمة:

تهدف الدراسة إلى بيان عناصر الإبداع الفني والجمالي لدى الشاعر أحمد الشهاوي في ديوانه "كتاب الموت" وتقديم دراسة عن الشاعر ومنجزه من خلال منهج سيمائي يقف على فض شفرات نصوصه، وتكمن الإشكالية الفنية في النص الشهاوي المتناول في قدرة النص نفسه على المراوغة والتلاعب بالألفاظ والحروف إلى الدرجة

التي يمكننا أن نعزو كل حرف من الحروف الهجائية المستخدمة إلى سياق معين يتغير طبقا للموقف والسياق السائد ، ومن هنا تتعدد القراءات المختلفة للعمل الفني وتتنوع بشكل لافت.

(1)

شغلت الصوفية الناس قديما وحديثا، وشهدت لها أقلام النقاد والباحثين بالجدة والابتكار، من حيث طرافة الموضوع، وإجادة الصياغة، وروعة التصوير، وحكم عليها بعض الناس بالكفر والزندقة، ورموا أصحابها بالهرطقة والإلحاد والفسوق، ولم يكن روادها إلا الصلب والذبح والتكيل. ومع ذلك فقد استثنى النقد القديم - والحديث معا- التراث الصوفي من الدراسات الأدبية والفنية، إلا في بعض الدراسات القليلة لدى أدونيس وصلاح عبد الصبور .. إن هذه النظرة القديمة الحديثة التي استنتجت التراث الصوفي في الإسلام -وهو تراث لا نظير له في أي تراث حضاري على الإطلاق- أساءت إلى الأدب وإلى الفلسفة وإلى التصوف جميعا، حين اعتبرت التصوف موصولا بالفلسفة فقط، بينما هو أكثر صلة بالأدب منه إلى الفلسفة.⁽¹⁾

منذ عرف المسلمون الصوفية وإلى الآن، وهي منزوية في مكان قصي عن أعراف المجتمع وتقاليد، وحديث العامة وتشعبه، رغم تجذرها وتشظيها في الكتابة العربية القديمة والحديثة في آن. ربما لما آل إليه أقطابها من سوء منقلب بث في نفوس الكُتّاب الرهبة والفرع انقاء غضب المحافظين من الناس والجمهور.

تعمل الصوفية على الباطن أكثر من الظاهر، وترى في الوجود أسرارا تستعصي على عوام الناس، لكنها -أخيرا-اهتدت إلى طريقة فنية للوصول إلى قلوب الناس " لقد رأت الصوفية في الكتابة الشعرية الوسيلة الأولى للإفصاح عن أسرارها، ورأت في اللغة الشعرية الوسيلة الأولى للمعرفة.. لقد استخدم الصوفيون في كلامهم عن الله والوجود والإنسان والفن: الشكل، الأسلوب، الرمز، المجاز الصورة، الوزن، القافية، والقارئ يتذوق تجاربههم ويستشف أبعادها عبر فنيها. وهي مستعصية على القارئ

(1) المواقف والمخاطبات. محمد بن عبد الجبار النفري. تحقيق أرثر أريري. تقديم وتعليق/ د.عبدالقادر

محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1985م.ص.11.

الذي يدخل إليها، معتمداً على ظاهرها اللفظي. بعبارة ثانية، يتعذر الدخول إلى عالم التجربة الصوفية عن طريق عباراتها. فالإشارة، لا العبارة، هي المدخل الرئيس.⁽²⁾ وإذا أعدنا النظر في التجربة الصوفية قديماً وحديثاً وجدنا أنها ارتضت الشعر⁽³⁾ وسيلة وأداة قوية لإبراز معالمها وتقنياتها المختلفة، بدءاً من القناع والإسقاط والإشارة والرمز والمجاز والمرآة وغير ذلك من إجراءات فنية للوصول إلى فض شفرات النص الصوفي، ولعلنا في ذلك نرى تغييباً وإقصاء للعقل، بوصفه أداة للعلم والمنطق. " إن مقارنة الوجود بوساطة العقل التحليلي المنطقي لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضياعا .. فهذه الآلة المعرفية (العقل) تشبه كما يرى الصوفي العين التي تحرق في الشمس لكي تراها، فيعميها البريق والتوهج. إنها تزيد الرائي جهلاً. هكذا يزداد الظلام بقدر ما نعتمد العقل في معرفة الوجود."⁽⁴⁾ وزوال العقل هو ما تسميه الصوفية بـ"الفناء" والفناء بهذه الدلالة، هو إذن البقاء في أبهى درجاته وأغناها⁽⁵⁾.

يلجأ الشعراء إلى الكتابة الصوفية لانكشافها على عالم جديد غير نمطي، عالم سجن الشعراء فيه أنفسهم بلغة تكاد تتكرر وتتعد بشكل أو بآخر، فأراد الشعراء أن يكتبوا بلغة قديمة جديدة تلبية لرغبات نفسية طالما عانى منها الشعراء عبر رحلة الشعر العربي نفسه من الجاهلية إلى الآن. وربما أراد الشعراء إدخال بعض التعبيرات الصوفية التي مضت عليها حقبة زمنية كبيرة، فأرادوا إحياءها وتضمينها رغبات نفسية تكشف عن عالم داخلي، لا مرئي، عساه أن يصور شعورهم تصويراً مختلفاً عن اللغة التقليدية المنطقية. فإن " في الوجود جانباً باطنياً، لا مرئياً، مجهولاً، وأن معرفته لا تتم بالطرق المنطقية - العقلانية، وأن الإنسان دونه، دون محاولة الوصول إليه كائن ناقص الوجود والمعرفة، وأن الطرق إليه خاصة وشخصية"⁽⁶⁾

(2) الصوفية والسورالية. أدونيس. دار الساقي. ط3. د.ت. ص. 23.

(3) حتى النثر الذي احتوى مضمون التجربة الصوفية لم يخل من الشعر؛ فهو نثر أقرب ما يكون إلى "قصيدة النثر" المعاصرة.

(4) الصوفية والسورالية. 40.

(5) الصوفية والسورالية. ص. 40.

(6) الصوفية والسورالية. ص. 15.

ووجد الصوفيون في اللغة العربية جانبا لما يلق عليه الضوء حتى الآن؛ فالكتابة الصوفية باللغة العربية تجربة على صعيد الكتابة تعد "حركة إبداعية وسعت حدود الشعر، مضيئة إلى أشكاله الوزنية، أشكالا أخرى نثرية نجد فيها ما يشبه الشكل الذي اصطلح على تسميته، في النقد الشعري الحديث، بـ "قصيدة النثر".⁽⁷⁾ و " بهده اللغة تخلق التجربة الصوفية عالما داخل العالم، تتكون فيه مخلوقاتها، تولد وتتمو، تذهب وتجيء، تخمد وتلتهب، وفي هذا العالم تتعانق الأزمنة في حاضر حي."⁽⁸⁾

(2)

يعد أحمد الشهاوي شاعرا صوفيا بامتياز؛ فقد طرق جوانب التجربة الصوفية من كل حذبٍ وصوب، فانثالت عليه الأفكار الصوفية في جل أعماله الإبداعية وتجلت مظاهر اللغة الصوفية في شعره بشكل لافت، وتهادت إليه أركان التجربة الصوفية في صفاتها وتجلياتها الداخلية والخارجية. ولد الشهاوي بمدينة دمياط عام 1960م، تخرج في كلية الآداب بسوهاج، وتخرج في قسم الصحافة عام 1983م ساهم في تأسيس مجلة "نصف الدنيا" عن مؤسسة الأهرام، عمل فيها حتى أصبح مديرا للتحليل في 2009م، وهو الآن كاتب متفرغ بالأهرام.

وربما وجدنا في سيرته الذاتية إجابات مقنعة، أو شبه مقنعة، عن أسئلة عديدة تجول في وجدان الباحث، منها مثلا: هل مارس الشاعر الصوفية سلوكا وفعلا كما مارسها على سبيل التجربة الشعرية؟ يجيب الشاعر نفسه بأن نشأته في القرية في بداياته الأولى، وقبل الكهرياء، لم يجد إلا مكتبة أبيه الأزهرى لينهل منها ما يشاء، ثم إن نزوحه إلى سوهاج للدراسة جعله يطلع على تراث الصوفي المصري، العارف الناطق بالحقائق "ذو النون المصري". وهناك تفنقت موهبته على المذهب الصوفي عن كئيب. وليس المقصود بممارسة الصوفية أن نرى درويشا مرتديا ثوبا سملا، يجب المساجد يتمايل يمينا ويسارا مرددا ألفاظ الصوفية في حالة من الشطح أو الجنون.

(7) الصوفية والسورالية. ص 22

(8) الصوفية والسورالية. ص 23.

(3)

النصّ الشهائويّ نصّ مركب، معقد، نص شارد في فضاء الشعر الإنساني، على الرغم من أنه مؤسس على بنيان ابن عربي، وابن الفارض وأبي حيان التوحيدي والنّفري، والحلاج، وغيرهم من أقطاب الصوفية الكبار. يصعد بك إلى شطحات ابن عربي القاتلة، ويهبط بك إلى رقة ابن الفارض المؤمنة، وبين الصعود والهبوط، لا يسمح لك بالتقاط أنفاسك؛ إذ سرعان ما يجول في حواشيك، مستتبها طاقات إيجابية وأخرى سلبية، تجعلك ترق له تارة، وتسخط عليه أخرى. وأنت بين الرضا والسخط مستمتع بعالم الصوفية الناضح بين جنبات الكتابة. ولكنه في الوقت نفسه نص آبق من أقانيم الموروث الموسيقي الذي ورثه العرب الحداثيون عن شعراء في الإنسانية العالمية، ولا غرو فالشاعر طاف حول العالم باحثاً عندهم عن مغامرة إنسانية أبدية، أو طرفة عالمية حتى أصبح شعره عالمياً إنسانياً يضاهاي أشعارهم، ويواكب دستورهم. وإذا كانت نصوص الصوفيين ليست واحدة فإن أحداً من السائرين على درب الصوفية من المحدثين لم يدرك الفروق بين مستويات النصوص المختلفة إلا النزر منهم، استطاع أن يميز بين لغة النّفري، ولغة ابن الفارض، ولغة ابن عربي، كما فعل أدونيس في تقاعله مع هذه النصوص، ففي ديوان "أقاليم النهار والليل" نجد لغة النّفري حاضرة بقوة، وكذلك أشار أدونيس إلى أهمية دراسة لغة أبي حيان التوحيدي في "الإشارات الإلهية" وذلك في كتابه "مفرد بصيغة الجمع". أما في النصّ الشهائوي فنجد تأثيراً بكل هؤلاء مجتمعين على تفاوت بينهم بين الجملة والأخرى.

يقدم الشهائوي تجربته الصوفية في خطاب شعري جديد، محاولاً أن يتخطى به ما سبقه من شعر، متجاوزاً لتجارب اعتادها الشعراء أمثاله، طارقاً موضوعات فنية مغايرة، في إطار تعريف جديد لالتزام الفن بالحياة. أنت إذن أمام نص مغاير للنصوص التقليدية، فإذا أردت أن تجد رومانسية ناجية، أو ذهنية العقاد، أو واقعية عبد الصبور فقد أخطأت عنوان القراءة، فنصّ الشهائوي يقفز بك إلى الشهائوي نفسه، في جدلية متوازنة بين الموروث والمعاصر. يمكنك اللوج إلى عالمه الفني تاركا وراءك كل النصوص المعروفة مسبقاً، تاركا عقلك وفكرك ومنطقك، متأملاً فلتات

لسانه، ونفثات روحه، غارقا في منجزه بكل حواسك، حتى تصل إلى الصفاء والنقاء والتجلي.

كما أنّ النص الشهاوي نص مشكل في الجدل الذي يصاحبه؛ لأنه يستند إلى نصوص أخرى دار حولها جدل كبير بين العلماء، وخاصة علماء الدين، والفكر، فهو يأخذك رغما عنك إلى عوالم متشابكة، عنكبوتية الرؤى، صادمة لك، فلا تستطيع أمامها إلا الرجوع إلى أقوال غيره، عندئذ لا تملك من نفسك أمرا إلا أحد أمرين: إما التسليم المطلق لأفكاره، وإما الرفض المطلق لها، وربما ذهبت مذهباً وسطاً. إن الجدل الذي يستثيره نص الشهاوي يذهب بك إلى عالم مائع، غامض، لكنه محبب كالألم الممتع تماما.

النص الشهاوي يجعل الأدب عامة، والشعر خاصة وطيد الصلة بالفلسفة الصوفية، ويقترب كثيرا من علم الفلسفة باعتبارها علما جافا، يدرس معزولا عن الأدب والشعر، ولا أقر بانفراده بذلك بل هو نص في سياق نصوص أخرى طرقت باب الفلسفة الصوفية طرقات مسموعة، يشترك معه شعراء آخرون كأدونيس، وصلاح عبد الصبور، وحسن طلب، والبياتي، وغيرهم.

يبدأ النص الشهاوي من العتبة الأولى (العنوان/كتاب الموت)، وفي العنوان جملة كاملة مكونة من مبتدأ محذوف (هذا) وخبر معلوم (كتاب الموت) والمحذوف هو البدايات الأولى للحياة بكل ما فيها من ميلاد ونشأة وصراع في الوجود، والحياة المحذوفة عند الصوفي هي مجرد ممر إلى حياة أخرى خالدة عبر الموت؛ فالموت ليس غيابا كلياً عن الوجود، فهو الحضور الكامن في الموجودات. وغياب المبتدأ/الحياة ليس منافيا لحضور الموت، فالموت قائم ما قامت الحياة، وهو دليل عليها، وإثبات لبقائها. وبين الموت والحياة "نقطة عليا" يتساوى عندها البقاء والفاء، الحضور والغياب، وتتلاشى الفوارق بين الكائنات، "هذه النقطة العليا هي بمثابة مكان يتلاقى فيه الكون الداخلي-الذاتي-والكون الخارجي الموضوعي".⁽⁹⁾ وللنقطة في النص الصوفي تخوم خيالية مجازية، فهي الوصول إلى الأصول-كما يقول أدونيس،

(9) الصوفية والسوريالية. ص 50

فلا مكان محدد يحتويها، ولا زمان معين تتواجد فيه، فهي نقطة الاتحاد والوحدة، يتغياها الصوفي في نفسه ليصل إلى الإنسان الكامل الذي يحمل رسالة كونية. وتتردد كلمة النقطة بهذا المدلول في نص الشهاوي كثيرا.

وإذا تأملنا العنوان/كتاب الموت وجدنا كلمة الموت في موقع الإضافة، وأن الخبر-الجزء المتمم المعنى، هو كلمة كتاب. فهل معنى ذلك أن للموت كتابا معنا، معروفا لدى الناس؟؟ والشاعر يستقر على العنوان لما له من عنقايد دلالية لدى الناس؟ أم أن (كتاب) هنا علامة رمزية تشير إلى شيء آخر؟ الواقع أن الموت بوصفه موتا ليس له كتاب معروف لدى الناس، وقد ورد في القرآن الكريم: كتاب الأبرار - كتاب الفجار.. وكل إنسان سيخرج له كتاب يوم القيامة، يقرأه كل إنسان على حده، ومن خلاله سيعرف نعيمه أو شقاءه، كما ورد لفظ "كتاب" مضافا.. وموصوفا.. ومعرفا بأل.. ونكرة..، والكتاب هنا علامة سيميائية تشير إلى أنواع متباينة من الكتب، منها المقدس، وغير المقدس. فالكتاب المقدس تورا أو إنجيل أو قرآن هو النص الأم الذي تتولد منه كل النصوص الأخرى وتتبع منه. وغير المقدس كثير متنوع فيه الملغز والمقروء، المتكلم والصامت، المتحرك والساكن.. غير أن النظرة إلى الكتاب المنزل كان يصاحبها الاعتقاد أن العالم أيضا كتاب، أي أن الله قد خلق كتابين: العالم بما فيه الإنسان، والكتاب المقدس، وأنه يمكن للإنسان التعرف على الله وقدرته وحكمته من خلال هذين الكتابين⁽¹⁰⁾.

واستنادا إلى ما سبق؛ فإن الكتاب هنا علامة رمزية تشير إلى محاولة الشاعر إيجاد علاقة طردية بين كتاب الموت ومعرفة الله تعالى، من منطلق وحدة الوجود التي يؤمن بها، ويدلل عليها في كل سطر شعري من الديوان: أنا شجر الكلام/ أجمع العالم في واحد/ أنا خمر طين/ أنا خمر طينة طير/ تجلت يد في سبيلي. العتبة الثانية في النص/الديوان تجلت في الإهداء، تحت عنوان: حضرة، والحضرة كلمة مراوغة، لها مدلولان: حضرة المرء فئاؤه، ومكان حضوره، وعلى سبيل المجاز

⁽¹⁰⁾ انظر: القارئ والنص، العلامة والدلالة. سيزا قاسم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة

يعبر بها عن ذي المكانة، وهي أيضا مصطلح صوفي يعني الحضور ضد الغيب، وهي بمثابة حلقة الذكر التي يذكر فيها اسم الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم. والحضرة نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية تعني حضور شخص أو أشخاص حقيقيين، وقد عهدناها صغارا ونشأنا عليها في القرية، والمعنوية تعني: وجود كائن ما في دائرة الوعي الإنساني يقظة أو نوماً، أو في دائرة عدم الوعي نوماً أو غيبوبة،!!⁽¹¹⁾.

وبالنظر إلى هذه الحضرة نجد الإهداء إلى: نوال عيسى(الأم)/سعاد الشهاوي(الأخت) في اتحادهما وحلولهما بالشاعر. وهو حضور معنوي يغذيه الشوق الجارف، والحنين الطاعغي، لفراق الأم والأخت معا، مما أصاب الشاعر بتعطيل وظيفية الحواس، وامحائها، وغيابها، أو قل ضعفها ووهنها ومن ثم إقصاء العقل والتفكير المنطقي؛ لأنه هنا أصبح روحا تهيم في فضاء الوجود. فحدث له ما يحدث للصوفي من حلول واتحاد بروحيهما، في شطحة صوفية واعية تقوم على عتبة الاتحاد نتيجة وجد عنيف لا يستطيع كتمانها، فينطلق بالإفصاح والبوح بلسان الحق؛ لأنه صار يتحدث بلسان الحق، فقد صار هو والحق سواء. وهذا هو مفهوم الشطح الصوفي: "هو تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة في حضرة الألوهية، فتدرك أن الله هي، وهي هو"⁽¹²⁾. ويحدد الدكتور عبد الرحمن بدوي الشطحة الصوفية وخصائصها المميزة لها بأنها بصيغة المتكلم، وإن كان هذا الشرط غير متحقق باستمرار، وأنها تبدو غريبة في ظاهرها لكنها صحيحة في باطنها⁽¹³⁾.

العتبة الأخرى تتمثل في زمكانية العمل الفني برمته، حيث يشير الشاعر إلى تاريخ كتابته: الإثنين 16 من أكتوبر 1995م، ومكان كتابته الجمعة 6-31 من يناير- فبراير -مارس 1995م، القاهرة.. الأحد 1 من أكتوبر حتى 15 من أكتوبر 1995م. سان فرانسيسكو. وقد ختم العمل بعبارة: (لم ينغلق باب الكتاب) وهذا يدل على أن حزن الشاعر ووجعه مازال مهيمنا عليه حتى الآن، ومازال الشاعر متماهيا مع حزنه حتى الرmq الأخير(بارك الله عمره). كما تدل هذه العبارة عن دائرية القصيدة أيضا،

(11) أزهير الرياض. عبد المحمود نور الدائم. ط5. 1433هـ. 2012م. مكتبة القاهرة. ص 112

(12) شطحات الصوفية. د. عبد الرحمن بدوي. الناشر وكالة المطبوعات . الكويت. د.ت. 10/1.

(13) شطحات الصوفية. د. عبد الرحمن بدوي. ص 10.

فالوجع المتماهي في ضمير الذات الشاعرة لا بداية له ولا نهاية فهو دائم ومستمر في الزمان والمكان في آن، في القاهرة، في سان فرانسكو في أي مكان، وفي أي زمان من عمره.

وكتاب الموت قصيدة في ديوان، أو ديوان في قصيدة، فكله صرخة رفض واحدة في وجه الموت. وهو استقطار لسيل الذكريات العذبة عبر استدعاء صوفي جلي يسري في نسغ مكوناته وعناصره، والعمل الفني برمته موزع على تسعة وتسعين مقطعاً، عدد حبات السُّبْحَة الطويلة المنظومة من عقيق للتسبيح⁽¹⁴⁾، معنى ذلك أنه عمل طقسي تعبدى، كل مقطع فيه له قداسته وجلاله، لم يفصل الشاعر بين مقطع وآخر إلا بمقدار الفضاء الأبيض في الصفحة، تاركاً لخيال القارئ مقدارا من السعة والمداعبة مع النص المكتوب/المقروء.

يبادر الشاعرُ القارئَ بمقطع مهم، ذي صياغة طلبية؛ إذ يلتمس فيه من الموت تأجيل المجيء، باعتبار أن الذات الشاعرة هنا قد امتزجت بالذات العليا، إذ هي القادرة على مخاطبة الموت، وإصدار فعل الأمر بالتروي لثانية واحدة. وماذا عساها أن تفعل هذه الثانية الواحدة إذا لم تجد سنوات العمر الطوال؟؟

وهذه البداية لها أهمية خاصة في بنية النص الشهاوي، أو قل النص الصوفي عامة، فهي البداية والنهاية في آن. وبها يبدأ الشاعر صرخته، وبها يُنهي تجربته، بعد طول صراع عنيف مع الموجودات الفيزيائية والميتافيزيائية، المرئية واللامرئية، ولذا وجدنا خطأً رأسياً بطول أسطر المقطع تنبيهها على أهميته، وإبرازاً لمعالمه، وطلباً للوصول إلى المرتجى!

أَجَلٌ لثَانِيَةٌ

مجِيئُكَ.

كَيْ أَجِيءَ

محملاً بِرَوَائِجِي.

(14) انظر نص جمال الغيطاني على غلاف الكتاب.

التماس التأجيل وعلته هما المحور الأول والأخير من المقطع، بل من القصيدة ككل، وإن شئت قلت من العمل الإبداعي برمته. ففي هذا الشكل الدائري للقصيدة نلاحظ تمسك الشاعر بفكرة التأجيل، تأجيل الموت، انتظاراً للوصول. فالميلاد والموت لا ينتهيان أبداً، إنهما لحظتان فارقتان في الوجود، يتأسس عليهما سر الأسرار، وينبني فوقهما لحظات الانكشاف والتجلي بشكل لافت في ضمير الإنسانية. والشهاوي قارئ جيد للتراث، وفكرة العود على البدء فكرة ذات طبيعة دورية تؤكد احتفاء الغنوصية الصوفية بالدائرة من بين الأشكال المختلفة، لما تتضمنه في زعمهم من كمال وتمام يظهره ما فيها من عود على بدء، وقد ذكر ابن عربي شيئاً من الشكل الدوري في كتاب "التدبيرات الإلهية" وأشار إليه أيضاً في الفتوحات⁽¹⁵⁾

ومازلنا في المحور الأول في التجربة الشهاوية وكتاب الموت، ففي المقطع الأول أيضاً نجد الشاعر يستثمر طاقات اللغة بكل ما أوتي من حس فني، فينهض الموقف كله على حشد أفعال الأمر، والاستقهام، مستخدماً من اللغة وسيلة لتجسيد الموقف الرفض، ومواءمة للحالة النفسية التي علت فيها حدة الألم، والوجع من خلال هاتين الوسيلتين اللغويتين.. فمن خلال تسعة أفعال للأمر (أَجَلْ - ابق - نم - حادث - سافر - دع - احصد - دع مرة أخرى) - اطفئ.. واستقهام وحيد في هذا المقطع (لماذا أتيت..؟) والمخاطب في كل من الوسيلتين اللغويتين هو الموت، وهو صوت درامي يدور حوله الحدث الشعري برمته، يتفتق من خلاله جملة من العناقيد الدلالية المفجرة لطاقات إيجابية لكسر وتيرة نمطية الصوت الواحد في الأبيات؛ لأن القصيدة/ الديوان عمل فني أحادي العنوان، وليس ديواناً متعدد القصائد، لذا فهناك أكثر من صوت درامي درءاً للملل والسأم الناجم من الصوت الواحد⁽¹⁶⁾.

(15) الرمز الشعري عند الصوفية. د. عاطف جودة نصر. دار الأندلس. بيروت. دار الكندي.

بيروت. لبنان. ط1. 1978م. ص144.

(16) ربما كان هذا العمل الفني قصائد متفرقة، أسقط عنها الشاعر العناوين، فصارت القصائد المتعددة قصيدة واحدة، بعوان واحد، وربما كتب على فترات متباعدة أيضاً، وقد أشارت إلى ذلك الناقدة د. عبير سلامة. في جريدة الحياة. العدد 14493. تاريخ 1423/9/19هـ/2002/11/24م.

والملاحظ لكل أفعال الأمر في المقطع أنها تنهض بدلالات موائمة للغرض منها تماماً، فالشاعر يشترك مع الأزمنة المختلفة اشتباك ضعف ووهن، لا اشتباك قوي مقتدر، عبر سياقات الأزمنة المتداخلة، فبنية الحاضر (تتام/تكبر) تصوير لحال الأخت سعاد على افتراض أن يمهلها الموت بعض الوقت، وبنية المستقبل (أجل/دع) حال للشاعر الذي يتوسل، وبنية الماضي (سئت/تركت) حال للموت بعنفوانه وجبروته. وفي الدائرة الثانية أو المحور الثاني لدينا وسيلتان تسهمان في إنتاج الدلالة: الوسيلة الأولى المرأة -الوسيلة الثانية رمزية الهدهد. أولاً المرأة كقوله:

في المِرْآة كُنْتُ

هَلْ رَأَيْتِ قُلْ هُوَ الَّذِي ...

هَلْ رَأَيْتِ نون ..

هَلْ قَرَأْتِ بَانَتْ سَعَادُ.. (17).

وهنا استخدم الشاعر تقنية المرأة المعكوسة، فالمرأة تستخدم ليرى الإنسان فيها نفسه، ويرى عيوبه ومزاياه، ولكنه هنا نظر في المرأة فلم يجد إلا أخته سعاد، ولم ير فيها نفسه، فيسألها سؤال الحائر المضطرب: هل رأيت قل هو الذي .. مستخدماً الحذف، والمراد هنا هل رأيت الله؟ هل رأيت: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) سورة الملك. ورؤية العباد لرب العباد محققة كما في القرآن الكريم: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) سورة القيامة.

ونون في قوله: هل رأيت نون.. هي أمه نوال عيسى (رحمها الله)

وهل قرأت بانة سعاد.. إشارة إلى المحذوف في إسقاطه على حالته النفسية السيئة بعد رحيلها.

وفي موقف آخر من مواقف استخدام المرأة التي تشي بالاتحاد التام والحلول ليدراً عن نفسه أسداف الوحدة والغربة؛ فيقول الشاعر:

وَحِيدٌ

(17) كتاب الموت. ص6

عَيْرَ أَنْ اسْمِي سَرَى فِي سَيْنِهَا فَتَرَدَّدَا
 ثُمَّ وَجَّهِي فِي كُلِّ شَيْءٍ
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ
 أَرَى وَجَّهَهَا
 حَلَّتْ فِي السَّرَائِرِ
 فِي النَّزْرِ
 فِي النَّوَانِي
 فِي الْهَوَا
 فَتَجَدَّدَا
 وَمَا الْوَجْهَ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرَ أَنَّهُ
 إِذَا أَنْتَ عَدَدْتِ الْمَرَائِي تَعَدَّدَا. (18)

الوسيلة الثانية التي استخدمها الشاعر هي استخدام الرموز عن طريق بعض الطيور؛ فاستخدم الشاعر رمز الهدد في سياق أسطوري فخم، لينسجم مع الحالة التي تعبر عن استبطان العالم الميتافيزيقي الآخر، فلغة الكتاب التي تقرأه الأخت لم تر مثلها من قبل، وتلاميذ على الماء يمشون، بين أيديهم صفوف من طيور حدائق من نور، نساء يلبسن ثوب جمالهن، يسرن على الهواء، تؤمهن نوال / الأم .. نار تسير على أربع..

فللهدهد في التراث العربي والإسلامي أخبار شتى، بعضها حقيقي، والآخر أسطوري، فهو طائرٌ مُنْتَن الرِّيحِ والبدن، من جوهره وذاته، ... فإنَّ العرب والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من الله تعالى على ما كان من بَرِّه لِأُمَّه لِأَنَّ أُمَّه لما ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوَهْدَة. ويزعمون أنَّ الهدد هو الذي كان يدلُّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها.

(18) كتاب الموت. ص 61.

وهو طير معروف، من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام، وعنده حدة البصر حتى قيل: إنه يرى الماء تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه، فأراها سليمان عليه الصلاة والسلام، فتفقده وطلبه، فلما حفر قال يا نبي الله: إني رأيت كيت وكيت، وقص عليه القصة، ويقال: إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه، يا نبي الله: اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه⁽¹⁹⁾.

والهدهد في النقش الفرعوني القديم يدل على رمزية النفاذ إلى استبطان الأمور، وأنه رسول من العالم الآخر، اللامرئي، إلى صاحب المقبرة، وما إن بيد واقفا على يده إلا وقد أخبر عن رسالة آتية من العالم الآخر وقد فك شفرتها. هكذا يتجلى رمز الهدهد في الموروث الثقافي، وقد تلقف الشاعر الرمز نفسه في قوله: الهدهد الذي في يدك/ لم ينم/ خط آيتين من قرآنه: إن المتقين .. / وكل نفس .. / وقال اذهبي

وكأن رسول العالم الآخر جاء برسالة فحواها إبلاغ الأخت بالنهاية/الموت، مقتبساً من القرآن بداية آيتين: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) .." سورة الحجر.

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا أَتَاهُمْ رِزْقُهُمْ وَوَقَاهُمْ رِزْقُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ (21) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

⁽¹⁹⁾ انظر: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل : بيروت، ط1، 1988م، 297/1.

وانظر أيضا: المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيحي، ت: إبراهيم صالح. المجلد الثاني. دار صادر . بيروت. ط1. 1999م. ص 525.

عِلْمَانِ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا
إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) .."سورة الطور.

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (55) .."
سورة القمر .. وغيرها من الآيات التي تستدعي سياق نعيم أهل النعيم، .. أما قول
الشاعر: "وكل نفس .." فيبدو أنه خطأ وقع فيه الشاعر؛ لأنه أدخل الواو على "كل
نفس" والآية المشار إليها هي قوله تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْعُزُورِ (185)" سورة آل عمران. وباستعراض آيات القرآن الكريم التي وردت فيها
كلمة "كل نفس" لم نجد -حسب علمنا- حرف الواو في أي آية من الآيات الكريمة،
والصواب أن يخرج حرف الواو خارج علامة التنصيص. مهما يكن من أمر؛ فرمز
الرسالة التي أراد الهدهد إيصالها إلى الأخت هي الانتقال إلى العالم الآخر، والتتعم
بجنان الخلد السرمدي والأبدي.

وإذا كان الهدهد رمز المعرفة، ورسول العالم الآخر، فقد طفت في اللاوعي
أسئلة بريئة، تتم عن الحيرة والقلق النفسي، والاضطراب الداخلي للذات الشاعرة،
أسئلة لها علاقة مباشرة بالغيب المؤكد، وذات تتلاطم مع أمواج اللاشعور، ذات ترسم
عالمها غير الواعي في حركة هائجة من الاستفسارات الغيبية الطاغية ..

هَلْ حَدَّثَ

أَمْ أَتَى مِثْلَ نَارٍ تَسِيرُ عَلَى أَرْبَعِ

صِفِي

حَالَهُ

لَوْنَ عَيْنِيهِ

قَلْبُهُ إِذْ رَأَيْتِ

أَسْمَاءَهُ الْأُخْرَى

أَيِّ لُغَةٍ يَقُولُ

هَلْ أَسْوَدَ الْوَجْهِ أَمْ أَبْيَضُ

مَاذَا قَالَ عَنِّي

هَلْ يَعْرِفُ أَيْنَ تَسْكُنُ نَحْلَتِي
هَلْ يَعْرِفُ عُنْوَانَ حَرْفِي الَّذِي.. (20)

(4)

سار الشعراء الصوفيون المحدثون على درب أجدادهم القدماء فيما يخص التشكيل اللغوي، ومحاولة استنطاق الحروف للكشف عن دلالات منسجمة مع ما يرمون إليه، من غير إغراق أو تعمية، بحيث تتموضع الكلمة مع ما يساقبها من كلمات آخر في انسجام تام دون نبو أو حشو في إطار مساحة الرقعة الشعرية على محيط الورقة البيضاء ناقلة إلى القارئ هموم الذات الشاعرة وتقلباتها. فهي تهدف إلى البناء فوق الموروث الشعري عند القدماء، فقد سبق الحلاج وابن الفارض والنفري وأبي حيان والسهورودي وغيرهم إلى ذلك اللون من التشكيل اللغوي للعب. ففي قوله:

كُلُّ الْعَاشِقِينَ رَعِيَّتِي
وَأَنَا
مِنْ نُقْطَةٍ
فِي قَلْبِهَا طَالَعٌ
عَارِفًا أَسْوَدَ اللَّحْظَةِ
إِلْفَانِ
أَلِفَانِ
أَلْفَانِ (21)

فالإلف والأليف والألف كلمات تتبع من معين صوتي واحد، مع اختلاف الدلالة لكل اسم، فالأول هو القرين من المودة والرحمة، والثاني من الأُنس والمودة والقرب، والأخير أول حروف الأبجدية العربية، وبه أول الأشياء وبدايتها وأساس تكوينها. والمراد أنه والأخت هما كل ذلك شكلا ومضمونا. وكذلك قوله:

(20) كتاب الموت. ص 11

(21) كتاب الموت. أحمد الشهاوي. الدار المصرية اللبنانية. ط1. رمضان 1417هـ. يناير 1997م.

عَنْ خَالٍ خَالِي أغمضت حالي
وقلت يا بحر أين أنت
وعن عين عيني أغمضت عيني
وما رأي سواك أنت
فخذ شفوفي .. شفا رحيلي
ورح لروحي ما ثم شيء
إلاك أنت
هام كلي بكل كلي
وبعض بعضي منك أنت
وما أردت سواك أنت⁽²²⁾
وقوله:

صورتك صادرة من صدري لتصحو صباحاتها
يداك قابضتان عليّ، باستطآن أفلاكك وبروجك⁽²³⁾

وهنا نلاحظ ترديدا لصوت الحرف (الصاد) مكررا في كل كلمة من كلمات السطر الشعري، وحرف الصاد من حروف الصفير في اللغة العربية، وفيه حدة عند خروجه من مجرى الهواء الضيق، ومثل هذا التردد بشكل سيمتري في السطر الشعري يمثل ذبذبات صوتية صادرة من أعماق نفس الشاعر إلى الفضاء الكوني المشحون بصورة الأخت، وصوتها، وأنفاسها في كل مكان.

ومن ذلك أيضا إصراره على ترديد الحروف بشكل لافت، يمكنك استنباطه بسهولة ويسر في كل سطر شعري من سطور العمل برمته، مثل قوله:

لَمَّا رَأَيْتُ بَرَزْخًا مِنْ أَمَامِ

وَمِنْ وَرَاءِ

رَأَيْتُ بَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ

⁽²²⁾ كتاب الموت. ص 67.

⁽²³⁾ كتاب الموت ص 44.

وَأَوَارًا لِنُورِ النُّورِ تَكْشِفُ سِرَّهَا

وَتَسْأَلُ سَيْنِكَ

أَنْ تَجِيءَ

فقد تردد هنا حرف الراء ثمانى مرات في مساحة ليست كبيرة على محيط الرقعة الشعرية، وهو من الحروف المجهورة، وفي ترديده هنا إيقاظ لضمير المتلقي وتنبهه لجو أسطوري يصور برزخا، من أمام ووراء، وبحرين يلتقيان، وأورارا لنور النور، وكلها صور أسطورية تصور جانبا من جوانب الحياة الغيبية، حيث التقاء الأخت بالأم، وهي لحظة ميلاد أخرى. وكذلك قوله:

قبل قبلي

كنت أين؟

وأين أيني الآن أين؟

فلا سواها ترد روعي

ولا سواي

يولد.

(5)

للحروف في العربية استخدامات لغوية وظيفية، ودلالات تعبيرية فنية، ورموز إشارية تواصلية. والحرف في اللغة يعني اللغة نفسها، ويعني الجانب، ويعني غير ذلك طبقا لسياق الكلمة، فهو في قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) من سورة الحج. أي إذا لم ير ما يحب انقلب على وجهه، وفي حديث ابن عباس: أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف أي على جانب، وما جاء في الحديث من قوله، عليه الصلاة والسلام: نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، أراد بالحرف اللغة.⁽²⁴⁾

(24) انظر لسان العرب . مادة . ح ر ف .

والحرف عند الصوفية حجاب، والحجاب حرف... والحرف يسري حيث القصد جيم جنة وجيم جهنم. .. وفي الحرف الجهل والعلم،.. إنما خاطبت الحرف بلسان الحرف، فلا اللسان شهدي، ولا الحرف عرفني.. كما يقول النفري (ت:354هـ) في استغراقاته الصوفية⁽²⁵⁾. إذًا فالحرف حمولة رمزية صوفية خارج نطاق الأبجدية المعروفة. فإذا كان الحرف في الأجرومية هو الرابطة بين الاسم والاسم، أو الفعل بالفعل، فهو في اللغة الصوفية رابطة أيضا لكنها رابطة وجودية ومدخل للتقريب بين العبد والرّب، أو بين الإنسان والإنسان.

"إن غواية الحداثيين مع الحرفية تتوافق إلى حد كبير مع توجهاتهم العرفانية، إذ إن العرفانيين حولوا الحرف من مجرد بنية صوتية إلى نسق ثقافي."⁽²⁶⁾ وهنا تكمن الرؤية الفلسفية الصوفية للحروف لا باعتبارها رموزا اعتباطية، وإنما هي مقصودة وموجهة إلى جسد الإنسان حيث "يوجد في جسم الإنسان ثمانية وعشرون عضوا على عدد الحروف العربية. وفي هذه الحكمة يكمن فضل اللغة العربية على غيرها من اللغات."⁽²⁷⁾ ومن ثم وجدنا توازيا بين المعنى المعجمي للحروف ودلالاتها المعنوية والنفسية الجسدية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي في إشارته إلى وجوه الشبه بين الحروف العربية وجسد الإنسان ف: "الشين هو الرجل الكثير النكاح. والطاء الشيخ الشيق. والطاء صوت حركة الشدي إذا تتنت صاحبته."⁽²⁸⁾

إن الشكل الكتابي للديوان سمة مميزة للكتابة الصوفية الحديثة، فقد اعتمد الشهاوي على شكلية الكتابة للنص، فكّته كله في هيئة قصيدة واحدة/نص واحد، دون وضع عناوين جانبية أو أية عتبات أخرى تسهم في فك شفرته المغلقة، معتمدا

⁽²⁵⁾ المواقف والمخاطبات. محمد بن عبد الجبار النفري. تحقيق: آرثر أربري. تعليق وتقديم: د. عبد

القادر محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1985م. ص 177.

⁽²⁶⁾ ركائز التجديد في شعرية الحداثة. د. محمد عبد المطلب. غيمان. العدد الأول. شتاء 2007م.

⁽²⁷⁾ إخوان الصفاء وعلان الوفاء، رسائل، تحقيق عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت -

باريس 1995، 3 / 116

⁽²⁸⁾ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب الحروف، دار الكتاب العربي بيروت. د.ت، ص 43،

على قارئ واع بالفكر الصوفي وبطريقة كتابة الحروف واستخدام علامات الترقيم، متخذاً من البياض في الصفحة مدخلاً لتقديم عمله. ومعتمداً على رمزية الحروف العربية لتحميلها مضامين صوفية عرف بعضها الشعر العربي القديم في صورته التقليدية⁽²⁹⁾، وبعضها الآخر نابع من رمزية الحروف في الكتابة الصوفية عند من سبقه، وعند معاصريه في الوقت نفسه. وباستعراض الحروف العربية التي جاءت في الديوان:

ترددت الحروف العربية في الديوان (65) مرة، نال حرف الألف والسين والنون أعلى ترددات، حيث ورد حرف الألف (16) مرة، يليه حرف السين (15) مرة، ثم حرف النون (14) مرة.

حرف الحاء (7) مرات، يليه حرف الدال (6) مرات. أقل الحروف ترددا الكاف (3) مرات، والعين (2) فقط، وكل من اللام والميم مرة واحدة.

انتقى الشهاوي من الحروف العربية الثمانية والعشرين تسعة أحرف فقط هي: الألف والنون والسين والدال والحاء والعين والميم والكاف واللام. مما يدل على أن للشعر الصوفي لغة سرية باستخدامهم للحروف العربية نفسها، متخذين من غموض الحروف التي في مستهل سور القرآن الكريم متكناً يستندون عليه في سرية استخدامهم للحروف، وابتكار لغة خاصة بالصوفي شاعراً كان أو ناثراً. ومن ثم راحوا يرددون قول الله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) من سورة الكهف. في محاولة جادة منهم لترسيخ دعائم اللغة الخاصة ليبتعدوا عن اللغة العامة التي يفهمها الناس جميعاً. وذلك ابتغاء أمرين: الأول فهم كتاب الله تعالى ومحاولة كشف أسرارهِ بطريقتهم هم. الثاني:

⁽²⁹⁾ والشعراء العرب في استخدامهم للحروف حمولات دلالية تحيل إلى جسد الإنسان، ووجهه، فهذا

ابن الوردي يقول:

أفدي الذي صدغهُ لامٌ وحاجبُهُ نونٌ وقامتُهُ ممشوقَةٌ ألفُ

حروفٌ خطٍ من الوجهين هُنَّ لنا إنَّا لنطلبُها منه فينحرفُ

ومن قبله عمر بن أبي ريبة يقول:

وَجَبِينِ وَحَاجِبِ أَمْ يُصِبُهُ نَتَقُ حَطِّ كَأَنَّهُ حَطُّ نُونِ

محاولة اعتزال الناس في لغتهم، وتكوين لغة سرية يفهمها من ذاق فقط. وذلك لأن التصريح بهذه اللغة قد يسبب لهم ضررا بالغا يصل بهم إلى حد القتل. فالحروف التي هي مظاهر تفصيلها، مجملة في مداد الدّواة، ولا تقبل التفصيل مادامت فيها، فإذا انتقل المداد منها إلى القلم تفصلت الحروفُ به في اللّوح وتصلّ العلمُ بها إلى لا غاية، كما أنّ النّظفة التي هي مادّة الإنسان مادامت في ظهْر آدم مجموع الصّور الإنسانيّة مجملة فيها ولا تقبل التفصيل مادامت فيها. ولما انتقلت إلى لُوح الرّجم بالقلم الإنسانيّ تفصلت الصّورة الإنسانيّة".⁽³⁰⁾ ومن هنا فالقلم عند الصوفي "علم التفصيل". والنون "علم الإجمال".⁽³¹⁾

خَلَقَتْ، فَاسْتَوَيْتِ، وَانْشَطَرَتْ نَفُوسِكِ سَبْعًا
سَبْعُ جَوَاهِرَ تَخْرُجُ مِنْكَ، فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ تَتَرَقَّى نُورٌ،
وَيَعْرُجُ أَلْفٌ سَارِيًا فِي سَمَاوَاتِكَ. فِي وَصْلِ أَلْفِي وَنُونِهَا
يُنْخَلِقُ الْبَدْءَ وَتَنْسَكُلُ الْآيَاتُ الْأُولَى، وَيَكُونُ الْقَلَمُ
هُوَ مَسْرَى الرُّوحِ، وَلَوْحُهُ مَلَكٌ رُوحَانِيٌّ
أَوَّلُ نُورٍ يَسْطَعُ.

فِي سِنِّهِ تَكُونَيْنِ، وَتَشْتَعِلُ نَوَالٌ فِي نُونِهِ، مِنْكُمْ
تَبْدَأُ الْفَاتِحَةَ، وَ بِي نُعِيدُ لِلْمَوْتِ تَارِيخَهُ. «⁽³²⁾

عندما يصل الشاعر إلى أقصى درجة من الحرص والوعي الفني في استخدام الحروف العربية، في موقف من أشد المواقف حساسية، يصوره الشاعر بمهارة مبدع واعيا لكل حرف من حروف جملته ولغته، وموظفا له توظيفا ينم عن إحساس عميق بدقة الاستخدام وجوهره. يبدأ الشاعر المقطع بفعل دال على الزمن الماضي (خلقت)، ودلالاته اللغوية هي الخلق، وهو فعل مستعار من حقل آخر، حقل يمكن أن يقبله العقل أو يرفضه، ولكنه هنا مقبول فنيا، وعقليا أيضا، فالشطح ظاهره مستشنع،

⁽³⁰⁾ الجرجاني، التعريفات، الدار التونسية للنشر، ط 1 تونس 1971، ص 75 (القلم)

⁽³¹⁾ رسائل ابن عربي، معجم اصطلاح الصوفية، تصنيف عبد الرازق الكاشاني. تحقيق وتعليق:

د. عبد العال شاهين. دار المنار. القاهرة. ط 1. 1413 هـ. 1992 م. ص 118

⁽³²⁾ كتاب الموت. ص 42.

وباطنه صحيح مقبول، فعند الدفن ندعو للمتوفى بأن يبده الله زوجا خيرا من وزجه، وولدا خيرا من ولده، ودارا خيرا من داره.. سيما إذا علمنا أن الذات الشاعرة هنا تتوق إلى الفيض والبوح: فما ضاقت سماؤه عن جموحه.. فزوّج الإنس للجن، وتقجر بحره عن علومه.. فذاب في السر .. وتهتكت حبه.. وانشغلت شمس أحواله بالمعنى الذي يعني.

ومن هنا يمكن للمعنى أن يستقيم، وإن كان الغموض يلف جسد المقطع برمته ففعل الخلق هنا ناشئ من زواج الأخت بملك روحاني ليكون أول نور يسطع، ومن سينّ القلم(الملك الروحاني) يعرج ألف رمزا للذكورة والفحولة الملائكية ليصل ألف الشاعر (أحمد) ونونه(الأم نوال).. ينخلق البدء وتتشكل الآيات الأولى ليبدأ عهد جديد في نعيم خالد أزلا وأبدا ..

وفي مقطع آخر يتكئ الشاعر فيه على توظيف الحرف العربي، وتحميله دلالات مغايرة فيقول:

جَمَعْتِ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

فِي سَيْنِكَ

سَيْنٌ هِيَ الْعَيْبُ أَوْ بَدْوُهُ

اسْتَوَيْتِ عَلَى الْعَرْشِ

كُنْتِي

دَاتِكَ عَيْنٌ

أَلِفُ الْكَمَالِ أَنْتِ

لَا حَدَّ لِي

وَأَنْتِ فِي بَرْزَخٍ

لَا يَنْتَهِي حَطُّ إِلَيْكَ

بَدْءُ الشَّهَادَةِ دَالِي

أَنْتِ قَاعَةٌ

وَدَالُكَ لَمْ تَكُنْ أَبَدًا دَلِيلًا لِلنَّهَائِيَةِ

دَالٌ تَتَامُ لِنَفْتَحِ الدُّنْيَا

ببسين فَاتِحَتِي

وَحَاءُ أَحْوَالِي. (33)

حرف السين هو بداية الغياب والغيب، وذاتها حرف العين، والألف رمز به إلى حد الاكتمال، وحرف الدال هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهو في الوقت نفسه ليس دليلا للنهاية .. وهكذا يكون الحرف عند الشهاوي حرفا غير نمطي، فيحمله دلالات مختلفة طبقا لحمولة المعنى والسياق.. فليس للحرف عنده دلالة واحدة، واستخدام مفرد؛ فالحرف الواحد يحمل من الدلالات الرمزية ما يفوق الحصر، شريطة أن يصل الشاعر إلى المعرفة والكشف والتجلي، " لكن هذه المعرفة لا تتم مادام العارف واعيا أنه أو إنيته، بوصفها خارجا أو ظاهرا حياتيا متدرجا في الآن اليومي. هذه الأنا هي ، على العكس، عائق أمام المعرفة؛ لأن فريدتها حاجز يفصل بين العارف والمعروف. فلا يدرك الوجود حقا إلا بتجاوز هذه الأنا، حيث يزول الوعي بها. " (34)

مقطع آخر يستخدم فيه الشاعر الحروف استخداما أشبه ما يكون بالألغاز والأحاجي، وهو تطور طبعي للغلو في استخدام اللغة الخاصة ورموزها الغامضة. فيقول:

وَحَدْتُ دَالَا فِي الْمَتَاهُ

وَسَبَكْتُ ثَالِثَةً بِأَوْلَهَا وَرَسَمْتُ فِي الْمَدَى أَلْفًا (35)

توحيد الدال هنا أي دال سعاد ودال أحمد، وشبك الشاعر ثالث الحروف (الدال) بأول حروف الأخت (سعاد)، وأضاف ألفا؛ فتكون الكلمة الملغزة (أسد) وأحيانا يكون الحرف رمزا للعالم المختلج في ضمير الشاعر، فيبدو الدال رمزا للوجود الأنثوي الكامل، والألف رمزا واضحا للذكورة وآدم، وسعاد (الأخت) من حروفها حرف السين الذي يرمز به إلى السعير كما في المقطع التالي:

بوجودِ دَالِكِ

(33) كتاب الموت. ص 78.

(34) الصوفية والسورالية. ص 40.

(35) كتاب الموت . ص 92.

ظَهَرَ الْوَجُودُ

تَرَسَّخَتْ أَلْفِي

وألفتُ أنْ أمشي إلى النَّارِ التي أَحْجَازُهَا مَخْبِوءَةٌ في حُرُوفِكِ⁽³⁶⁾

وقد أكثر الشهاوي في استخدام الحروف بشكل لافت، ويكتسب الحرف مدلوله من سياقه كما في قوله:

أنا وأنت على نقطة

والنون منا

هي الفلك⁽³⁷⁾

وقوله:

ولدت سماء

تزوجت سين بسين

وتوحد الألفان بي وراحا يحملان النون

من كاف كن

وساحا يطلبان نوال في عليائها⁽³⁸⁾

وقوله:

سين هي الدنيا

ونون مدخل ونهاية⁽³⁹⁾

(6)

"أصبحت قراءة النص الأدبي ورصد أدبيته إنما تتم من خلال نوعية العلاقة التناسية التي تقيمها مع غيره من النصوص الواقعة في مجاله الحوارية". ولذا؛ "لم يعد

⁽³⁶⁾ كتاب الموت. ص 57

⁽³⁷⁾ كتاب الموت. ص 84

⁽³⁸⁾ كتاب الموت. ص 98.

⁽³⁹⁾ كتاب الموت. ص 17.

النص الأدبي مجرد إبداع ذاتي أو بنية فنية مستقلة..⁽⁴⁰⁾، والكتابة هنا -وفي هذا العمل، وفي غيره- هي إعادة كتابة سابقة، أو كتابة ثانية، لكتابة أولى مسبوق إليها الشاعر. نلاحظ أن الشهاوي في تعامله مع النص الآخر فإنه لا يشوّهه ولا يقلبه، لكنه يستعيره ليضيف إليه، أو يأخذ منه لمحة عابرة، أو إشارة فنية شاردة، ليمزجه بذاته وتجربته، وهو في هذا العمل إنما يحيل القارئ إلى النص الأصلي حتى لا يتهمه أحد بالمروق أو الشطح.. فمثلا يقول:

أَنَا الْأَلْفُ

أَنَا الْوَاحِدُ

أَنَا وَالْأَلْفُ وَاحِدٌ

الْأَلْفُ وَاحِدٌ

أَنَا

أَنَا.

فجملته (أنا الواحد) إحدى شطحات عبد القادر الجيلاني في الفيوضات الربانية: (أنا الواحد الفرد الكبير بذاته) فالشاعر أخذ الجملة كما هي لكنه أضاف إليها نفسه عن طريق الحلول والاتحاد التام، فالألف هو الحرف الأول من اسمه. وقوله:

رَمَادُهَا مَاءٌ وَذِكْرِي

بِدَايَةُ عَالَمٍ

لُغَةٌ

طَائِرٌ قَالَتْ

يَأْكُلُ

الشَّمْسُ تَحْرِقُهُ

وَرَمَادُهُ

(40) التناص في الخطاب البلاغي والنقدي. دراسة نظرية وتطبيقية. د. عبد القادر بقشي. أفريقيا

الشرق. المغرب. 2007م. ص 9.

تَحْمِلُهُ مَلَاتِكَةٌ

لِمَنَارَةٍ

الزَّيْحُ تَنْسِفُهُ

فَيَطِيرُ مِنْ وَجَعِهِ

كَاتِمًا مِنْ هَوَى

كَاتِبًا فِي الْهَوَا:

حَسْبُ الْوَاجِدِ إِفْرَادُ الْوَاجِدِ لَهُ⁽⁴¹⁾

وفي هذا النموذج نجد التناص منقولا بنصه من الحلاج، وهو تناص مباشر لا تغيير فيه ولا تحوير ولا تعديل، بيد أن العبارة المقتبسة (حسب الواجد أفراد الواجد له) تقف خاتمة لمقطع خروج الروح من جمرة الجسد الفاني، وهذا الجسد أصبح مجرد ذكرى، وبداية عالم جديد، وهو لغة في معناه، الشمس تحرقه، وذراته تحملها الملائكة لمنارة بعيدة، وهيئات الوصول .. هيئات!! تنسفه الريح فيطير من وجعه، كاتما هواه في جوفه، كاتبا في الفضاء عبارة تدل على التوحيد، والبقاء السرمدي، وهي عبارة الحلاج الشهيرة حسب الواجد أفراد الواجد له. مستحضرا بذلك موقف موت الحلاج، وما تحمله من دلالات عنقودية شديدة الحزن والوجع. وللحلاج عند الشهاوي حضور لافت في الديوان، لم يقف عند هذه الإشارة اللافتة، بل تعداها إلى أقوال أخرى من ديوان الحلاج كعبارة: قلوب العاشقين لها عيون⁽⁴²⁾، وغيرها من العبارات الصوفية الحلاجية مثل: حال أحوالي، منية الممتني، فليس للأين منك أين وليس أين بحيث أنت⁽⁴³⁾، وعين عيني، كل كلي، بعض بعضي، بحر بحري..

وأحيانا يأتي بالنص الغائب مشوها، منقوصا، كالإشارة الشاردة، كاللمحة الخاطفة، كالشمس وهي تجاهد البروغ وسط غمام كثيف، فتأمل قوله:

(41) كتاب الموت. ص 22 وما بعدها. وانظر كتاب: الأنساب للسمعاني. تحقيق: الشيخ عبد الرحمن

اليماني. مكتبة ابن تيمية بالقاهرة. ط2. سنة 1400هـ. 1980م 280/4

(42) الحلاج الأعمال الكاملة. ت: قاسم محمد عباس. رياض الريس للكتاب والنشر. بيروت. لبنان.

ط1. 2002م. ص 330.

(43) الحلاج الأعمال الكاملة. ص 295.

ذَاتِي بِأَيَاتِي عَلَيَّ اسْتَدَلَّتْ
وَأَنْتِ شَارِدَةٌ⁽⁴⁴⁾

مأخوذ من قول ابن الفارض:

وما زلتُ إيَّها وإيَّيَّيَ لَمْ تَزَلْ ولا فَرَّقَ بل ذاتي لذاتي أَحَبَّتْ

....

إِلَيَّ رَسُولًا كُنْتُ مَنِّي مُرْسَلًا ... وذاتي بأياتي على استدلت⁽⁴⁵⁾
وقوله:

أهل الهوى جندي
وهي أهلي
ودالها دالي⁽⁴⁶⁾

مأخوذ من قول ابن الفارض أيضا:

نَسَخْتُ بِجُبِّي آيَةَ الْعِشْقِ مِنْ قَبْلِي فَأَهْلُ الْهَوَى جُنْدِي وَحَكْمِي عَلَى الْكُلِّ⁽⁴⁷⁾

وأحيانا يحور النصّ الغائب فيأخذه بمعناه، ويصوغه بطريقته، دالا عليه
ببعض صورته وألفاظه وعباراته، ممتصا صورته وهيئته كاملة، ثم يقدمه للقارئ على
صورته الجديدة، تأمل معي قوله:

ماذا قالت الطير

بعد ما أكلت خبزا من ماء رأسك.

فهو استدعاء حتمي للآية الكريمة: وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي
أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي
بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ⁽³⁶⁾ من سورة يوسف.

أما التناص الذي غير فيه الشاعر وعدل وحوار نتيجة امتصاص للأصل فيتمثل في
قوله:

⁽⁴⁴⁾ كتاب الموت ص 17.

⁽⁴⁵⁾ ديوان ابن الفارض. دار صادر. بيروت. لبنان. ص 89.

⁽⁴⁶⁾ كتاب الموت. 28

⁽⁴⁷⁾ ديوان ابن الفارض. ص 174

إليكِ سعيْتُ لأعرفَ

وأفرض السر

وأعرج سائلا:

لماذا هذه الجدران نائمة على موت كأني تحتها

فالصورة الجزئية هنا تستدعي أبا الطيب المتنبّي، فقد سعى الشاعر إلى قبر أمه ليفرض السر لأعظم، لكنه عاد بسؤال كبير: فالجدران النائمة على موت أمه التي هي هو نفسه كأنها تحته هو نائم(ميت) تحتها، يوجهها أينما شاء ووقتما شاء. وهو استدعاء لصورة المتنبّي في قوله:

فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَامًا وَلَا أَرْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ رَوَالًا
عَلَى قَلْقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي أُوجِّهُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالًا⁽⁴⁸⁾

كذلك تصرف في بيت أبي ذؤيب الهذلي الشهير في قوله:
من ذا يَرُدُّ المَوْتَ قَلْتُ:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

فكل تميمة لا تتفع.

وأصل البيت هو: وَإِذَا المَيِّئَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَتَفَعُ

الخاتمة

النص الشهاوي في هذا العمل برمته نص مشكل حقا، من حيث الشكل الموسيقي؛ وذلك لأنه نص طويل(تسع وتسعون مقطعا)، وكل مقطع له شكل موسيقي مختلف عن الآخر، فالبداية والنهاية جاءت على وزن الكامل، ومعظمه جاء على شكل قصيدة النثر، وبعضه جاء مضطرب الوزن مشوشا الموسيقا، جمع فيه الشاعر بين أكثر من وزن في مقطع واحد، بل في سطر واحد، ومن ثم فالعمل ككل ينأى عن الموروث الموسيقي التقليدي، وربما يعزو ذلك إلى اعتقاد الشاعر نفسه بأن الشكل الموسيقي لم يعد يهتم به، وأنه تجاوز ذلك الصراع بين مؤيدي قصيدة النثر

(48) شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي. (معجز أحمد) أبو العلاء المعري. ت: د. عبد المجيد دياب.

ومعارضيتها كما جاء في أحد حواراته الثقافية، فالنص الشهاوي هنا شديد الارتباط بالموروث، فلا يخلو مقطع من مقاطع العمل إلا وفيه إشارة إلى نص قديم، سيما الصوفي منه، فهذا استدعاء صوفي لأحد أقطاب الصوفية المعروفين، وهو استدعاء مباشر أحيانا، وأحيانا أخرى غير مباشر، وفي كلتا الحالتين هو استدعاء مموسق، وموزون، لكن الشاعر يخلخل الوزن والموسيقا معتمدا على الإيقاع الداخلي، والخارجي للنص المدعو؛ فيمتصه ويوظفه بطريقة تدعو للتأمل، ليكسر حدة العنصر الموسيقي البارز في النص المستدعى.

• ينهض النص الشهاوي على نصوص سابقة وأخرى لاحقة، فهو نص ليس قائما برأسه، بل يتأسس بناؤه الفني داخل فضاء فني آخر يسمح له بالانفتاح على نصوص صوفية سابقة، وهو بذلك يعد إشارة فنية مفتوحة على نصوص ابن الفارض، والحلاج، وأبي يزيد البسطامي، والنفري، والجيلاني .. وغيرهم من أقطاب الصوفية الكبار.

• تمثل القراءة التي قمنا بها قراءة مفردة، لعمل مفرد، بعيدا عما اشتهر به الشهاوي، فقد دقت أبواق الشهرة بابه من أدب المرأة ووصاياها. وكتاب الموت نص فريد في تجربته، وشكله، وبنيته. امتزجت فيه التجربة الذاتية بالعامية، في نسيج من الإحالات والأصداء اللامتناهية، كما جمع فيه بين البنية السردية النثرية والبنية الشعرية الفارة من هيمنة سلطة العقل والمنطق، في إطار شكلي جمع فيه الشاعر بين الموزون وغير الموزون.

• إن قراءة النص الشهاوي قراءة شائكة، محفوفة بالمخاطر؛ لأنه نص مشاكس، عنكبوتي، متشعب، لا يكتفي بالاطلاع على الموروث الصوفي فحسب؛ ولا يرتمي في أحضان المألوف منه، وإنما هو نص يروم خلخلته، وإلقاء حجر في أمواهه الأسنة، وهو نص يتأبى على القراءة المفردة، النهائية.

المصادر والمراجع

- (1) القرآن الكريم.
- (2) إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، رسائل ، تحقيق عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت - باريس 1995 .

- (3) أزاهير الرياض. عبد المحمود نور الدائم. ط5. 1433هـ. 2012م. مكتبة القاهرة.
- (4) الأنساب للسمعاني. تحقيق: الشيخ عبد الرحمن اليماني. مكتبة ابن تيمية بالقاهرة. ط2. سنة 1400هـ. 1980م
- (5) التّعريفات، الجرجاني، الدّار التونسيّة للنّشر، ط 1 تونس 1971.
- (6) التّناص في الخطاب البلاغي والنقدي. دراسة نظرية وتطبيقية. د. عبدالقادر بقشي. أفريقيا الشرق. المغرب. 2007م.
- (7) الحلاج الأعمال الكاملة. ت: قاسم محمد عباس. رياض الريس للكتاب والنشر. بيروت. لبنان. ط1. 2002م.
- (8) الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل : بيروت، ط 1، 1988م ، 297/1.
- (9) ديوان ابن الفارض. دار صادر. بيروت. لبنان. ص 89.
- (10) رسائل ابن عربي، معجم اصطلاح الصّوفية، تصنيف عبد الرازق الكاشاني. تحقيق وتعليق: د. عبد العال شاهين. دار المنار. القاهرة. ط 1. 1413هـ. 1992م.
- (11) ركائز التجديد في شعرية الحدائث. د. محمد عبد المطلب. غيمان. العدد الأول. شتاء 2007م.
- (12) الرمز الشعري عند الصوفية. د. عاطف جودة نصر. دار الأندلس. بيروت. دار الكندي. بيروت. لبنان. ط1. 1978م.
- (13) شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي. (معجز أحمد) أبو العلاء المعري. ت: د. عبد المجيد دياب. ط2. 1413هـ. 1992م. دار المعارف. القاهرة.
- (14) شطحات الصوفية. د. عبد الرحمن بدوي. الناشر وكالة المطبوعات. الكويت. د.ت.
- (15) الصوفية والسوريالية. أدونيس. دار الساقي. ط3. د.ت.
- (16) القارئ والنص، العلامة والدلالة. سيزا قاسم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة 2014م.
- (17) كتاب الحروف، الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار الكتاب العربي بيروت .د.ت .
- (18) كتاب الموت. أحمد الشهاوي. دار المصرية اللبنانية. الطبعة الأولى. رمضان 1417هـ. يناير 1997م.

- (19) المستطرف في كل فن مستظرف. للأبشيهي.ت: إبراهيم صالح. المجلد الثاني. دار صادر . بيروت. ط1. سنة 1999م.
- (20) المواقف والمخاطبات. محمد بن عبد الجبار النفري. تحقيق أرثر أريبي. تقديم وتعليق/ د.عبدالقادر محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1985م.
- (21) لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت. لبنان. ط3. 1414هـ. 1993م.

الدلالة الصرفية لأبنية القرآن الكريم (فَعَال) أنموذجا
 د. جنان ناظم حميد كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
 د. أحمد عاشور جعاز كلية التربية/ ابن رشد - جامعة بغداد

الملخص

بلغت أمثلة صيغة (فَعَال) في القرآن الكريم أربعة وسبعين مثالا قرآنيا جاءت على ثمانية معان معروفة ومعنى تاسع ذي دلالة احتمالية وعاشر ذي دلالة مختلف فيها ، تلك المعاني هي :

الأول: فَعَال اسما إفراديا نحو جَنَاح في قوله تعالى: {وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} [طه : 22] .

الثاني: فعال صفة نحو (بقرة عوان) في قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ} [البقرة:68]

الثالث : فعال ظرفا نحو (وراء) في قوله تعالى : {وَأْتِي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} [مريم : 5]

الرابع : فَعَال اسم جنس جمعي محسوس بينه وبين واحدِه حَذَفِ الهاء ، كالسحاب في قوله تعالى:(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّتَاهُ لِيَلِدِ مِيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ) [الأعراف : 57] .

الخامس: اسم جنس جمعي معنوي بينه وبين واحدِه الهاء ، وهذا النمط من الدلالة استظهره البحث قياسا على الأمثلة المحسوسة بين الفعال والفعالة، ومن أمثلته في التنزيل العزيز (الضلال والضلالة) .

السادس : فعال اسم مصدر، وأمثله كثيرة أزاء التفعيل، أحصينا منها ثلاثة وعشرين مثالا، منها: (أداء ، أذان ، بلاغ ، خراب ، خسار) . وجاءت أمثلة اسم المصدر على الفعال من باب الإفعال أيضا، ومنها (أنبت نباتا ، أعطى عطاءً ، أتاب ثوبا) .
السابع : فعال مصدرا . إذ سمعت أمثلة صيغة (فَعَال) في العربية دالة على مصادر الفعل الثلاثي، ومن أبوابه كلها إلّا باب (فَعِل يَفْعِلُ) ، ودلت المصادر على الحسن القبح واللون والنشاط والبقاء

الثامن: فعال اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو المعروف باسم الجنس الافرادي، كالرماد في قوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ النَّبِيُّ) [إبراهيم :18]
التاسع : فَعَال ذو الدلالة الاحتمالية ، فثمة أمثلة قرآنية على وزن فعال ذكروا في تأويلها وجهين صرفيين أو أكثر وهي (أاث ، سماء ، هباء)، كشف البحث عن الوجه الراجح فيها مفندا سائر الأوجه الضعيفة .

العاشر : فعال المختلف في دلالاته . ويمثله لفظة (الأنام) في قوله تعالى: (لَوْ الْأَرْضِ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ) [الرحمن : 10] إذ اختلف علماء العربية في تأصيل الأنام اشتقاقا ودلالة وعرض البحث هذا الخلاف ورجح كون الأنام هم الناس ولكن ليس هذا المدلول على إطلاقه فلا يراد بالأنام عموم الناس بل صفوتهم وخلصتهم، فالإنسان هو خليفة الله على أرضه ، إذ قال في كتابه العزيز : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) [الأنعام : من الآية 165]

الكلمات المفتاحية: (الأبنية الصرفية-فَعَال)

Morphological Connotation of the Patterns of the Gracious

Quran:

Faala Case Study

Abstract:

The pattern (Fuaal) has been mentioned in the Holy Quran for seventy – four times in eight well-known senses and the ninth sense of social connotation whereas the tenth of unsettled(argumentative) sense Thosesenses are:

First: Fuaal as singular as stated in Holy Quran"Junah" [Taha: 22].

Second: Fuaal as an adjective as in "Awaan" [Al - Baqarah: 68]

Third: Fuaal as an adverb as in "Waraa" as in [Mariam: 5]

Fourth: Fuaal as gender collective noun sensed between itself and the one omitted as in "Alsuhaab" [Alaaraaf: 57].

Fifth: Fuaal as gender collective noun sensed between itself and the one "Haa" and this pattern has been concluded from Examples Sensible between "Fuaal and Fuaala", as in Holy Quran "Dhalaal and Dhalaala".

Sixth: Fuaal as an infinitive noun, Many of the examples About Activation I counted Of which Twenty three instances as in (Aadaan, Adaa', Balagh, Khaarab ,and Khassar). Examples on the pattern "Ifaal" were also given (Anbatta-Nabaata; Athaba-Thawaba)

Seventh: Fuaal as an infinitive heard in Arabic as in the Triple verb (faal-Yafaal) and such infinitives referred to beauty, ugliness, color, activity and survival

Eighth: Fuaal as Noun plural No singular for it from its coinage and known as Individual Gender Noun as in (Ramad) in Holy Quran [Ibrahim: 18]

Ninth: Fuaal of Probability connotation, there are some Quranic Examples of the pattern "Fuaal" Stated with Two - sided Interpretation like (Athaath, Samaa', Habaa') where the research disclosed the most used one

Tenth: Fuaal which is different in its connotation as in 'Alanaam" stated in Holy Quran [ALRahman: 10], as Arab scholars differed in rooting creatures etymology and the indication mostly refer to the elite People as Man is God's successor on earth as stated in Holy Quran in [AlBakaraa 165]

بلغت أمثلة صيغة (فَعَال) في القرآن الكريم أربعة وسبعين مثالا قرآنيا⁽⁴⁹⁾، جاءت

على ثمانية معان معروفة، ومعنى تاسع ذي دلالة احتمالية، وعاشر ذي دلالة

مختلف فيها ، تلك المعاني هي :

⁽⁴⁹⁾ هي : أئاث ، أئام ، أداء ، أذان ، أمام ، أنام ، براء ، بناء ، بلاء ، بلاغ ، بنان ، بوار ، بيات ، بيان ، تباب ، تمام ، ثواب ، جراد ، جزء ، جلال ، جمال ، جناح ، جهاز ، جواب ، حرام ،

الأول: فَعَالِ اسْمًا إِفْرَادِيًّا⁽⁵⁰⁾، نحو (جَنَاح) في قوله تعالى: {وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} [طه : 22] . وقوله تعالى : {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [القصص : 32] " ومعنى : {واضمم إليك جناحك} ، وقوله : {اسلك يدك في جيبك} على أحد التفسيرين : واحد . ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني : إخفاء الرهب . فإن قلت قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه ، وذلك قوله : { واضم إليك جناحك } وقوله : {واضمم يدك إلى جناحك} [طه : 22] فما التوفيق بينهما؟ قلت : المراد بالجناح المضموم . هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه : اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليمين ويسراها : جناح ."⁽⁵¹⁾

الثاني: فَعَالِ صِفَةً⁽⁵²⁾، نحو : جَوَادٌ، وَجَبَانٌ، وَصَنَاعٌ . ومنه (بقرة عوان) في قوله تعالى : {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ} [البقرة : 68] " والعوان : البقرة النصف في سنّها . والحرب العوان التي كانت قبلها حربٌ بَكْرٌ ، وهي أولُ وقعة ، ثم تكون عَوَاناً كأنّها تُرْفَعُ من حالٍ إلى حالٍ أشدّ منها . ويُقال للمرأة النّصف : عَوَانٌ"⁽⁵³⁾، فالبقرة العوان هي المتوسطة بين السنين⁽⁵⁴⁾ .

حصاد ، حلال ، حنان ، خبال ، خراب ، خراج ، خسار ، خلاق ، ذهاب ، رشاد ، رماد ، رواح ، زوال ، سحب ، سراب ، سراح ، سلام ، سماء ، سواء ، شراب ، صباح ، صغار ، صواب ، ضلال ، طعام ، طلاق ، عذاب ، عراء ، عطاء ، عوان ، غداء ، غرام ، غمام ، فراش ، فساد ، فواق ، قرار ، قوام ، كلام ، متاع ، نبات ، نفاذ ، نكال ، نهار ، وبال ، وثاق ، وراء ، هباء ، هواء .

⁽⁵⁰⁾ ينظر : شرح جمل الزجاجي : 243/2.

⁽⁵¹⁾ الكشاف 175/3

⁽⁵²⁾ ينظر : الكتاب : 249/4، والمحتسب : 244/2، وارتشاف الضرب : 511/2.

⁽⁵³⁾ العين : 1316/2 (عون).

⁽⁵⁴⁾ ينظر : تهذيب اللغة : 203-202/3 (عان)، المحيط في اللغة : 159/2 (عون).

الثالث : والظروف التي على وزن فعال في التنزيل العزيز هي: (أمام ، بياتا، صباح ، نهار ، وراء) . فأما لفظة (وَرَاءَ) فاختلقت فيها أقوال المفسرين واللغويين، فأصحاب كتب الأضداد يذهبون إلى أنها من ألفاظ التضاد⁽⁵⁵⁾ ، مستدلين على دلالتها على الخلف بقوله تعالى : **لِوَأْتِي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا** {مريم : 5} ، وعلى الأمام بقوله تعالى : **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** {الكهف : 79}، وقوله تعالى **لَمَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** {الجنائفة : 10} . وذهب أبو عبيدة و أبو علي الفارسيّ والجوهريّ إلى جواز استعمال لفظة (وَرَاءَ) بمعنى أمام⁽⁵⁶⁾، وقدّ بعض اللغويين دلالتها على الأمام ، فاشتراط أن تكون لفظة (الوراء) منساقفة في المواقيت والأزمنة ، وعليه قوله تعالى : **{مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}** ، و **{وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}** {إبراهيم : 17} ، و **{لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** {المؤمنون : 100}، يقول الفراء : " ولا يجوز أن تقول لرجل وراءك هو بين يديك ، ولا لرجل بين يديك هو وراءك ، وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الأيام ، والليالي ، والدهر أن تقول : وراءك برد شديد ، وبين يديك برد شديد ؛ لأنك انت وراءه ، فجاز ؛ لأنه شيء يأتي فكانه اذا لحقك صار من ورائك ، وكأنك اذا بلغته صار بين يديك "⁽⁵⁷⁾، ولذا أخرج بعض المفسرين هذه اللفظة من باب التضادّ ، قال الطبري : " وقد جعل بعض أهل المعرفة بكلام العرب (وراء) من حروف الاضداد، وزعم أنه يكون لما هو أمامه ولما هو خلفه... وقد أغفل وجه الصواب في ذلك ، وإنما قيل لما بين يديه هو ورائي؛ لأنك من ورائه، فانت ملاقيه

⁽⁵⁵⁾ ينظر : النوادر (ابو زيد) 45-46 ، والأضداد (السجستاني) 82-83، والأضداد (ابن الانباري) 68

⁽⁵⁶⁾ ينظر : مجاز القرآن : 1/2 ، والصحاح 1136 (ورى)، وروح المعاني: 10/16

⁽⁵⁷⁾ معاني الفراء 2/157 ، وينظر : معاني الاخفش 2/374 ، وادب الكاتب 181 ، ومعاني القرآن وإعرابه 3/305، والمفردات 575 ، والكشاف 2/495 ، ونزهة الاعين النواظر 541-542 .

كما هو ملائقيك، فصار إذ كان ملائقيك من ورائك وأنت أمامه⁽⁵⁸⁾ وفسروا إرادة الخلف في قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَ هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : 79] بأنه خلفهم يتتبعهم⁽⁵⁹⁾، وهذا ما أكدّه الزجاج بقوله : " وراءهم: خلفهم ، وهذا أجود الوجهين "⁽⁶⁰⁾ .
 . وصرّف بعضهم دلالة (الوراء) إلى المواراة أي الستر ليشمل بذلك الخلف والأمام مادام فيه ما هو مستور، فالوراء " اسم لما توارى عنك سواء كان أمامك أم خلفك"⁽⁶¹⁾. والظاهر أن اللفظ ليس من التضاد؛ لأنّ دلالة الوراء على الخلف تدخل في باب الترادف⁽⁶²⁾ لا حمل اللفظ على معنى وآخر ضده ، فضلا عن أن دلالة اللفظة على الأمام لا تستحصل إلا بالتأويل، وليست حاصلة بصورة مستقلة عن السياق كما هو حال ألفاظ التضادّ الأخرى . فالمحصّل من مدلول لفظة الوراء: "إنّما هي من المواراة والاستتار، فما استترّ عنك فهو وراء ، خُلفك كان أو قُدّامك هذا إذا لم ترّه أو تشاهده، فأما إذا رأيته فلا يكون أمامك وراء"⁽⁶³⁾ .

الرابع : فَعَال اسم جنس جمعي محسوس بيّنه وبين واحده حَذَف الهاء⁽⁶⁴⁾، وأمثله من التنزيل العزيز هي: (سحاب ، غمام ، جراد ، فراش، بنان).
 والسحاب اسم جنس جمعي مفرد (سحابة)، ويصح فيه مراعاة لفظه ومعناه⁽⁶⁵⁾ ، فاسم الجنس لفظ مفرد معناه الجمع، وقد راعى التعبير القرآني لفظه ومعناه معا في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّئَهُ لِمِيتٍ فَأُنزِلْنَا بِهِ الْمَاءَ) [الأعراف : من الآية57] فباعتبار معناه نعت بالجمع (ثقال)، وباعتبار لفظه رجع إليه الضمير

(58) جامع البيان 302/16

(59) ينظر : التبيان للطوسي 32/6 ، والكشاف 371/2 ، ومجمع البيان 67/6، والجواهر الحسان 212/2 و277 ، وأنوار التنزيل 515/3 ، والبحر المديد 296/3 .

(60) معاني القران وإعرابه 305/3 .

(61) البحر المحيط 418/6 ، وينظر: علم الدلالة (عمر) 206 .

(62) ينظر: علم الدلالة (عمر) 231 .

(63) الأضداد في اللغة ، د . محمد حسين آل ياسين : 135 .

(64) ينظر : شرح جمل الزجاجي 243/2.

(65) ينظر : الصحاح 478 (سحب) .

مفردا في (سُقْنَاه) ولم يقل (سُقْنَاهَا)⁽⁶⁶⁾، ويرى الدكتور إبراهيم السامرائي أن " السَّحَاب في العربية يُراعى فيه اللفظ في الغالب ، أي أنه مفرد كالماء والهواء ، وإن كان في الحقيقة شيئا لا يَنْبَيِّن فيه الأفراد من الجمع ، وهو شيء كثير كالغمام والماء والهواء ، ولكنته رُوعي المعنى في الآية ، فجاء الوصف جمعا (ثقالاً)"⁽⁶⁷⁾ والسَّحَاب هو الغمام المتحرّك المتقل، وبهذا علّل الراغب تسمية السَّحَاب بهذا الاسم قائلاً: "إمّا لَجَرَّه الرِّيح له، أو لَجَرَّه الماء، أو لانجراره في مَرَّه"⁽⁶⁸⁾، وفرق الثعالبي بين السحاب ونظرائه كالغمام والمزن وغيرهما قائلاً: "إذا انسَحَبَ في الهواء فهو السَّحَاب، وإذا تَغَيَّرَتْ له السَّمَاء فهو: الغَمَام . فإذا أَظَلَّ فهو: العَارِضُ، فإذا ابْيَضَّ فهو: المُنْزَن"⁽⁶⁹⁾. والجَرَادُ -أيضا- اسم جنس على (فَعَال) مُفْرَدُهُ جَرَادَةٌ على (فَعَالَة)، ويقع على الذكر والأنثى، وليس هو ذكراً للجرادة، قال الراغب: "الجَرَادُ معروف قال تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ). فيجوز أن يُجعل أصلاً فيشتقّ من فعله جَرَدَ الأرض، ويصح أن يقال سُمِّي ذلك لَجَرَدِهِ الأرض من النَّبَات ، يُقال: أرضٌ مجرودةٌ أي أكل ما عليها حتى تجردت "⁽⁷⁰⁾.

ووصف التعبير القرآني خروج الموتى من القبور يوم البعث بالجراد المنتشر قال تعالى: {خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر: 7] ورأى الزمخشري أن تشبيههم ب"الجراد مُثَلِّ في الكثرة والتموج"⁽⁷¹⁾، وقال ابن الجوزي: "وإنما شَبَّهَهُم بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ ، لِأَنَّ الْجَرَادَ لَا جِهَةَ لَهُ يَقْصِدُهَا"⁽⁷²⁾، ورأى ابن

⁽⁶⁶⁾ ينظر : جامع البيان 201/19 ، والكشاف 244/3-245، وزاد المسير : 52/6 ، وأنوار التنزيل 28/3 ، ومدارك التنزيل 52/2 ، والبحر المحيط 257/4، وتفسير القرآن العظيم 430/3.

⁽⁶⁷⁾ من بديع لغة التنزيل : د .إبراهيم السامرائي : 99 .

⁽⁶⁸⁾ المفردات : 225 (سحب) .

⁽⁶⁹⁾ فقه اللغة وسرّ العربية : 407 .

⁽⁷⁰⁾ المفردات : 90 (جرد).

⁽⁷¹⁾ الكشاف : 432/4 .

⁽⁷²⁾ زاد المسير : 91/8 .

عاشور: " تشبيهُهم بالجرادِ المُنتَشِر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعضٍ من شدّة الخوفِ زيادةً على ما يُفِيدُه التشبيهُ من الكثرة والتحرّك" (73).

والفَرَّاش "جمع فَرَّاشَة، وهي دويبة تطيرُ" (74)، والفَرَّاش: اسم جنس جمعي مفردُه فَرَّاشَة . ووَرَدَت لفظة (فَرَّاش) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) [القارعة: 4] ، وهو وَصْفُ الْمَشْهَدِ الذي يكون فيه الناس يوم القيامة ، وقد اقترنت لفظة (فَرَّاش) بلفظة (مَبْثُوث) التي تعني تفرق الشيء وإظهاره (75)، فَوَجَّهَ الشَّبَهَ بين الإنسان - في ذلك اليوم- والفَرَّاشِ الطَّائِرِ هو الانتشار والكثرة والاضطراب وَعَدَمُ الانتظام والضعف . وقد مَيَّزُوا بين قوله تعالى: (جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) وقوله تعالى : (كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) ، فقال البغوي: "وذكر المُنتَشِر على لفظ الجراد، نظيرها : (كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) وأراد أنهم يخرجون فَرِعين لا جهةً لأحدٍ منهم يقصدها ، كالجراد لا جهة لها ، تكون مختلطةً بعضها في بعض" (76) ، وقال السيوطي : "فإن قلت : قد شَبَّههم في سورة القمر بالجراد المُنتَشِر ، وهنا بالفَرَّاش ؛ فهل بينهما توافق أم لا ؟ فالجواب : إن بينهما موافقة على قول بعضهم، قال الفراء (77) : الفَرَّاش غوغاء الجراد وهو صَفِيرُه الذي يَنْتَشِر في الأرض والهواء ، قال بعضُ العلماء : الناس أول قيامهم من القبور كالفَرَّاشِ المَبْثُوثِ ؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر كالجراد المُنتَشِر ؛ لأنَّ الجراد إنّما توجَّههُ أبدأً إلى ناحية مقصودةٍ وبهذا يظهر لك الجَمع بين الآيتين" (78). وقال الألويسي: "اختلفوا في تأويله على وجوه لكن كلها ترجع إلى معنى واحدٍ وهو الإشارة إلى الخيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم واختار غير واحدٍ ما رُوي عن قتادة، وقالوا شَبَّهوا في الكثرة والانتشار والضعف والدُّلة والمجيء والذهاب

(73) التحرير والتوير : 177/27 .

(74) جمهرة اللغة : 729/2 ، وينظر : لسان العرب 269/15 (فرش).

(75) ينظر : مدارك التنزيل : 151/4 .

(76) معالم التنزيل : 428-427/7 .

(77) ينظر : معاني القرآن : 286/3 .

(78) معترك الأقران : 121-130/2 .

على غير نظام والتطير إلى الداعي من كلِّ جهةٍ حين يدعوهم إلى المحشر بالقرّاش المتفرّق المتطائر⁽⁷⁹⁾ .

الخامس: اسم جنس جمعي معنوي بينه وبين واحده الهاء ، وهذا النمط من الدلالة استظهره البحث قياساً على الأمثلة المحسوسة بين الفعال والفعالة وأمثله في التنزيل العزيز هي :

1- بَرَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} [الزخرف : 26] ، ومفرده براءة في قوله تعالى : {بِرَاءةً مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : 1] ومعنى العموم في لفظة (براء) يفهم من كون ابراهيم أمة فجمع اللفظ تلويحاً إلى الذين كانوا معه أو اقتدوا به وقد صرح التعبير القرآني بذلك في آية أخرى ورد فيها لفظ البراءة جمعاً صريحاً على وزن (فُعلاء) في قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المتحنة : 4] .

2- المكان ، وهو في التنزيل العزيز للموضع غير المعلوم ولذا وصف بالقرب والبعد والعلو والضيّق والسحيق والقصي والشرقي وغير من القيود التي تحدد معالمه، على حين استعمل التعبير القرآني المكانة بمعنى التّوَدُّة أي الموضع الخاص الذي يشغله صاحبه وأطلقت مجازاً على المنزلة الرفيعة وفي التنزيل العزيز {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي على ما أنتم عليه مستمكون⁽⁸⁰⁾ .

3- الضلال يفيد العموم في التعبير القرآني ومفرده (ضلالة) تعيد المرة الواحدة منه وهي معرفة كما في قوله تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة : 16]

وثمة أمثلة أخرى في التنزيل العزيز جاءت على الفعالة وحدها والفعال مسموع معها في كلام العرب وهي (الأمانة، والرضاعة، والسفاهة، والغيابة والكلالة والندامة، والولاية، والعداوة، والأثارة، والجهالة، والخصاصة والشفاعة والشهادة)، وفسرت هذه

⁽⁷⁹⁾ روح المعاني : 221/30 .

⁽⁸⁰⁾ ينظر : لسان العرب 194/19

الأمثلة بالدلالة على المصادر، فذكروا أن أمثلة الفعالة ترد مصدراً سماعياً لأبواب الفعل المجرد في غير باب (فَعَلْ) ، ومصدراً كثيراً في باب (فَعُلْ يَفْعُلْ)⁽⁸¹⁾ ، وتأتي مصدراً للفعل الثلاثي من باب (فَعِلْ يَفْعُلْ) وأكد ابن قتيبة على قياسيته قائلاً: "باب فَعِلْ يَفْعُلْ يجيء المصدر من هذا ... على فَعَالَةٍ نحو: زهدت زَهَادَةً"⁽⁸²⁾.

ويبدو أن بناء (فَعَالَةٍ) سماعي في المصادر ، وعلى الرغم من ذلك حصر سيبويه بعض الأمثلة المقيسة عليه؛ لأنها تجتمع في الدلالة على الحسن والقبح نحو: النَّظَافَةِ، وَالْوَسَامَةِ، وَالْوَسَاخَةَ، وَالْبِشَاعَةَ ، وعدّ ما كُسِرَتْ فَاؤُهُ كَالْوَالِيَةِ وَالْإِمَارَةِ أَسْمَاءَ لَا مَصَادِرَ ، فالوَالِيَةِ اسم لما تَوَلَّيْتَهُ ، وَالْإِمَارَةِ اسم لما أَمَرْتَهُ عَلَيْهِ⁽⁴⁾ . فالأظهر أن صيغة (فَعَالَةٍ) هي واحد الفَعَالِ في المصادر على وفق ما ذكر آنفاً.

السادس : فعال اسم مصدر ، المراد باسم المصدر هو ما ساوى المصدر في الدلالة على معناه وخالفه بخلوه لفظاً أو تقديراً من بعض ما في فعله دون تعويضٍ، كَعَطَاءٍ فَإِنَّهُ مَسَاوٍ لِإِعْطَاءٍ مَعْنَى وَمَخَالَفٌ لَهُ بِخَلْوِهِ مِنَ الْهَمْزَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي فِعْلِهِ وَهُوَ خَالٍ مِنْهَا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَلَمْ يَعْوِضْ عَنْهَا بِشَيْءٍ⁽⁸³⁾، وجاءت أمثلة الفَعَالِ اسم مصدر في القرآن الكريم كثيراً أراء التفعيل أحصينا منها ثلاثة وعشرين مثالا هي: (أداء ، أذان ، بلاغ ، خراب ، خسار بيان ، تباب ، تبار ، حلال ، عذاب ، صواب ، جهاز ، حرام ، خراج ، سراح ، سلام ، سواء ، طلاق، كلام، متاع ، نكال ، قوام ، عراء) واستعمل التعبير القرآني أمثلة الفَعَالِ دالة على الأسماء المحسوسة والمعنوية وأمثلة التفعيل على الحدث الجاري على فعله غير المقترن بزمن أو مكان كما في (البلاغ والتبليغ) ، إذ قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[المائدة : 92] فالْبَلَاغُ هنا اسم مصدر؛ لأنه من الفعل (بَلَّغَ) ، وهو هنا بمعنى (تَبْلِيغٍ)⁽⁸⁴⁾ ، لكنَّ التَبْلِيغُ هو مجرد حدوث الفعل

(81) ينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه : 217 و 234 .

(82) أدب الكاتب : 508.

(83) ينظر: الكتاب 26/4 ، وشرح الشافية 163/1، شرح ابن عقيل 98/2، وأوضح المسالك

161/3 ، وشرح التصريح 61/2.

(84) ينظر : المفتاح في الصرف 64/1.

والبلاغ هو التبليغ مع إقامة الحجة والهداية . وكذا الفرق بين (الجهاز والتجهيز) قال تعالى : (وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [يوسف : 59] ، وإنما قال بجهازهم ولم يقل بتجهيزهم؛ لأن "الجهاز ما يُعدّ من متاعٍ وغيره والتجهيز حملٌ ذلك أو بعثه"⁽⁸⁵⁾.

السابع : فعال مصدرًا .

سمعت أمثلة صيغة (فَعَال) في العربية دالة على مصادر الفعل الثلاثي ومن أبوابه كلها إلا باب (فَعِلْ يَفْعِلُ)⁽⁸⁶⁾ ، وقد سُمعت هذه الصيغة مصدرًا لـ (فَعَلَ) ، فحكى عن بعض العرب أنهم يقولون في ذَهَبَ : دُهِوبًا وَذَهَابًا ، وفي ثَبَّتْ ثُبُوتًا وَثَبَاتًا ، وفي فَسَدَ فَسُودًا وَفَسَادًا ، وفي صَلَحَ صَلُوحًا وَصَلَحًا فَيَصْعُونَ الْمَصْدَر (فَعَال) بدلًا من الْمَصْدَر الْقِيَاسِي (فُعُول)⁽⁸⁷⁾ . وتلمس سيبويه عدة معانٍ لأمثلة المصادر التي سمعت على هذا البناء الصرفي هي :

1- الحُسْنُ ، إذ قال : "أما ما كان حُسْنًا ... فَإِنَّهُ مِمَّا يُبْنَى فَعْلُهُ عَلَى (فَعُلْ يَفْعُلْ) ، و يكون المصدر فَعَالًا وَفَعَالَةً وَفُعَلًا"⁽⁸⁸⁾ . نحو : وَسَمَ يَوْسُمُ وَسَامَةً وَوَسَمَ⁽⁸⁹⁾ . ومن أمثلة المصادر التي على الفعال الدالة على الحسن في القرآن الكريم : الجمال والجلال والوقار والرشاد .

2- القبح والسقم ، قال سيبويه "أما ما كان ... فُجْبًا فَإِنَّهُ مِمَّا يُبْنَى فَعْلُهُ عَلَى (فَعُلْ يَفْعُلْ) ، و يكون المصدر فَعَالًا وَفَعَالَةً وَفُعَلًا"⁽⁹⁰⁾ نحو يَسْقُمُ سَقَامَةً وَسَقَامًا وَسَقَمًا⁽⁹¹⁾ ، ومن الأمثلة الدالة على القبح والسقم : الغرام والوبال، والضلال، والصغار، والمخاض، والبلاء، والبور، والأثام، والفساد، والكساد، والخبال .

(85) المفردات : 101 (جهز) .

(86) ينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه : 233 .

(87) ينظر : الكتاب 9/4 ، والتكملة 513 .

(88) الكتاب : 28/4 .

(89) ينظر : نفسه : 28/4 .

(90) نفسه : 28/4 .

(91) ينظر : نفسه : 28/4 .

3- اللّون، وذلك في قول سيبويه: " (النَّبِيَّاض) و (السَّوَاد) ، كما قالوا (الصَّبَاح) و (المَسَاء) ، لأنَّهُما لونا ن بمنزلةهما"⁽⁹²⁾ .

4- النِّشَاط ، في قول سيبويه: "وقالوا : نَشَطَ يَنْشُطُ ... و قالوا : النِّشَاطُ كما قالوا السَّقَام"⁽⁹³⁾ . ومنه الذهاب، والنفاذ، والزوال، والرواح، والفواق، والجزاء والحصاد، فهذا كله حركة ونشاط حتى انتهاء الفعل والفراغ من القيام به . وفرّق سيبويه بين الفَعَالِ الدال على الحركة والنشاط والفِعَالِ الدال انتهاء الزمن بأن قال: "وجاؤوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزّمان على مِثَالِ فِعَالٍ و ذلك كالصِّرام ، والجِزار والقطاع و الحِصاد ، ورُبِمَا دَخَلَتِ اللّغة في بعض هذا فكان فيه فِعَالٌ وفَعَالٌ"⁽⁹⁴⁾، إلَّا أَنْ (الحِصَادَ) لانتهاء الزمان، و(الحِصَاد) لانتهاء الفعل والحدث؛ لأنّه أعمّ.

5- البَقَاء والاستمرار نحو: بَقِيَ الشَّيْءُ يَبْقَى بَقَاءً ، ودَامَ يَدُومُ دَوَاماً ، ومنه القرار والمكان .

وثمة أمثلة قرآنية جاءت على البناءين الفَعْلُ والفَعَالُ من الجذر نفسه واختلفوا في توجيه الفرق الدلالي بينهما كما في (الخَرْجُ والخَرَجُ) فذهب فريق إلى أنهما بمعنى واحد، فقيل: الخَرْجُ والخَرَجُ كلاهما اسم بمعنى "الإتاوة تؤخذ من أموال الناس"⁽⁹⁵⁾، وقيل: العُلَّةُ عامّة⁽⁹⁶⁾، وقيل: هما غلّة العبيد والأمة⁽⁹⁷⁾، وقيل: إنَّ خَرَجاً بلُغَة حِمِيرٍ ، وخَرَجاً بلُغَة قريش⁽⁹⁸⁾، ولما كان اللفظان اسمين جُمعا على أخرج وأخارج وأُخْرِجَة⁽⁹⁹⁾. وقيل: إنَّ أصلَ الخَرَجِ والخَرْجِ مصدران فلا يُجمَعان . وفرّق آخرون بينهما فذهب الفرء إلى أنّ (الخَرَج) اسم والمصدر (خَرْج) بقوله: " وقوله: (فَهَلْ

⁽⁹²⁾ نفسه : 26/4.

⁽⁹³⁾ نفسه : 19/4.

⁽⁹⁴⁾ نفسه : 12/4، وينظر شرح الرضي على الشافية : 154/1.

⁽⁹⁵⁾ جمهرة اللغة : 443/1، مادة (جخر). ينظر : الصحاح : 310/1 ، مادة (خرج)

⁽⁹⁶⁾ ينظر : تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب : 89 .

⁽⁹⁷⁾ ينظر : المحكم : 4/5 (خرج).

⁽⁹⁸⁾ ينظر : اللغات في القرآن : 36 .

⁽⁹⁹⁾ ينظر : الصحاح : 288 (خرج) .

نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) الخَرْج الاسم الأول، والخَرْج كالمصدر كأنه الجَعْل⁽¹⁰⁰⁾ وقال النَّضْر بن شُمَيْل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخَرْج والخَرَج فقال : الخَرَج ما لزمك ، والخَرْج ما تَبَرَّعت به ورُوي عنه أنه قال : الخَرْج من الرِّقَاب والخَرَج من الأرض⁽¹⁰¹⁾، والأظهر أن يكون الخَرَج أعمّ من الخرج فهو من المشترك اللفظي إذ يدل على الثَّواب ، والماء الذي يَخْرَج من السَّحاب ، وما يؤدِّيه العَبْد إلى مَوْلَاه⁽¹⁰²⁾، والخَرْج : الوعاء المشتمل على الإتاوة . فتكون العلاقة بينهما كالتي بين المفرد والجمع أي أن يكون الخراج جمعا مفردة الخرج ومثلهما: (آن وأوان، وزمن وزمان، وريح ورياح ، وبهذا الملحظ الدلالي جعل القوم لذي القرنين خرجا أجرا له على جعله الردم بينهم وبين قوم يأجوج ومأجوج؛ لأن الخرج أجر مقطوع لا مستديم على حين أسند الباري عزوجل الخراج إلى ذاته العلية في قوله تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون : 72] لدوامه واستمراره؛ لأنه أجر غير ممنون .

الثامن: فعال اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو المعروف باسم الجنس الافرادي⁽¹⁰³⁾ نحو: الرماد في قوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلٰى شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ الصَّلٰلُ النَّبْعِيْدُ) [إبراهيم : 18] والشراب في قوله تعالى : (لَّا يَذُوْقُونَ فِيْهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا) [النبأ : 24] .. والسرّاب في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ

(100) معاني القرآن : 159/2

(101) ينظر : السبعة : 447/1 .

(102) ينظر : تهذيب اللغة : 47/7-55 (خرج).

(103) اسم الجنس الجمعي : هو الذي بينه وبين واحده حذف التاء ، نحو : شَجَرَة شَجَر ، أو ياء النسب نحو : زنج زنجي ، وروم رومي ، وهو موضوع للماهية فيصلح للواحد والاثنين والجمع ، وليس على وزن من أوزان الجموع والكثير أن يكون له واحد من لفظه، ينظر : شرح جمل الزجاجي : 83/1 والفيصل في ألوان الجموع 266-268، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم 618/4-619، أمّا اسم الجنس الإفرادي : فهو ما دلّ على الجنس صالحاً للقليل والكثير نحو: الماء واللبن والزيت والعسل وغيرها ، ينظر : جامع الدروس العربية: 45/2، وشذا العرف في فن الصرف : 111.

الظَّمَانُ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (النور: 39) .

والخلاق هو النّصيب الوافر من الخير ، أو هو النّصيب من العمل الصالح⁽¹⁰⁴⁾ ، وقد كثر استعمال (الخلاق) في الجزاء بالجنة في الآخرة ، واقترن ذكره في الخير ؛ لأنه مشتق مما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه⁽¹⁰⁵⁾ فالخلاق الحظُّ اللائق بالخلق ، وخلاق المرء الشيء الذي هو به خليق ، كأنه يوازن به خلق نفسه⁽¹⁰⁶⁾ .

وقال الزاغب : "والسّرَاب اللّامع في المَفَاة كالماء ؛ وذلك لانسرابه في مرأى العين وكان السراب فيما لا حقيقة له كالشراب فيما له حقيقة"⁽¹⁰⁷⁾ والسّرَاب : ما تعكسه الشمس على الأرض المستوية في منتصف النهار فيخيل إلى الرائي أنه ماء⁽¹⁰⁸⁾ ، وهو الذي يُطلق على الشيء الموهوم وليست له حقيقة. ووَرَدَت لفظة (سراب) في القرآن الكريم مرتين، ولها دلالة واحدة هي ذهاب الشيء هباءً منثوراً ، ففي قوله - تعالى - : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [النور: 39] ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار بأنّها كالسراب الذي يظنّه الظمان ماءً ، وهذا المثل قد شَبَّه به ما يَعْمَلُه مَنْ ليس له إيمان ولا يتَّبِع طريق الحَقِّ في أعماله التي يحسبها تَنْفَعُهُ عند الله وتُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ فَيُخَيَّب في العاقبة أمله فلا يجد ما كان يَعتَقِد من ثَوَاب الأعمال ؛ لأنَّ الله - ﷻ - قَدِمَ عليها فجعلها هباءً منثوراً ، فضلاً عن هذا فإنه يَجِد زبانية الله عنده يأخذونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق⁽¹⁰⁹⁾ .

(104) ينظر : غريب الحديث : الحربي : 24/1 .

(105) ينظر : المفردات : 158 (خلق).

(106) ينظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن : 140/3 .

(107) المفردات : 229 (سرب) .

(108) ينظر : لسان العرب : 1982/21 (سرب).

(109) ينظر : الكشاف : 244-143/3 .

أما الآية الثانية التي ذُكرت فيها لفظة (سَرَاب) ففي قوله تعالى : (وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا) [النبا : 20] ، فهي تصف حالة الجبال يوم القيامة إذ تُسَيَّر بأمر الله ثم تتلاشى وما يبقى منها شيء سوى منظر موهم بأثرها⁽¹¹⁰⁾ ، وقد بيّن الله ذلك في آيات سابقة من ذلك قوله تعالى : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشْرْنََاهُمْ) [الكهف 47] وقوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا [طه : 105] ، وقوله : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) [النمل : 88] كل هذه الآيات تشير إلى منظر تلك الجبال يوم القيامة وحالة الوهم التي تصيب الناظرين إليها في ذلك اليوم .

التاسع : فعال ذو الدلالة الاحتمالية . ثمة أمثلة قرآنية على وزن فعال ذكروا في تأويلها وجهين صريحين أو أكثر وهي :

1- السماء ، وهذه اللفظة استعملت في القرآن الكريم لتدلّ على معنيين أحدهما إنها اسم مفرد مؤنث لمجيئها واحدة مؤنثة في آيات كثيرة منها : {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات : 7]

{وَالسَّمَاءِ بَنِينَهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات : 47]

{وَالسَّمَاءِ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} [الرحمن : 7]

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج : 1]

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} [الطارق : 11]

{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [الشمس : 5]

والآخر الجمع كما في قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) [البقرة 29] ، ورأى فريق من العلماء⁽¹¹¹⁾ هذا الجمع من قبيل اسم الجنس الجمعي أي أنها جمع سماء ، على حين رأى فريق آخر الجمع من قبيل اسم الجنس الإفرادي أي أنها جمع يقع على القليل والكثير ولا واحد له من لفظه . قال الأخفش في تفسيرها : "وهو إنما ذُكر سماءً واحدةً ، فهذا لأنّ ذكر (السماء) قد دلّ عليهنّ

⁽¹¹⁰⁾ ينظر : البحر المديد : 218/8 .

⁽¹¹¹⁾ ينظر: معاني القرآن وإعرابه 100/1 - 101 ، والتبيان: 124/1 ، وأنوار التنزيل 48/1 ، وأسرار التأويل 223/1 .

كلهنّ ... وقد تكون (السّماء) يريد به الجماعة كما تقول : "هَلَاكَ الشَّاةُ والبعير" يعني كلّ بعير وكلّ شاة"⁽¹¹²⁾، وأشار الدكتور فاضل السامرائي إلى أنّ لفظة (سّمَاء) تحتمل أحد معنيين : "إمّا أنّ تكون واحدة السّمّاءات، وإمّا أنّ تكون لكلّ ما علاك، فتشمل السّمّاءات وغيرها"⁽¹¹³⁾ . والأظهر أنّ تكون السّماء اسم جنس إفرادي كالإنسان في قوله تعالى {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} {العصر: 2} إذ المراد الناس كلهم فعبر عن الجمع بلفظ مفرد واللام فيه للجنس لعدم تمايز بعضهم من بعض في الخسارة، وكذا السّماء إنّما هي لفظ مفرد دل على الجنس لعدم إمكان التمايز بين أجواء السّماء .

2-الأثاث في قوله تعالى : {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [النحل : 80] وقوله تعالى : {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا} [مريم : 74] إذ تعددت أقوال أهل التّأويل⁽¹¹⁴⁾ في مدلوله فقال قتادة : الأثاث المال ، وقال الضحاك : الأثاث المال والزينة وروي عن ابن عباس أنّ الأثاث : المتاع والرّئي المنظر . وأكثر أهل اللغة على إنّ الأثاث أصله من أثّ النبات يئنّ أثاثه، أي: كثر والتفّ وتكاثف⁽¹¹⁵⁾ . ولكنهم تباينوا أيضا في بيان مدلوله فمنهم من رأى أنه متاع البيت نحو الفرش والأكسية ، ومنهم من توسع فيه ليشمل المال أجمع من الإبل، والغنم، والعييد، والمتاع⁽¹¹⁶⁾ . ثم إنهم اختلفوا في مفرده فقال أبو زيد وخلف الأحمر واحد الأثاث أثاثه كحمامة وحمام⁽¹¹⁷⁾ فهو اسم جنس بينه وبين واحد

(112) معاني القرآن : 61/1-62 .

(113) التعبير القرآني : د .فاضل السامرائي : 42 .

(114) ينظر: جامع البيان 188/8-189 ، والتبيان للطوسي 120/7 ، والكشف والبيان 531/3 ،

ومجمع البيان 444/16/6 ، ومعالم التنزيل 65/3 ، وروح المعاني 587/16 ، وتفسير القرآن

الكريم 3 / 222 و 354/3 ، والدر المنثور 135/5 .

(115) الصحاح (أثث):38 وينظر: مجمع البحرين للطريحي 26-27 ، والمجمل 78/1 ، ولسان

العرب 69/1 (أثث)

(116) ينظر : جامع البيان 188/8-189 .

(117) ينظر : المحرر الوجيز 412/3

النَّاء ، وقال الفراء "والأثاث لا واحد له، كما أنّ المتاع لا واحد له. والعرب تجمع المتاع أمتعة وأماتيع ومُتَعاً. ولو جمعت الأثاث لقلت: ثلاثة أثّة، وأثّت لا غير" (118). واختار ابن عطية أن يكون " « الأثاث » المال العين والعرض والحيوان وهو اسم عام" (119). وهذا هو الأظهر أي إن الأثاث اسم مصدر من باب التفعيل بمنزلة الجهاز من (جَهَز) والمتاع من (مَتَعَ) وغيرهما كثير

3- الهباء في قوله تعالى: {وَوَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان : 23] و {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا} [الواقعة : 6] فنقل عن الإمام عليّ (عليه السلام) بطريقتين مختلفتين وجهين في تأويل الهباء (120) : الأول : هو الغبار الدقيق الذي لا يرى إلا في شعاع الشمس النافذ من الكوة ، ولا يمكن القبض عليه . ونقل هذا أيضا عن الحسن ومجاهد وعكرمة ومقاتل (121). والآخر : هو رهج الخيل والدواب ، ونقل هذا أيضا عن مقاتل والمراد برهج الدواب الغبار المتطاير من حوافرها في عدوها. ولم نجد بين المفسرين من يوفق بين هذه الوجهين على الرغم من أن فيهما بيانا دقيقا للتعبير القرآني ، ويبدو لنا أنه لا تعارض بينهما ، فالهباء معناه العام الغبار الدقيق، وعند وصفه بالمنبث يكون المراد به الغبار المتطاير بنفسه دون فعل فاعل وهو وصف يصدق تماما على ما في الكوة التي يخترقها شعاع الشمس، وهذا الغبار من فرط دقته تطاير بنفسه فلا يرى أو يدرك إلا بكشفه من شعاع الشمس المسلط في الكوة. فقوله تعالى: {وَيُسِّتُ الْجِبَالُ بِسَاءٍ فَكَانَتْ هَبَاءً مَنْبَثًا} [الواقعة: 5،6] تصوير لاضمحلال الجبال اضمحلالا تاما وعدم إمكان رؤية بقاياها بالعين المجردة؛ لأن الهباء غبار كالشعاع في الرقة، وكثيرا ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة، "والانبثاث افتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة، فكل أجزاء انفرشت

(118) معاني الفراء 171/2

(119) المحرر الوجيز 412/3

(120) ينظر: التبيان للطوسي 393/7 ، والكشف والبيان 411/4، ومجمع البيان 291/19/7 ، والجامع لأحكام القرآن 17/13 والدر المنثور 224/6 والمحرر الوجيز 207/4 وزاد المسير 6/83/.

(121) ينظر: جامع البيان 209-208/27/13 والدر المنثور 225-224/6

بالتفرق في الجهات فهي منبثة، وفي تفرق الجبال على هذه الصفة عبرة ومعجزة لا يقدر عليها إلا الله تعالى⁽¹²²⁾. والمنبثُ : اسم فاعل لانبثَ مطاوع بثَّه ، إذا فرقه . واختير هذا المطاوع لمناسبته مع {ويست الجبال} في أن المبني للمجهول معناه كالمطاوعة ، وقوله: { فكانت هباءً منبثاً } تشبيهه بليغ ، أي فكانت كالهباء المنبث⁽¹²³⁾.

وأما الهباء المتطاير بفعل فاعل كحوافر الخيل ونحوها فهو الذي وصفه التعبير القرآني بالهباء المنثور في قوله: {وَوَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان : 23]. فالذين حبطت أعمالهم تكون أعمالهم كالغبار المنثور الذي يرى بالعين المجردة ولكن لا نفع فيه ليزدادوا حسرة وندما على ما فاتهم فشبهت أعمالهم المحبطة بالهباء المنثور لا المنبث لأجل تصوير حسرتهم على ما فاتهم . والهباء المنثور لا يبلغ في الدقة ما يبلغه الهباء المنبث ولذلك لا يتطاير بنفسه بل بفعل فاعل، ووجه تشبيه أعمالهم بالهباء لعدم الانتفاع بها مع كونها موجودة . فالهباء إنما " وصف بقوله تعالى: {مَنْثُورًا} مبالغة في إلغاء أعمالهم فإن الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته تثار وتذهب كل مذهب فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء حتى جعل متناثراً لا يمكن جمعه والانتفاع به أصلاً ، ومثل هذا الإرداف يسمى في «البدیع» بالتتميم والإيغال ، ومنه قول الخنساء⁽¹²⁴⁾ :

أغرَّ أبلج تأتمَّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار

حيث لم يكفها أن جعلته علماً في الهداية حتى جعلته في رأسه نار ، وقيل : وصف بالمنثور أي المتفرق لما أن أغراضهم في أعمالهم متفرقة فيكون جعل أعمالهم هباءً متفرقاً جزاءً من جنس العمل⁽¹²⁵⁾.

العاشر : فعال المختلف في دلالاته . ويمثله لفظة (الأنام) في قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ} [الرحمن : 10] إذ لم يؤصل اللغويون للفظه الأنام بل

⁽¹²²⁾ التبيان للطوسي 393/7 وينظر: الصحاح 91 (بسس) واللسان 140/2 (بسس) .

⁽¹²³⁾ ينظر: التحرير والتنوير 326/14 .

⁽¹²⁴⁾ ديوان الخنساء: وإنَّ صخرًا لتأتمَّ الهداة به.

⁽¹²⁵⁾ روح المعاني 13-12/19 ، وينظر : البحر المديد 121/5 .

تتصل فريق منهم عن شرح معناها كما فعل الجوهري والراغب في مفردات القرآن وابن الأثير في النهاية وأبو البقاء الكفوي في الكليات . ويبدو أن جذرها (أنم) مهجور ، ولذا جاءت أقوالهم فيها مبرزة معناها اللغوي دون الحديث عن أصلها فقال صاحب العين : "الأنام: ما على ظهر الأرض من جميع الخلق".⁽¹²⁶⁾ ولما كان الأصل الذي اشتق منه لفظ الأنام مهجورا تمحل بعضهم في إخراجهم من الأصل ونم الذباب إذا صوت من نفسه، ويسمى كل ما يصوت من نفسه أناما. وقلبت الواو من ونام همزة كقولهم: أناة من (وناة)⁽¹²⁷⁾. فكأن الأنام سُمي كذلك باعتبار صوته، كما إن الأناس سموا كذلك؛ لأنس بعضهم ببعض، والإنس هم الجماعة البشرية التي يأنس بعضهم ببعض⁽¹²⁸⁾ وهو بهذه الدلالة يختلف عن الناس الذين هم مطلق البشرية التي دبّت فوق الأرض؛ لأن أصل الناس من النوس وهو الحركة الظاهرة⁽¹²⁹⁾ . وأغرب كثيرا من رأى أن الناس منشعب من الأناس بحذف الهمزة⁽¹³⁰⁾؛ لأن بين الأناس والناس فرقا واضحا يفصح عن أنّ الأناس بعض الناس كما في قوله تعالى *لِيَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ* {الإسراء: 71} . أما الفرق بين الأنام والناس فساقه العسكري بأن قال " إنَّ الأنام يقتضي تعظيم شأن المسمى من الناس قال الله عز وجل (الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم) وإنما قال لهم جماعة وقيل رجل واحد وإن أهل مكة قد جمعوا لكم، ولا تقول جاءني الأنام تريد بعض الأنام وجمع الأنام أنام"⁽¹³¹⁾.

⁽¹²⁶⁾ العين 114/1 (أنم)، وينظر : جمهرة اللغة 383/2 ، والتهذيب 223/5 (مأن) والمحيط في

اللغة 475/2 (أنم)، ولسان العرب 280/1، والمصباح المنير 19، وتاج العروس 7615 (أنم)

⁽¹²⁷⁾ ينظر: التبيان للطوسي 327/9 ، والقاموس المحيط 190/3، وتاج العروس 7615 (أنم)

⁽¹²⁸⁾ ينظر: الصحاح 58 (أنم)، والمفردات 94 (أنم).

⁽¹²⁹⁾ هذا رأي الكوفيين كما في جامع البيان 148/27 90/1 ، ومجالس العلماء 56 ، وسر

الصناعة 138/1

⁽¹³⁰⁾ هذا رأي البصريين كما في العين 303/7 ، والكتاب 196/2 ، والمقتضب 33/1 .

⁽¹³¹⁾ الفروق اللغوية : 75-76 .

وخلص أصحاب المعجم الوسيط إلى أن الأنام "جميع ما على الأرض من الخلق"⁽¹³²⁾ وهذا هو مفهوم الوري أيضا فلا محصل من قولهم هذا، فالوري سمي كذلك لستره ظهر الأرض وتوريته إياها، وبهذا الملحظ فرقوا بين الأنام والوري كما في قول صاحب العين وغيره: "الوري: الأنام الذين على وجه الأرض في الوقت ليس من مضي، ولا من يتناسل بعدهم، فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم"⁽¹³³⁾ ومن هذا يفهم أن الأنام أعمّ من الوري إذ يشمل الأنام من على ظهر الأرض وهم الأحياء ومن في بطنها وهم الأموات ومن لم يخلقوا بعد وهم ذرية الأحياء. وقال صاحب القاموس ذاكرا للغات المسموعة في اللفظة: "الأنام، كسحابٍ وساباطٍ وأميرٍ: الخلق، أو الجنُّ والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض"⁽¹³⁴⁾ وأهمل الجوهري ذكر الأنام، وتعقبه الزبيدي بالقول "والعجب من الجوهري كيف أغفله وهو في القرآن مع انه استطرد بذكره في أم"⁽¹³⁵⁾. ونقلوا تصريفات نادرة للفظه فنقل ابن دريد عن الكوفيين قولهم: واحدُ الأنام (نَيِّم) ولكنّه غير مشهور وإلا لكان قد عرفه البصريون⁽¹³⁶⁾، وقال أبو هلال العسكري: جمع الأنام: آنام⁽¹³⁷⁾ وقيل: هو جمع لا واحد له من لفظه⁽¹³⁸⁾. واستظهر بعض المتأخرين كونها جامدة لما وجده من غرابية المشتقات من جذرها ونادرة استعمالها⁽¹³⁹⁾.

أما المفسرون فاختلفوا في تلمس دلالة الأنام فمنهم من ضيق مدلولها، ومنهم من توسع فيها كثيرا ومجمل ما قيل فيها يندرج في ثلاثة أوجه:

(132) المعجم الوسيط 56/1

(133) العين 114/1 وينظر: المفردات 866

(134) القاموس المحيط 190/3 وتاج العروس 7615

(135) تاج العروس 7615

(136) ينظر: جمهرة اللغة: 993/2.

(137) ينظر: الفروق اللغوية: 76/1.

(138) ينظر: روح البيان 344/9.

(139) التحرير والتنوير 281/14.

الأول: الأنام كل شيء فيه روح. أو كل ما يدبّ على الأرض أو هم الحيوان كله أو جميع الخلق من كل ذي روح. وهذا الوجه مروى عن أكثر أهل التأويل ومنهم ابن عباس وقتادة وابن زيد والشعبي وجاهد وقتادة والسدي⁽¹⁴⁰⁾. وتأول له الماوردي بأن قال : " سمي بذلك؛ لأنه ينام، قال الشاعر⁽¹⁴¹⁾ :

جاد الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصه بسلام⁽¹⁴²⁾

وهذا الوجه هو حاصل قول أبي عبيد القاسم بن سلام: " (الأنام) الخلق بلغة جرهم"⁽¹⁴³⁾، ويفهم من هذا أن الأنام يتّسع مدلوله ليشمل البهائم والناس والجن والملائكة وربما النبات أيضا؛ لأنّ فيه حياة من نوع خاص.

الثاني: الأنام الإنس والجن. وهو وجه مروى عن الحسن البصري⁽¹⁴⁴⁾، وعُضد بأن التعبير القرآني قال بعقبِ ذكّره الأنامَ إلى قوله : والرّيحانُ فَيَأْيِ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبان ، ولم يَجْرِ للجنِّ ذِكرٌ قبلَ ذلكَ إنّما ذَكَرَ الجانَّ بعده فقال : خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ كالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الجانَّ من مارِجٍ من نارٍ ، والجِنُّ والإنسُ هُما التَّقْلانُ⁽¹⁴⁵⁾. وردّ هذا الاستدلال بأن مخاطبة الثقلين قبل ذكرهما معاً، إنما جازت لأنهما ذُكرا بعقب الخطاب؛ كما قال المثقب العبدى⁽¹⁴⁶⁾:

⁽¹⁴⁰⁾ ينظر: جامع البيان 148/27، والنكت والعيون 425/5-426، والتبيين للطوسي 327/9، والبسيط 140/21-141، والكشاف 44/4، والمحرر الوجيز 225/5، ومجمع البيان 331/27/29، وأنوار التنزيل 452/2، والدر المصون 237/6، وتفسير اللباب 304/18، وروح المعاني 145/27-146، وتفسير الأمثل 437/13، وتفسير الميزان 91/19

⁽¹⁴¹⁾ لم نقف على قائله ولم يخرج محقق الكتاب أيضا .

⁽¹⁴²⁾ النكت والعيون 425/5-426

⁽¹⁴³⁾ تفسير مجاهد 640/2، ومعجم لغات القبائل والأمصار 29/1 .

⁽¹⁴⁴⁾ ينظر: جامع البيان 148/27، والتبيين للطوسي 327/9 والنكت والعيون 425/5-426، ومجمع البيان 331/27/29 والكشاف 44/4 والمحرر الوجيز 225/5 والجامع لأحكام القرآن 111/17 ونظم الدر 376/7 وتفسير اللباب 304/18 والدر المصون 237/6 وتفسير الأمثل 437/13

⁽¹⁴⁵⁾ ينظر: تهذيب اللغة 223/5 (مأن)، ولسان العرب 280/1 .

⁽¹⁴⁶⁾ في الشعر والشعراء لابن قتيبة 80/1، والصناعتين للعسكري 57 .

فما أدري إذا يَمَمْتُ أَرْضاً ... أريد الخَيْرَ أيهما يليني
 أَلْخَيْرَ الذي أنا أَبْتَغِيهِ ... أم الشَّرَ الذي هو يَبْتَغِينِي
 فقال: أيهما، ولم يجز للشَّرِّ ذكر إلا بعد تمام البيت⁽¹⁴⁷⁾.

ورأى بعضهم أن "القرائن الموجودة في السورة وطبيعة النداءات الموجّهة للإنس والجنّ تدلّ على أنّ المقصود هنا (الجنّ والإنس)"⁽¹⁴⁸⁾. وعضد الرازي هذا الوجه بأن ضمير المثنى في الآية المرردة في سورة الرحمن { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } يعود على الثقلين وهم (الإنس والجن)، فيكون مدلول الأنام عليهما مفهوماً من أحد " ثلاثة أوجه أحدها : يقال : الأنام اسم للجن والإنس وقد سبق ذكره ، فعاد الضمير إلى ما في الأنام من الجنس. ثانيها : الأنام اسم للإنسان والجان لما كان منوياً وظهر من بعد بقوله : { وَخَلَقَ الْجَانِ } [الرحمن : 15] جاز عود الضمير إليه ، وكيف لا وقد جاز عود الضمير إلى المنوي ، وإن لم يذكر منه شيء ، تقول : لا أدري أيهما خير من زيد وعمرو ثالثها : أن يكون المخاطب في النية لا في اللفظ، كأنه قال: فبأي آلاءِ ربكما تكذبان أيها الثقلان"⁽¹⁴⁹⁾.

الثالث: الأنام هم الناس، وهو وجه مروى عن ابن عباس في أحد قوليه : الأنام "هم بنو آدم فقط"⁽¹⁵⁰⁾. وعُضد هذا الوجه بقول بعض الشعراء في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم⁽¹⁵¹⁾:

مبارك الوجه يستسقى الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطر

⁽¹⁴⁷⁾ ينظر: تهذيب اللغة 223/5 (مأن)، ولسان العرب 281/1

⁽¹⁴⁸⁾ تفسير الأمثل 437/13

⁽¹⁴⁹⁾ تفسير الفخر الرازي 90-89/29/10، وينظر : روح المعاني 146-145/27

⁽¹⁵⁰⁾ المحرر الوجيز 225/5، وينظر: النكت والعيون 426-425/5، والجامع لأحكام القرآن

111/17، والدر المصون 237/6 وتفسير اللباب 304/18، وروح المعاني 27 / 145 - 146

وتفسير الميزان 91/19، وتفسير الأمثل 437/13

⁽¹⁵¹⁾ لرقيقة بنت نباتة وهي جارية لعبد المطلب جد المصطفى (ﷺ) ، كما في بلاغات النساء لابن

طيفور: ص 22.

وتأول الرازي لدلالة الأنام على الناس، فجوز أن يكون ضمير المثني في الآية المرددة عائداً على الذكر والأنثى من الإنس ، أو أن يكون تقدير الآية: فبأي آلاء ربك تكذب ، فبأي آلاء ربك تكذب، والخطاب للإنسان بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد ، فيكون الأنام دالا على الناس⁽¹⁵²⁾.

ووصف الألويسي ما جوزة الرازي في هذين الوجهين بالبعد فقال: " قد أبعد من ذهب إلى أنه خطاب للذكر والأنثى من بني آدم ، وأبعد أكثر منه من قال : إنه خطاب على حد {الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ} [ق:24] ويا شرطي أضربا عنقه ، يعني أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين والفاء لترتيب الإنكار"⁽¹⁵³⁾ .

ولم ير الألويسي تخصيص الأنام ببني آدم عند غير ابن عباس⁽¹⁵⁴⁾ ووجه هذا التخصيص في مدلول اللفظة بأن قال : " يحتمل أنه أراد أن المراد به هنا ذلك بناء على أن اللام للانتفاع وأنه محمول على الانتفاع التام وهو للإنس أتم منه لغيرهم"⁽¹⁵⁵⁾ وخلص إلى أنّ " الأولى عندي ما حُكي عنه أولاً"⁽¹⁵⁶⁾، يريد دلالة الأنام على الخلق الحيّ كلّه لا الناس وحدهم .

وما استبعده الألويسي بلا محصل فلم يبين وجه البعد في قول الرازي ، وما ذكره من أن هذا الوجه خبر آحاد عن ابن عباس، ليس صحيحاً، فبهذا المعنى وردت اللفظة في أشعار ما قبل الإسلام ، قال لبيد⁽¹⁵⁷⁾

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِّ

والمسحّر صيغة نسب على زنة مفعّل بمعنى (ذو السحر) أي الرئة، وقيل قسبة الرئة بما يتعلق بها من كبد وغيره وقيل أعلى البطن ، وهو كناية عن كونهم من الأناسي المخلوقين الذين يأكلون ويشربون، ومن هنا يقال للرجل إذا جبن : قد

⁽¹⁵²⁾ ينظر: تفسير الفخر الرازي 90-89/29/10

⁽¹⁵³⁾ روح المعاني 146-145/27

⁽¹⁵⁴⁾ روح المعاني 146-145/27

⁽¹⁵⁵⁾ روح المعاني 146-145/27

⁽¹⁵⁶⁾ روح المعاني 146-145/27

⁽¹⁵⁷⁾ ديوانه 57

انفتح سحره ، قال أبو عبيدة في مجاز قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء : 153]: " كلٌّ من أكل من إنس أو دابة فهو مسحّر، وذلك لأنّ له سحرا يقرى يجمع ما أكل فيه " (158) وما بعده في الآية يقويه؛ لأنّ التعبير القرآني ذكر لها أنّك إنّما بشرٌّ مثلنا فأتّ بآيةٍ إنّ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ} [الشعراء : 154] أي أنت ابن آدم لا يصح أن تكون رسولا عن الله تعالى هذا بحسب زعمهم الباطل (159) .

ووردت اللفظة في شواهد أخرى من الشعر العربي بمعنى (الناس)، من ذلك قول كعب ابن زهير (160) :

لأستشعرنّ على إدريس مُسْلِماً لوجّه الذي يُنجي الأنامَ ويقتلُ
وقال أيضاً (161) :

تلبّثنا وفرطنا رجالاتاً دُعوا وإذا الأنامُ دُعوا أجابوا
وقال المتنبّي (162) :

فإنّ تَفَقَّى الأنامُ وأنت منهم فإنّ المسكُ بعضُ دم الغزالِ

والأظهر مما سبق أن الأنام اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ لأن صيغة فعال نفسها تدل على الاشتمال والإحاطة وهذه الصيغة التي انسبكت عليها اللفظة صرفتها إلى الجمع المعنوي وأغنتها عن أن يكون لها واحد من لفظها بل واحدها من معناها، وهو الإنسان المخلص من غواية إبليس في الدنيا وظفر بجنة الخلد في الآخرة لا الغاوي الذي وقع في شرك إبليس فخرس الدنيا .

وصفوة القول مما سبق أنّ الأرضَ وُضِعَتْ لجمیع المخلوقات، إلا أنّ الشواهد القرآنية الكثيرة التي تبين تَسخِير مخلوقات الأرض لصالح الإنسان ، ودلالة لفظة (الأنام) على الإنسان فيما ورد في الشعر العربي في مختلف الأزمنة ، وسياق الآيات التي سبقت هذه الآية والتي ذكر فيها ما وهبه الله -ﷻ- للإنسان ، فضلاً عن قسم

(158) مجاز القرآن 243/2 وينظر: التبيان للطوسي 327/9

(159) المحرر الوجيز 225/5

(160) شرح ديوان كعب : 56 .

(161) المصدر نفسه : 249 .

(162) ديوان المتنبّي : 211 .

من أقوال المفسرين شجعنا على ترجيح دلالة لفظة (الأنام) على الناس المخلصين من غواية إبليس .

المصادر والمراجع:

❖ أبنية الصرف في كتاب سيبويه ، خديجة الحديثي ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الاولى ، 1965.

❖ أدب الكاتب : ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ) تحقيق وضبط وشرح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط 4 ، مطبعة السعادة ، مصر 1382 / 1963 م .

❖ ارتشاف الضرب من لسان العرب : أبو حيان اثير الدين محمد بن يوسف الاندلسي (ت 745 هـ) تح: احمد مصطفى النماس ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدني ، مصر 1408 .

❖ الأصول في النحو : ابن السراج ابو بكر بن محمد بن سهل البغدادي (ت 316 هـ) تح : د. عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الاشرف 1973م .

❖ الاضداد لابي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت 255هـ) ، ضمن ثلاثة كتب في الاضداد.

❖ الاضداد لأبي بكر محمد بن القاسم بن الانباري (ت 328 هـ) تح : محمد أبي الفضل إبراهيم ، الكويت 1960م

❖ الاضداد في اللغة : د: محمد حسين ال ياسين ، مطبعة دار المعارف ، بغداد 1394 هـ / 1974م .

❖ الاعجاز البياني في القرآن الكريم ومسائل بن الازرق : د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، دار المعارف ، مصر 1971م .

❖ إعراب القرآن : ابو جعفر احمد بن محمد بن النحاس (ت 338هـ) ، تعليق : عبد المنعم خليل ابراهيم ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1421هـ / 2001م .

❖ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، تح : الشيخ مهدي الأنصاري ، قسم الترجمة و النشر لمدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

❖ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : القاضي ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (ت791هـ) ، تح: عبد القادر حسونة ، دار الفكر ، بيروت 1996م .

- ❖ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : جمال الدين عبد الله بن يوسف بن احمد بن هشام الانصاري (ت761هـ) ، تقديم د. اميل بديع يعقوب ، الطبعة الثانية .
- ❖ البحر المحيط في التفسير : أبو حيان محمد بن يوسف الاندلسي (ت 745هـ) ، عناية : الشيخ زهير جعيد ، دار الفكر ، بيروت ، 1425 هـ ، 2005 م .
- ❖ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، أبو العباس أحمد بن عجيبة الحسني ت 1224هـ، تحقيق عمر أحمد الراوي دار الكتب العلمية 2010م .
- ❖ بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام ، أحمد بن أبي طاهر أبو الفضل ابن طيفور ، تحقيق أحمد الألفي المكتبة العصرية ، 1326 - 1908
- ❖ تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت 1250هـ) .
- ❖ التبيان في تفسير القرآن: ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت460هـ)تح: احمد شوقي الامين واحمد حبيب قصير - المطبة العلهمة ، ومطبعة النعان - النجف الاشرف 1957م.
- ❖ التحرير والتتوير ، الطاهر ابن عاشور ، ط1 ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت .
- ❖ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ،لمحمد بن يوسف بن حيان أبو حيان الأندلسي ، تحقيق سمير المجذوب ، المكتب الإسلامي ، 1403 - 1983 .
- ❖ التعبير القرآني ، د فاضل السامرائي ، جامعة بغداد ، دار الحكمة ، 1987 .
- ❖ التفسير البسيط ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468هـ) ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، دار العماد ، دمشق 2013 .
- ❖ تفسير القرآن العظيم ، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ) ، إشراف محمود عبد القادر الأرنؤوط ، ط5 ، دار صادر ، بيروت ، 2009 .
- ❖ التفسير الكبير او مفاتيح الغيب : فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري الرازي (ت604هـ) ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت 1421هـ .
- ❖ تفسير مجاهد أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: 104هـ)
- ❖ تحقيق الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل ، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر ، الطبعة الأولى، 1410 هـ - 1989 م

- ❖ تفسير نور الثقلين ، الشيخ عبد العلي بن جمعة الحويزي (ت 1112هـ) ، تحقيق رضا عياش ، دار المحجة البيضاء 2015م.
- ❖ تفسير اللباب في علوم الكتاب ، الإمام أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي (880هـ) ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2011 .
- ❖ التكملة : ابو علي الحسين بن احمد الفارسي (ت377هـ) - تحقيق ودراسة : كاظم بحر المرجان - مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل - الموصل 1401هـ / 1981م .
- ❖ تهذيب اللغة : ابو منصور محمد بن احمد الازهري (ت370هـ) تح : يعقوب بن عبد النبي ، مراجعة : محمد علي النجار الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ❖ جامع الدروس العربية ، مصطفى الغلاييني ، المكتبة العصرية ، 1415 - 1994 .
- ❖ جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ) ، دار الفكر ، بيروت 1988/1408 م .
- ❖ الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي (ت671هـ) ، خرج احاديثه محمد بن عيادي ، الدار البيضاء 2005م .
- ❖ جمهرة اللغة : ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت321هـ) ، دار صادر، بيروت (د.ت)
- ❖ الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي ، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي ، 1418 - 1997
- ❖ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، السمين الحلبي (احمد بن يوسف ت 756 هـ) تحقيق احمد محمد الخراط ، ط1 دار العلم دمشق ، 1986 .
- ❖ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، السيوطي (ت911هـ) ، بعناية الشيخ نجدة نجيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت دت .
- ❖ دراسات لأسلوب القرآن الكريم : محمد عبد الخالق عزيمة ، ط1 ، دار الحديث، 2004 م
- ❖ ديوان لبيد بن ربيعة العامري : تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الكويت ، 1962 .
- ❖ ديوان الخنساء: أعتنى به وشرحه: حمد وطماس، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2007م.

- ❖ ديوان المتنبّي (أبو الطيب أحمد بن الحسين ت 350هـ) شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار بيروت ، 1983م.
- ❖ روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي (المتوفى: 1127هـ) ، دار المعرفة، ط7، 2012م.
- ❖ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تعليق محمد أحمد الأمل وعمر عبد السلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، ط1 ، 1999 .
- ❖ زاد المسير في علم التفسير ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت597هـ) ط1 ، المكتب الإسلامي لطباعة ، دمشق ، 1964م.
- ❖ سر صناعة الإعراب : ابن جنّي - تح : محمد حسن اسماعيل واحمد رشدي شحاتة - الطبعة الاولى - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت 2000م
- ❖ شذا العرف في فن الصرف : أحمد الحملاوي ، طبع ونشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1965.
- ❖ شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك : بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني (ت769هـ) : تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط2، دار الفكر، دمشق 1985 م .
- ❖ شرح التصريح على التوضيح : الشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى (ت905 هـ) - الطبعة الاولى - مطبعة الاستقامة - دار احياء الكتب العربية - مصر 1954 م .
- ❖ شرح جمل الزجاجي : لابن عصفور الاشبيلي (ت669هـ) ، تحقيق صاحب ابو جناح ، جامعة الموصل 1982م .
- ❖ شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة : الامام ابي سعيد بن الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري ، تحقيق : عباس عبد القادر ، منشورات دار الكتب والوثائق القومية ، مركز تحقيق التراث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة (1423 هـ / 2002 م) .
- ❖ شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الاسترابادي (ت 686هـ) مع شرح شواهد، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان .
- ❖ شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش النحوي (ت 643هـ) ، عالم الكتب- بيروت
- ❖ الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ) ، دار الحديث، القاهرة ، 1423 هـ

- ❖ (شواظ ونحاس) في القرآن الكريم بين التأصيل الصرفي والإعجاز العلمي ، د كاطع جار الله سظام ، مجلة كلية الآداب / الجامعة المستنصرية ، 2014 .
- ❖ الصحاح ، معجم الصحاح قاموس عربي عربي مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق أوائل الحروف : اسماعيل بن حماد الجوهري (ت398هـ) ، اعتنى به خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ن بيروت ، 2008م.
- ❖ الصناعتين .. الكتابة والشعر : ابو هلال العسكري (ت395 هـ) - تح : محمد علي البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة 1971م .
- ❖ علم الدلالة : احمد مختار عمر ، ط 1 ، مكتبة دار العروبة للنشر ، الكويت 1402هـ/1982م .
- ❖ العين / ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) : تحقيق : د. مهدي المخزومي ، و د. ابراهيم السامرائي ، طهران ، 1425هـ .
- ❖ غريب الحديث : ابراهيم بن اسحاق الحريي (ت285هـ) ، تح سليمان ابراهيم العايد ، جامعة أم القرى ، 1405هـ .
- ❖ الفروق اللغوية: ابو هلال العسكري(ت395هـ) ، ضبط وتحقيق : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، د ت.
- ❖ فقه اللغة وأسرار العربية : ابو منصور الثعالبي (ت429هـ) ، وضع وتعليق : د. ديزيرة سقال ، ط1 ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، بيروت 1999م .
- ❖ الفيصل في الوان الجموع والمصادر ، عباس ابو السعود ، دار المعارف ، مثر ، 1971
- ❖ القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت817هـ) ، إعداد وتقديم محمد عبد الحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2003م .
- ❖ القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ، د خالد اسماعيل علي ، دار المتقين ، 2009م.
- ❖ الكتاب : ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) (ت180هـ) - تح : عبد السلام هارون ، ط3 ، الناشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة 1408 هـ/1988م .
- ❖ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل : محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) ، ط1 ، دار الفكر 1977م
- ❖ الكشف والبيان في تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ، أبو اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي ت 427هـ ، تحقيق سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- ❖ لسان العرب : ابن منظور ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ) ، دار صادر، بيروت 1956م
- ❖ كتاب اللغات في القرآن / رواية ابن حسنون المقرئ المصري بإسناده إلى ابن عباس، تحقيق: د. توفيق محمد شاهين ،الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة - ط1 - 1995
- ❖ مجاز القرآن : ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت210هـ) - معارضة وتعليق: محمد فؤاد سزكين - الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة - بيروت 1401هـ/1981م
- ❖ مجالس العلماء ،عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي أبو القاسم ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،كتبة الخانجي ، الطبعة الثالثة ،1420 - 1999
- ❖ مجمع البحرين ومطلع النيرين ،فخر الدين الطريحي المتوفى: 1085 هـ ، تحقيق: السيد أحمد الحسيني ، مكتبة المرتضوي - طهران ، الطبعة: الثانية - 1365 هـ .
- ❖ مجمع البيان في تفسير القرآن : ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ) ، ط2 ، دار الكتاب ، ودار الفكر ، بيروت 1377هـ / 1957م .
- ❖ مجمل اللغة: احمد بن فارس - تح: زهير عبد المحسن سلطان - ط1 - مؤسسة الرسالة - 1404هـ / 1984 م .
- ❖ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها : ابن جنبي ، تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الحلیم النجار ود.عبد الفتاح شلبي ، مطابع التجارية ، القاهرة 1424هـ 2004م .
- ❖ المحكم والمحيط الأعظم : علي بن اسماعيل (ابن سيده ت 458هـ) ،تح جماعة القاهرة، 1972م.
- ❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد الحق ابن عطية ت 541 هـ تحقيق احمد صادق الملاح ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة 1974 م .
- ❖ المحيط في اللغة لمحيط في اللغة تأليف: الصاحب اسماعيل بن عباد (ت 385هـ) تحقيق: الشيخ محمد حسن ال ياسين الناشر: عالم الكتب الطبعة: الاولى 1994م .
- ❖ مدارك التنزيل (تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التأويل وحقائق التأويل) النفسي (ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمد ت 710 هـ) بيروت ، 1978 .
- ❖ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : احمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (770هـ) - الطبعة الثالثة - المطبعة الاميرية - مصر 1902 م .

- ❖ معالم التنزيل تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت516هـ) ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1425هـ . 2004م
- ❖ معاني القرآن : ابو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالاخفش الاوسط (ت215هـ) تقديم وتعليق : ابراهيم شمس الدين ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1423هـ .
- ❖ معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ) ، تقديم وتعليق : ابراهيم شمس الدين ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1423هـ .
- ❖ معاني القرآن وإعرابه : ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج (ت311هـ) ، شرح وتحقيق : د. عبد الجليل عبده شلبي ، ط1 ، بيروت 1408هـ .
- ❖ لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم ، لأبي عبيد القاسم بن سلام (157-224هـ) - كتبها خالد حسن أبو الجود ، دار المعارف
- ❖ المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية - اخراج : ابراهيم مصطفى ، واحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد علي النجار - دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع - استانبول 1989
- ❖ معترك الاقران في اعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي - تصحيح وضبط : احمد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت 1988 م .
- ❖ المفتاح في الصرف ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (المتوفى: 471هـ) ، حققه وقدم له: الدكتور علي توفيق الحَمَد ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى (1407 هـ - 1987م) .
- ❖ المفردات في غريب القرآن : لابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت502هـ) ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت (د.ت)
- ❖ المقاييس في اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت395هـ) ، تح: شهاب الدين ابو عمرو ، الطبعة الثانية ، دار الفكر، بيروت 1418هـ /1998 م .
- ❖ من بديع لغة التنزيل ، د ابراهيم السامرائي ، الشركة المتحدة ، ط1 .
- ❖ الميزان في تفسير القرآن : السيد الطباطبائي (ت1402هـ) ، ط1 ، 2009، بغداد
- ❖ نزهة الاعين النواظر في علم الوجوه والنظائر : ابن الجوزي ، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي ، مؤسسة الرسالة الاولى 1984م .

- ❖ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، أبو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ) ، تح عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2011م.
- ❖ النكت والعيون : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت450هـ) ، تح: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2007
- ❖ النوادر في اللغة : لابي زيد سعيد بن اوس الانصاري (ت215هـ) ، تحقيق ودراسة محمد عبد القادر احمد ، دار الشروق ، الطبعة الاولى ، القاهرة 1981م .

العلاقة السياقية

بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم

د. إبراهيم صبر الراضي

كلية الآداب / جامعة ذي قار/ العراق

الملخص

يزخر القرآن الكريم بالكثير من أساليب العرب في لغتهم، ومن بين هذه الأساليب أسلوب القسم الذي اقتضت ضرورة البيان القرآني الإتيان به لقصد تمكين فكرة في ذهن المخاطب أو المتلقي، وهذا البحث يتناول العلاقة السياقية بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم من خلال تبيان الصلة الرابطة بينهما في سياق النص القرآني الكريم .

Summary

Abounding Quran lot of methods Arabs in their own language, and among these methods style section which necessitated the need for the statement Quranic bring him to inadvertently enable the idea in the mind of the addressee or recipient, and this research addresses the contextual relationships between the divided and apportioned in the Koran to demonstrate relevant Association between them in the context of the Quranic text Quran.

حدود البحث :

كلنا يعلم أن القسم الوارد في القرآن الكريم - من حيث المُقسِم - نوعان، قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وقَسَمٌ أقسم به غيره من الرسل أو عامة الناس، وهؤلاء مخلوقون لا يجوز لهم القسم بغير الخالق عزّ وجلّ، وأما الله فيقسم بمن شاء وبما شاء. وسنتناول في بحثنا قسمه تعالى؛ لأن العلاقة السياقية فيه بين المقسم به والمقسم عليه تتضح أيما اتضاح .

خطة البحث:

الأقسام التي في القرآن الكريم من حيث المقسم به نوعان، الأول قَسَمٌ مفرد، أي أن المقسم به واحد ولم يُضَم إليه قَسَمٌ آخر، سواء ورد في آية واحدة فقط، أم تكرر في آيات عدة. والثاني قَسَمٌ متعدد، وهو ما يكون المقسم به أكثر من واحد، وهو ما ورد بقسم الله تعالى بأمر متعددة جمعها في آية واحدة أو أكثر من آية وجعل لها جميعاً مُقسماً عليه واحداً.

وخطتنا استلزمت البدء بالقَسَمِ المفرد ثم تلاه القَسَمِ المتعدد، معتمدين في ذلك تسلسل السور في القرآن الكريم التي ورد فيها أسلوب القَسَمِ المتعدد.

مقدمة

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليب كلامهم ومناحي خطابهم، وكان من تلك الأساليب أنهم إذا أرادوا تأكيد خبر أو تقريره جاؤوا بالقسم. وعلى هذا يجد كل من جالس القرآن وتدبر آياته أسلوب القسم في البيان القرآني ظاهرة لافتة استعملها القرآن الكريم لتأكيد فكرة في ذهن المتلقي وتمكينها من نفسه وتقويتها، فحينما نزل القرآن للناس كافة، وقف الناس منه مواقف شتى، فمنهم من كان شاكاً، ومنهم من أنكر، ومنهم من وقف موقف الخصم الألد، فجاء القسم في القرآن ليزيل شكوك الشاكين، ويبطل أدلة المنكرين، ويرد على الأعداء المخاصمين، ويقم الحجة عليهم، ويؤكد الأخبار التي أراد تعالى توكيدها، لتطمئن إليها نفس المخاطب وتتقبلها. فجاء قسمه سبحانه متنوعاً، فمرة أقسم بذاته وأخرى بحياة رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومرة بمخلوقاته.

وجملة القسم - كما هو معروف - تتركب من أربعة أركان أو أجزاء هي: فعل القسم، وأداته، والمقسّم به، والمقسّم عليه. وهذا البحث يتناول العلاقة السياقية بين المقسّم به والمقسّم عليه في القرآن الكريم . وقبل أن ألج في صلب البحث ارتأيت أن أقسّمه على جملة من المسائل نراها كفيلة بالإحاطة بالموضوع وتقديمه بصورة متناسقة.

السياق لغة واصطلاحاً:

السياق لغة: جاء في الصحاح (يُقَال في الصّاح ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على أثر بعض ، ليست بينهم جارية ... والسياق نزع الروح)⁽¹⁾ . وفي أساس البلاغة: (ساق النعم فانسأقت ... ومن المجاز: ساق الله إليه خبراً. وساق إليها المهر. وسأقت الريحُ السحاب)⁽²⁾ .

أما في لسان العرب فـ (السَّوْقُ معروف ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً ... وساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرها، وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها، والسياق المهر)⁽³⁾ . وفي المعجم الوسيط: (ساق الحديث سرده وسلسله، وإليك يُساقُ الحديثُ بوجه)⁽⁴⁾ . ومن هذا يتبين أن سياق الكلام تتابعُهُ وتراسلُهُ وأسلوبُهُ الذي يجري عليه، فهو إذن بهذه المعاني يعني التتابع أو الإيراد.

السياق اصطلاحاً: السياق من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق في الدراسات اللغوية الحديثة. وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantics) تماسكاً وأضبطها منهجاً⁽⁵⁾. ولكن ذلك لم يمنع المختصين من الخوض في غمار تحديد المصطلح، فهو عند أحدهم: (تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة ويتحدد من خلالها المعنى المقصود)⁽⁶⁾ .

ويرتبط مفهوم السياق اصطلاحاً بقرائنه التي تساعد على فهمه، وعليه فـ (المقصود بالسياق، ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى)⁽⁷⁾ . وهو بهذا يشمل القرائن اللفظية والحالية؛ لأنها هي التي تصاحب اللفظ وتؤدي إلى توضيح المعنى⁽⁸⁾ . ويمكن القول أن السياق هو (الإطار الجملي الذي ترد فيه كلمة أو أكثر،

وأغلب استعمالات الكلم أنها لا ترد مطلقة باعتبار السياق مورداً لهذه الكلمة أو تلك، ويكون السياق بليغاً إذا جعل للكلمة التي ترد فيها معنىً لافتاً أو راقياً⁽⁹⁾.

مفهوم العلاقات السياقية :

بعد ذكر مفهوم السياق في اللغة والإصلاح يحتم علينا مدار البحث أن نعرض لمفهوم العلاقات السياقية؛ لأنها المرتكز الذي يعتمده البحث في دراسة العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم .

إن دراسة النصوص الإبداعية- وخاصة القرآن الكريم؛ لأنه نص أدبي من نسيج خاص - تكشف أن للعلاقة السياقية أهمية كبيرة في بناء تلك النصوص، واتساقها وانسجامها، وإن تناول مفهوم العلاقات السياقية من قبل الباحث - أي باحث كان - سيعيده (إلى مفهومي لسانيين مهمين هما: العلاقة والسياق، وهما يشكلان القاعدة البنائية الأساسية للنص أياً كان نوعه ، لعلاقتها المباشرة بتوفير مقومات السبك النحوي كاملة واستراتيجياته؛ كونه ((يعنى بكيفية ترابط مكونات البنية السطحية نحوياً))، إضافة إلى إسهاماته المباشرة في تنظيم عالم النص كاملاً⁽¹⁰⁾.

والباحث في تحليله الروابط النصية الموجودة داخل النص الأدبي، يكتشف أن العلاقة هي العنصر أو المظهر النحوي الدلالي الذي يربط أجزاء النص على المستويين: الشكلي - أي الخارجي والدلالي أي الداخلي - للنص⁽¹¹⁾، وبذلك نرى أن العلاقة هي التي أحدثت التماسك الذي لا يعدو عن كونه (مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص التي من دونها يصبح النص مزقاً أو أشلاء لا رابط بينها)⁽¹²⁾.

إذا اتضح لنا- من خلال ما تقدم - مفهوم العلاقة يبقى أن نفهم ما هو السياق، حتى تكتمل صورة العلاقات السياقية وفهماها.

إن بحث السياق في علم اللسانيات والنحو - في نظر المنصف عاشور - يعد من أعرس القضايا وأعلقها؛ لأن كل ما يقوم به الباحث في هذا المجال اللساني، لا يتعدى توضيح سياق الجمل الدلالي، الذي ينبئ عن الخصائص التركيبية والمعنوية لتلك الجمل⁽¹³⁾. وهذا يعني (الاعتماد على العلاقات الدلالية التي تقوم بين الألفاظ على مستوى الجملة، وبين الجمل على مستوى النص)⁽¹⁴⁾.

وبهذا تناول لمفهوم السياق يبدو أن العملية هي عملية وصف للنص المدروس لا أكثر، والدليل على ذلك أن المتتبع والباحث لا يظفر بتعريف جامع مانع للسياق حتى في أكثر المصادر تخصصاً بعلم اللغة النصي، وإن الدراسات التي قامت بوصف السياق وتحليل عناصره أثبتت أن تحقيق السياق ووصفه يعانين من مشكلتين رئيسيتين هما الانغلاق التام أو الانفتاح التام⁽¹⁵⁾.

الاتجاه الأول الذي يجعل من السياق مجرد علاقات تعنى بترابط المركبات النحوية والدلالية في بناء الجملة داخل النص، وتبعده عن كل ما هو خارج هذه التتابعات التركيبية، هذا الاتجاه يمثله المنصف عاشور، الذي يذهب إلى القول أن (المقصود من السياق النحوي كيفية التعليق بين المركبات النحوية في بنية الجملة العربية، فالجملة قاعدتها العلاقات المولدة للأبنية والنماذج، وتلك النماذج موحدة للقوانين العامة التي تحدد نحو الجملة في إطار النظريات النحوية العربية وعلم اللسان العام)⁽¹⁶⁾.

ونحن نلتزم العذر للمنصف عاشور في جعله السياق قوة ربط داخل النص فحسب؛ لأنه نظر إلى السياق من وجهة محددة هي الوظيفة النحوية، ولم تكن نظرتة إليه نظرة شمولية منفتحة بكونه قوة تنظم عالم النص وتتحكم ببنائه داخلياً وخارجياً. وهذا ما يمثله الاتجاه الثاني المنفتح الذي ينظر إلى النص بعده يتكون من عالمين داخلي وخارجي، وأن السياق هو القوة التي تمثل هذين العالمين المكونين للنص، وتربطه - أي النص - بالأطراف الثلاثة لمعادلة الاتصال اللغوي: الباث، والمستقبل، وقناة الاتصال. وإلى هذا يذهب كلر في قول له نقله وليم راي، وهذا نصه : (إن السياق الذي يحدد معنى الجملة لا ينحصر في جمل النص الأخرى، بل انه تركيب معقد من المعرفة والتأملات بدرجات مختلفة من التجديد، وهو بمثابة نوع من القدرة التأويلية)⁽¹⁷⁾.

وبناءً على هذا الرأي يتضح جلياً أن (السياق هو قدرة أو قوة تربط النص بالعالم المشكلة له، وتربطه بالمعارف المكونة له، فلا ينحصر بالجمال المتتابعة داخل نطاق النص فحسب، فهو العلاقة التي تفسر وتعزز الجانب الاتصالي للنص)⁽¹⁸⁾.

أهمية العلاقات السياقية :

مما تقدم من قول نجد أن العلاقات السياقية هي الأساس في عملية بناء النص، وهي محوره، ومن دونها يظهر - أي النص - وكأنه مقاطع صوتية غير مفهومة . وعليه فإن العلاقات السياقية تقوم بالوظائف التالية:⁽¹⁹⁾

أ- إنتاج نص متماسك، لأنها تعطي سمة المقبولية من قبل المستقبل، فإن هذا يضمن نجاح عملية الاتصال اللغوي، وذلك لتحقيق معايير النصية، أو الكفاءة النصية.

ب - تجعل النص شبكة نسيجية من الصعب فكّ عراها؛ لأنها تُعزّز مسألة كون النص نسيجاً من المكونات اللفظية والدلالية التي تترايط فيما بينها لتشكل النص؛ وذلك على اعتبار أن النص هو (نسيج من الكلمات يترايط بعضها مع بعض)⁽²⁰⁾.

ج - أن الفعل النسيجي الذي تقوم به هذه العلاقات يعزز المنحى التداولي للنص ويؤدي إلى نجاحه واستمراره فالحديث عن العلاقات السياقية ليس حديثاً عن علاقة لفظية بأخرى داخل الجملة، وإنما علاقة جملة بأخرى، ومعلوم أن مستخدم اللغة لا يتواصل مع غيره على أساس الجملة، وإنما يكون تواصله على أساس النص، وهذا ما ذهب إليه سعيد بحيري في كتابه (علم لغة النص)⁽²¹⁾.

وأن وجود المكوّن التداولي إضافة إلى المكونين النحوي والدلالي، سيؤدي إلى تحديد مدى مناسبة الجمل والخطاب للسياقات التواصلية المنجزة فعلاً، وهذا كله في النهاية يؤدي إلى التأثير الإيجابي في نفسية المتلقي، مما يجعله يتفاعل مع النص باستمرار .

د - تعمل العلاقات السياقية على تحقيق الفهم الصحيح للنص، وتنظيم أفكاره، وتتابعاته الدلالية المختلفة؛ نظراً لما توفره من السبك القائم على الإحالة، والحذف، والاستبدال، والربط، والاتساق المعجمي أو الانسجام المعجمي، وهذا من شأنه أن يجعل الأجزاء النصية تقوم بوظائفها الحقيقية ضمن كل مرحلة من المراحل المنجزة.

القَسَم :

حدّه في اللغة، قال ابن سيده: (اعلم أن القَسَم هو يمين يُقسَم بها الحالف ليؤكد بها الأشياء يخبر عنه من إيجاب أو جحد، وهو جملة يؤكد بها جملة أخرى ،

فالجمله المؤكّدة هي المُقسَم عليه ، والجمله المؤكّدة هي القَسَم ، والاسم الذي يدخل عليه القسم هو المُقسَم به⁽²²⁾.

وفي لسان العرب، قال ابن منظور: (القَسَمُ بالتحريك: اليمين ، وقد أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه: حَلَفَ له، وتقاسم القوم: تحالفوا ... وأقسمتُ: حَلَفْتُ، وقاسمهما: أي حلف لهما، والقسامة الذين يحلفون على حقهم ويأخذون)⁽²³⁾.

وفي الشرع هو (ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً)⁽²⁴⁾.

صيغته :

القسم له صيغة أصلية وهي أن يُؤتى بالفعل (أقسم)، أو (أحلف) متعدياً بالباء إلى المقسم به، ثم يُؤتى بالمقسم عليه، وهو المُسمى جواب القسم ، نحو قوله تعالى: (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)⁽²⁵⁾.

ولما كثر القسم في كلام الناس مالوا إلى حذف فعل القسم واكتفوا بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة، نحو قوله تعالى: (والليل إذا يغشى)⁽²⁶⁾، وبالتاء في لفظ الجلالة، نحو قوله تعالى: (تالله لأكيدنَّ أصدانكم)⁽²⁷⁾، والعوض بالتاء قليل، أما بالواو فكثير⁽²⁸⁾.

تاريخية القسم :

عرف الإنسان أسلوب القسم منذ القدم، وكان من عاداته - أي الإنسان - إذا احتاج إلى تأكيد خبر سمعه، أو وعد قطعه، أو رغبته في الاطمئنان إلى كلام محدثه، أو رغبته في اطمئنان محدثه إلى ما يقوله هو، وهو أمر شائع بين البشر، أفراداً وجماعات، ولا سيما في ما عظم من أمور كالمعاهدة بين قوم وقوم، أو بين ملك ورعيته، أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة من بعض، فيعلموا الموافق من المخالف، ويميزوا الولي من العدو، فمثل هذه الحاجة إلى التأكيد والاطمئنان دعتهم إلى استنباط القسم، إذ عبروا عنه بمصافحة اليد اليمنى لليد اليمنى، وهذا - كما يبدو - أصل كلمة اليمين⁽²⁹⁾.

والتعبير عن القسم باليمين معروف عند العرب والروم والعبرانيين، (فجاء في الزبور ص 144 عدد 8 ((الذين أفواههم تنطق سوءاً ويمينهم يمين كذب))⁽³⁰⁾، أي: قسمهم قسم كذب.

وجاء ذكر العقد بصفقة الكف في أمثال سليمان (عليه السلام) في التحذير عن الضمانة ص 6 عدد((1)): (يا بني إن ضمننت صاحبك فصفقت كفك لغريب)⁽³¹⁾. ومن هذا نجد أن العرب والعبرانيين قد تشابها في أمر العقد وصارت كلمة اليمين اسماً للقسم عندهم .

ومن طرق العرب في التعبير عن القسم، أنهم كانوا يغمسون أيمانهم في إناء ماءٍ إذا كانوا كثيرين؛ ليدلوا بذلك على أخذ بعضهم يد بعض وأنهم أجمعوا أمرهم بما متَّهم شيء واحد .

ومن طرقهم أيضاً أنهم عبروا عنه - أي عن القسم - بأخذ العطر واقتسامه بينهم، ومسح أيديهم به، فراحوا وعبَّه يَضوع من أيديهم وثيابهم، كما كان ذلك في الجاهلية، وقصة (عطر مَنْشَم) معروفة⁽³²⁾، حتى قال زهير بن أبي سلمى:⁽³³⁾

تداركتما عبساً و ذبيان بعدما تقانوا ودقوا بينهم عطر مَنْشَم

وعبروا أيضاً عن القسم بوصل بعضهم حبله بحبل الآخر، حتى صار الحبل اسماً لعقد الذمة والجوار، جاء في التنزيل: (بحبل من الله وحبل من الناس)⁽³⁴⁾، أو حَرَموا على أنفسهم بعض المشتهيات حتى يفعلوا ما يوجبوا على أنفسهم وسمَّوه (نذراً) أي يميناً أو ربما كَفَّوا عن شيء من غير شرط ، وسمَّوه (أَلِيَّةً)، كما جاء في القرآن (للذين يؤلون على أنفسهم تربص أربعة أشهر)⁽³⁵⁾. وبعد ذلك توسع استعمال هذه اللفظة، فصارت (أَلِيَّةً) بمعنى (أقسمتُ)⁽³⁶⁾ .

أركان القسم :

للقسم أربعة أركان :

الأول : المُقسِم: وهو إما الله تعالى، وإما الناس.

أما القسم من الله ف (قد قيل: ما معنى القسم منه تعالى ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد)⁽³⁷⁾. وأجيب عن هذا التساؤل: بأنَّ القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القَسْمُ

إذا أرادت أن تؤكد أمراً، كما أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم، وذكر الله تعالى النوعين في كتابه؛ حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم))، وقال: ((قل إي وربي إنه لحق))⁽³⁹⁾⁽⁴⁰⁾. ففي الآية الأولى : فصل الحكم وقرره بالشهادة . وفي الثانية : قرره وأكده بالقسم⁽⁴¹⁾. وذكر السيوطي في الإتقان أن رجلاً من الأعراب (لمّا سمع قوله تعالى: ((وفي السماء رزقكم وما توعدون . فغرب السماء والأرض إنه لحق))⁽⁴²⁾، صرخ وقال: مَنْ ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه لليمين)⁽⁴³⁾.

الثاني: أداة القسم :

للقسم أدوات عدة منها ما هو حروف، ومنها ما هو أفعال، فأما الحروف، فهي: الباء ، والواو، والتاء ، واللام . قال سيبويه : (وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر، وأكثرها الواو، ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به . ثم التاء ، ولا تدخل إلا في واحد)⁽⁴⁴⁾.

فأما اللام فلم ترد في القرآن الكريم ، وإنما وردت في كلام العرب، وأريد بها معنى التعجب، كقول أمية بن أبي عائذ:⁽⁴⁵⁾

لله يبقى على الأيام ذو حيدٍ بمشخرٍ به الظيان والآسُ

وأما الثلاثة الأولى (الباء ، والواو ، والتاء) فهي الواردة في القرآن الكريم .

أولاً: الباء، فإنها من أصل حروف القسم ، قال ابن هشام في المغني ذاكراً معانيها: (الثاني عشر: القسم ، وهو - أي حرف الباء - أصل أحرفه)⁽⁴⁶⁾. ومما جعل الباء أصل حروف القسم هو:⁽⁴⁷⁾

1. جواز إثبات فعل القسم وفاعله معها ، كما في قوله تعالى (وأقسموا بالله لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم)⁽⁴⁸⁾، أو حذفهما ، كما في قوله تعالى: (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم)⁽⁴⁹⁾.

2 دخولها على الظاهر والمضمر، ولا يدخل من حروف القسم غيرها على المضمر، فأما دخولها على الظاهر، فقوله تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ...)⁽⁵⁰⁾. وأما دخولها على المضمر فلا شاهد له في القرآن الكريم، وإنما ورد في قول

الشاعر:⁽⁵¹⁾

الأ نادت أمامةً باحتمالي لتحرزني فلا بك ما أبالي

3. تستعمل في القسم الاستعطافي، كقول عبد الله بن قيس الرقيات: (52)

رقي بعمركم لا تهجرينا وميننا المني ثم امطينا

فاستعمل الباء في الاستعطاف في (بعمركم لا تهجرينا) .

ثانياً: الواو، وهي أكثر حروف القسم استعمالاً من غيرها، قال سيبويه: (وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر ، وأكثرها الواو ، ثم الباء ، يدخلان على كل محلوف) (53). ويفهم من كلام سيبويه أنهما يدخلان على لفظ الجلالة وغيره من الأسماء الظاهرة؛ لأن الواو لا تدخل على المضمرة كما هو معلوم لدى النحاة، وأنه لا يجوز ذكر فعل القسم معها.

ثالثاً: التاء، وتختص بالدخول على لفظ الجلالة فقط؛ وذلك لكثرة الحلف به، ولا يجوز ذكر فعل القسم معها .

وأما الأسماء ، فهي : عَمْر ، نحو قوله تعالى : (العمرُك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) (54)، وأيمن ، ويمين ، وأمثلتها معروفة وكثيرة .

وأما الأفعال التي استعملت أدوات للقسم، فهي، أحلف، وحلف، وأقسم، وقسم .

الثالث: المُقسَم به :

قال ابن عصفور: (والمقسم به كل اسم لله أو لما يعظم من مخلوقاته) (55). وذكر ابن القيم أنّ الله سبحانه (يقسم بأمر على أمور، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته) (56).

والمقسم به من آيات الله تعالى، إما أن يكون شيئاً علوياً كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان يجد في هذه الآيات من العظمة والجلال والقدرة الإلهية ما يدفعه إلى الخشوع والسجود والإيمان ببارئها تعالى، قائلاً: (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار) (57).

أو أن يكون شيئاً أرضياً مما يكون داخلاً في حياة الإنسان من خلال التعايش معه أو العيش به لما فيه من فوائد جمّة، كالتين، والزيتون، والبحر المسجور، والأرض .

وأُن يكون المقسم به شيئاً خاصاً بالإنسان، كالنفس البشرية، والنفس اللوامة، كقوله تعالى: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) (58)، وقوله تعالى: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (59). وإن القسم بهذه الأشياء يدفع المختصين من المفكرين وعلماء النفس والاجتماع إلى البحث فيها، كونها مجالات رحبة للتفكير والتأمل والبحث الطويل (60).

الرابع : المقسم عليه أو ما يسمى بجواب القسم :

قال ابن عصفور معرفاً جملة جواب القسم ، هي (كل جملة خُلفَ عليها بإيجاب أو نفي، نحو: ((والله ما قام زيد))، و ((والله ليقوم زيد)) (61). وترتبط جملة الجواب بجملة القسم ارتباطاً بالجزاء .

والقسم عادة يراد به توكيد المقسم عليه وتحقيقه، فلا بد أن يكون بما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها ، وذلك يحتم أن يكون المقسم عليه - غالباً مذكوراً في الكلام، وقد يحذف جواب (لو)، نحو قوله تعالى: (كلا لو تعلم ونعلم اليقين) (62)، وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب (63)؛ لأنه يدل على التخميم والتعظيم، فجواب (لو) محذوف، تقديره: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر واليقين لفعلمت ما لا يوصف من الخير .

وأكثر ما يحذف الجواب إذا كان في المذكور دلالة عليه، كقوله تعالى: (لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة) (64)، فجواب القسم - أي المقسم عليه - محذوف دل عليه قوله تعالى بعده: (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) (65)، والتقدير: لتبعثنَّ و لتحاسبنَّ (66). ومن هذا نرى أن حذف المقسم عليه أوجز وأبلغ .

والقسم في القرآن الكريم نوعان :

الأول: قسم على طريق الحكاية ، وذلك في أثناء القصص التي قصها القرآن الكريم، كقوله تعالى حكاية لقول أخوة يوسف لأبيهم: (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين) (67)، أو كقوله جلّت علاه ، مخبراً عما كان يقوله المكذبون للرسول (ﷺ) ومبالغتهم في ذلك حتى أنهم يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم) (78) .

الثاني: قسم أقسم الله تعالى به، وهو نوعان :

أ - القسم الصريح: (وهو ما كان فيه القسم صريحا أو ظاهرا، ويستدل عليه بحرف القسم، نحو قوله: ((والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف))⁽⁶⁹⁾، أو يستدل عليه بالحرف والفعل معا ... أو يستدل عليه بلفظ من ألفاظ القسم ، اسما كان أم مصدرا)⁽⁷⁰⁾.

ب . القسم المضمّر (وهو ما لم يذكر معه القسم صريحا أو ظاهرا)⁽⁷¹⁾، أي هو القسم المحذوف الذي (تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم، كقوله تعالى: ((تَبْلُؤُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ...))⁽⁷²⁾، أي: والله لتبْلُونَ)⁽⁷³⁾، وإذا كان المعنى والسياق يدلان عليه، نحو قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا)⁽⁷⁴⁾، والتقدير : والله ما من كافر إلا وارد النار، بدلالة المعنى والسياق ، لأن هذه الآية سبقتها آيات مؤكّدة بالقسم الملفوظ ، وهو قوله تعالى: (فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحشرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذي هو أولى بها صليا)⁽⁷⁵⁾، فالقسم الملفوظ دل على القسم الملحوظ، أي المحذوف⁽⁷⁶⁾ .

بعد هذا المهاد النظري نشرع الآن بالجانب التطبيقي .

إذا تدبرنا مجيء القسم في السياق القرآني لنحظ وجود علاقة تربط المقسم به بالمقسم عليه، وهذا من أسرار الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه النظم القرآني، وينبئ عن سر من أسرار القسم الوارد في التنزيل .
وأول ما نبدأ به في التطبيق القسم المفرد من حيث مكانة وقداسة المقسم به ثم يتلوه القسم المتعدد .

أولاً: القسم المفرد:

1- القسم بلفظ الجلالة (الله):

• قال تعالى : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لئن سألنّ عما كنتم تفترون)⁽⁷⁷⁾.

سياق الآيات يتحدث عن الكافرين الذين اتخذوا مع الله تعالى شريكا حتى انه تعالى نهاهم عن ذلك قائلا: (لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو اله واحد فإياي فارهبون)⁽⁷⁸⁾، وبما أنه تعالى وحده المستحق للعبادة دون ما سواه، فإن المشركين قد ارتكبوا إثما في

جعلهم الأصنام شركاء لله في العبادة، هذا أولا . وثانيا أنهم جعلوا لهذه الأصنام نصيبا مما أفاض الله عليهم من فيض فضله من الأرزاق والنعم الكثيرة، فما أقدم عليه هؤلاء المشركون أمر مُستغَرَب يُتَعَجَّب منه ، وذلك أقسم سبحانه بلفظ جلالته بأنه سيسألهم عما كانوا يفترون على الله كذبا بأن له شريكا يقدمون له نصيبا من هذه الأرزاق. فسياق النص يُظهر العلاقة التي بين المقسم به لفظ الجلالة (الله)، والمقسم عليه، وهو سؤال هؤلاء المشركين عما ارتكبه من ذنب عظيم، وأن قسمه تعالى قد جاء بالتاء ليدل بها على أن ما قاموا به أمر عجيب ومُستغَرَب منه إذ أن (القسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغريا ، فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يُسألون سؤالا عجيبا بمقدار غرابة الجرم) (79) الذي ارتكبه وهو افتراء عظيم .

2. القسم بلفظ (الرب):

أقسم سبحانه بلفظة (رب) في مواضع عدة من القرآن الكريم وبصور مختلفة، فأقسم بها مضافة إلى الرسول (ﷺ) في حالتي الخطاب والتكلم. فمن صور الخطاب:

- قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (80) .

سياق الآيات يتحدث عن نفي الإيمان عن الذين نطقوا بالشهادتين وانتموا إلى الإسلام، ولم يحتكموا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) ولم يرضوا بقضائه فيما شجر بينهم ، فالمقسم به ربك يا محمد، وجواب القسم هو نفي اكتمال الإيمان عن هؤلاء إلا إذا أقرروا بالانصياع التام والتسليم القلبي لما يحكم به النبي المصطفى ، ثم بعد ذلك أنهم لا يجدوا في أنفسهم حرجا في قبول ذلك القضاء الذي قضيت به يا محمد ويسلموا تسليما .

فناسب ذلك أن يقسم تعالى بريوبيته مضافة إلى رسوله الكريم، لأن من معاني الرب المصلح للشيء، ومن مصاديق ذلك الإصلاح تشريع الله سبحانه الأحكام والقوانين التي تصلح حال الناس، ومنها ما جاء به النبي الأكرم من أحكام يحتكم إليها الناس . فسياق الآية يظهر العلاقة بين المقسم به (رب) مضافا إلى الرسول،

وبين المقسم عليه نفي الإيمان عن العباد ما لم يحتكموا لقضاء الرسول وما بين يديه من أحكام أنزلها إليه ربه الكريم .

ومن صور القسم بالرب مضافا إلى النبي الأكرم بصيغة التكلم :

• قوله تعالى : (ويستنبؤنك أحق هو قل أي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين)⁽⁸¹⁾. سياق الآيات يعرض لنا تكذيب المشركين بوعد الله تعالى لهم بعذاب الخلد، حينما قال لهم: (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون)⁽⁸²⁾، فهم (مرة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافا به، ومرة يقبلون على الرسول في صورة المستقهم الطالب فيسألونه: أهذا العذاب الخالد ، أي عذاب الآخرة، حق)⁽⁸³⁾.

فيأمر سبحانه نبيه الكريم بأن يجيبهم مؤكدا، قائلا له: (قل أي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ، إي (حرف جواب لتحقيق ما تضمنه سؤال سائل، فهو مرادف لـ)) نعم)) ، ولكن من خصائص هذا الحرف أنه لا يقع إلا وبعده قسم)⁽⁸⁴⁾.

المقسم به لفظ (الرب) مضافا لـ (ياء المتكلم) الذي هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)، والمقسم عليه (انه الحق) ، جاء مؤكدا بالجملة الاسمية، وبالقسم، و ((إن)) المشبهة، ولام الابتداء، ثم أُرِدِف جواب القسم بقوله (وما أنتم بمعجزين)؛ ليتضمن (جوابا عن استقهاهم باعتبار ما أضمره من التكذيب ، أي هو واقع وأنتم مصابون به غير منفلتين منه)⁽⁸⁵⁾.

فالمقسم به (الرب) منسوبا لضمير المتكلم (الرسول) ، ناسب المقسم عليه (إنه الحق)؛ لأن المسؤول هو الرسول والمسؤول عنه هو وعد عذاب الآخرة. وبهذا تتضح جليا العلاقة السياقية بين المقسم به والمقسم عليه في هذه الآية الكريمة.

ومن قسمه تعالى بلفظة الرب قوله سبحانه: (فلا أقسم برب المشارق والمغرب إنا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين)⁽⁸⁶⁾ .

المقسم به الله بعنوان ربوبيته للمشارق والمغرب ، أي ربوبيته العالم كله لأن العالم ينحصر في جهات شروق الشمس وغروبها ، وإن إثثار المشارق والمغرب

بالقسم بربها فيه مراعاة لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت⁽⁸⁷⁾. وفي قوله (فلا أقسم، فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه)⁽⁸⁸⁾. والمقسم عليه (إنا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم ...) ، فيه (إشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة)⁽⁸⁹⁾.

وسياق الآيات يبين العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، تلك العلاقة التي تحملنا على أن نفهم أن (في ذكر ربوبيته للمشارق والمغرب إشارة إلى تعليل القدرة، فإن الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكوينها لا يعجزه شيء منها ، ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبدله خيرا منه وإلا شاركه المانع في أمور التدبير، والله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته)⁽⁹⁰⁾، فأقسم سبحانه برب (المشارق والمغرب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين ، وينشئهم في ما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب بها في مغرب)⁽⁹¹⁾.

3. القسم بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم):

أقسم تعالى بالنبي المصطفى مرتين في القرآن الكريم، مرة بعمره وحياته الشريفة، وأخرى بوصفه شاهدا. وقد عرض القرآن الكريم الكثير من القصص، ومنها قصة النبي لوط (عليه السلام)، فقال تعالى في معرض القصة: (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين)⁽⁹²⁾.

سياق الآيات يتحدث عن الملائكة عندما حلوا ضيوفا عند لوط (عليه السلام)، ففرح الفجار من قوم لوط بورودهم فحاول لوط ردهم عن ذلك قائلا لهم: هؤلاء بناتي فتزوجوهن إن كنتم فاعلين ، ولكن قومه أعرضوا عن اقتراحه وأظهروا إصرارهم على فعل الرذيلة .

فإنه سبحانه يخاطب النبي محمدا في معرض القصة قاسما بحياته وبقائه إكراما له على (عدم جدوى موعظة فيمن يكون في سكرة هواه)⁽⁹³⁾، والمقسم به (العمر يفتح العين وسكون اللام أصله لغة في العمر - بضم العين - فخص المفتوح بصيغة القسم

لخفته بالفتح لأن القسم كثير الدوران في الكلام . فهو قسم بحياة المخاطب به⁽⁹⁴⁾ ، وهو الرسول الكريم، على المقسم عليه وهو (إنهم لفي سكرتهم يعمهون)، ومعناه (أقسم بحياتك ويقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم وهي غفلتهم بانغمارهم في الفحشاء والمنكر يترددون متحيرين)⁽⁹⁵⁾ .

ولأن النبي محمداً أكرم الخلق عند الله تعالى ، وهو المرسل لإنقاذ الناس من ضلالهم وسكرتهم، وبما أن قوم لوط كانوا يعمهون في سكرتهم ولا يهتدون؛ فناسب المقسم به المقسم عليه بأن أقسم سبحانه بعمر المصطفى الذي أرسله تعالى هادياً للناس إلى الصراط المستقيم، على أن قوم لوط لا هداية لهم وهم متحيرون مترددون بغفلتهم .

4. القسم بالقرآن الكريم:

أقسم سبحانه بالقرآن موصوفاً بصفات عدة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز منها:

- قوله تعالى: (والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين)⁽⁹⁶⁾ .

المقسم به (القرآن) وقد وصفه تعالى بـ (الحكيم)؛ لأنه (مستقرٌ فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ)⁽⁹⁷⁾ .

والمقسم عليه (إنك لمن المرسلين)، أي أنه تعالى أقسم على صدق نبوة رسوله محمد ، وسياق الآيات قد أكد أن المقسم به كان دليلاً على المقسم عليه ومؤكداً له، لأن القرآن خير دليل على نبوة المصطفى محمد ؛ لما تضمن من الحكم والحجج التي عجزت عقول البشر عن مضاهاتها، وسلّمت في نهاية الأمر بواقعيتها لأنها معجزة الرسول التي أثبتت أنه رسول من جملة الرسل التي أرسلها تعالى لعباده ليهدونهم لطريق الخير والصلاح .

- وقوله تعالى: (ق . والقرآن المجيد)⁽⁹⁸⁾ .

سياق الآيات الثلاث الأولى من سورة (ق) يتحدث عن النبي المصطفى كونه مرسلًا من الله تعالى، ومنذراً لهم، وصادقاً فيما جاء به، وتؤكد الآيات - أن البعث

والنشور حقّ ، على الرغم من أن الكافرين يعدون ذلك شيئاً بعيد الحصول وغير ممكن .

فأقسم سبحانه بالقرآن موصوفاً بـ (المجيد)، أي الكريم ، الشريف ، والمجد: السعة في الكرم والجلال، فوصفه تعالى بذلك لكثرة ما يتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية⁽⁹⁹⁾ . فالقسم بالقرآن المجيد (كناية عن التتويه بشأنه لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المُقسِمِ فكان التعظيم من لوازم القسم)⁽¹⁰⁰⁾ .

المقسم عليه محذوف تضمنه المقسم به ، فالعلاقة السياقية بينهما بيّنت اتحاد (المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن ، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حقّ من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح، لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به)⁽¹⁰¹⁾ .

وأقسم تعالى بالكتاب في موضعين ، هما :

- قوله تعالى : (حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)⁽¹⁰²⁾ .
- وقوله تعالى : (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين)⁽¹⁰³⁾

في سورتي الزخرف والدخان المقسم به القرآن بكون وصفه مبيناً، والمقسم عليه في سورة الزخرف جعله تعالى القرآن (عربياً واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدقوا به لو كانوا غير مكابرين ولكنهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون)⁽¹⁰⁴⁾ . وفي سورة الدخان (نوّه بشأن القرآن بطريقة الكناية عنه بذكر فضل الوقت الذي ابتدئ إنزاله فيه)⁽¹⁰⁵⁾ .

والآيات بسياقها أوضحت أن المقسم به هو المقسم عليه (وهذا ضربٌ عزيزٌ بديع لأنه يومئ إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المُقسِمُ أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين المقسم به والمقسم عليه)⁽¹⁰⁶⁾ ، والإنذار والتعقل يحتمان (أن يكون الكتاب واضحاً مفهوماً لا مجهولاً ومعتداً)⁽¹⁰⁷⁾ .

5- القسم بالنجم :

- قال تعالى: (والنجم إذا هوى . ما ضلّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلاّ وحي يوحى)(108).

سياق الآيات يتضمن ردّاً على المشركين الطاعنين بنبوّة محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم) ومعجزته القرآن ، فناسب هذا أن يقسم تعالى بالنجم ، ويراد به مطلق النجم . أي الكواكب وهو من عظيم مخلوقاته ، وقيد سبحانه النجم بهويّه، أي في حال ميله بادياً للنظر لامعاً في السماء ليلاً، فالنجم في هذا الميل يكون الساري مهتدياً به .

المقسم عليه (ما ضلّ صاحبكم وما هوى).

المشركون اتهموا الرسول محمداً بأنه مجنون، والجنون من الضلالة، وفي هذه الحال يكون المجنون غير مهتدٍ إلى وسائل الصواب والكذب، واتهموه بأنه ساحر، والسحر ضلال وغواية، والغواية: فساد العقل وتعلقه بالباطل. وأثر سبحانه أن يعبر عن رسوله الكريم بوصف (صاحبكم)؛ لأن في هذا الوصف تعريض لهم بأنهم أهل بهتان وكذب إذ نسبوا للرسول ما ليس فيه ولا متصف به مع علمهم ودرايتهم وشدة اطلاعهم على أحواله وشؤونهم، إذ هو بينهم في بلد لا يصعب على أهله إحاطة علمهم بحال واحد معين مقصود من بينهم (109) .

ومن هذا نرى أن مناسبة المقسم به للمقسم عليه هو (أن الكلام مسوق لإثبات أن القرآن وحي الله منزل من السماء، فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازلة من محل رفعة معنوية)(110). ثم عطف على جواب القسم (ما ينطق عن الهوى) ، وفي هذا وصف لكمال ذاته .

6. القسم بمواقع النجوم :

- قال تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون)(111).

في هذه السورة المباركة نجد صيغة قسم أخرى هي (لا أقسم)، وقد تعددت آراء المفسرين فيها ، ومن هذه الآراء أن الله تعالى (أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يُهمُّ أن

يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به، فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسم⁽¹¹²⁾، أي أنها يؤتى بها لإفادة التوكيد، وقد ذهبت د. بنت الشاطئ إلى توضيح هذا الرأي قائلة: (أنه سبحانه ليس في حاجة إلى القسم وأن نفي الحاجة إلى القسم تأكيد له)⁽¹¹³⁾، وتستدل على ترجيح هذا الرأي معللة أنه: (من مألوف استعمالنا أن نقول: لا أوصيك بفلان، تأكيداً للوصية. كما نقول: بغير يمين، تأكيداً للثقة التي لا تحتاج معها إلى يمين)⁽¹¹⁴⁾.

المقسم به (مواقع النجوم)، أي مطالعها وغروبها، وليس النجوم لذاتها، وذلك للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها .

أما المقسم عليه فهو قوله: (إنه لقرآن كريم)، وقد وقعت جملة (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ونلاحظ أيضاً أنه قد وقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى ((لو تعلمون أفجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقفاً، وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيداً أو تنبيهاً)⁽¹¹⁵⁾، وهذا ما أدته جملة الاعتراض المشار إليها أعلاه .

ونلاحظ من سياق الآيات أن هناك علاقات تربط بين المقسم به (مواقع النجوم) والمقسم عليه (إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون). ومصاديق هذه العلاقات الرابطة بينهما هي :

أولاً: أن النجوم يُهتدى بها، والقرآن الكريم أنزله الله سبحانه ليهدي به الناس، ف (النجوم جعلها الله يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والغي .فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهديتين)⁽¹¹⁶⁾.

ثانياً: أن النجوم فيها رجم للشياطين، وآيات القرآن فيها رجوم لشياطين الأوس والجن⁽¹¹⁷⁾.

ثالثاً : أن النجوم في غروبها ومساقطها، تشابه آيات القرآن في نزولها، فالنجوم هي آيات الله (المشهودة المعانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول)⁽¹¹⁸⁾.

رابعاً: أن (النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه، ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه، وشرعه، وأسماءه، وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية)⁽¹¹⁹⁾.

7. القسم بالعصر :

• قال تعالى: (والعصر . إن الإنسان لفي خُسْر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)⁽¹²⁰⁾.

المقسم به (العصر)، وقد اختُلِفَ في المراد به ، فقيل: (هو اسم للعشي والليل والنهار)⁽¹²¹⁾، وقيل هو (الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس)⁽¹²²⁾.

ويؤيد هذا الرأي أنه تعالى أقسم به مثلما أقسم بالضحى، وبالليل، وبالصبح⁽¹²³⁾، وقيل المراد به عصر النبي محمد أو عصر الإسلام، أو صلاة العصر⁽¹²⁴⁾ .

وقد ذهبت د . بنت الشاطي إلى أبعد من ذلك حينما رأت أن العصر يقصد به (ما يعتصر من خلاصة الإنسان بالضغط والابتلاء)⁽¹²⁵⁾، معتمدة في تفسيرها هذا المعنى اللغوي للفظ العصر المتمثل في اعتصار الخمر أو العنب أو غيره .

وأولى هذه الآراء رأيان هما: العصر: بمعنى الدهر والزمان؛ لأنه يناسب خسران الإنسان في حياته وعمره ، والعصر: بمعنى وقت العصر؛ لأنه دخول في نهاية الأعمال اليومية، وبه يبدأ كل شيء بالانقضاء كالشمس في ميلها للغروب والإنسان في ميله للراحة بعد العناء والتعب اليومي .

والمقسم عليه (إن الإنسان لفي خُسْر)، والمراد هنا جنس الإنسان، وهو في حالة خسران لأعلى الأشياء عنده وهو عمره الذي ينقضي بالتدرج .

ومن هذا نلاحظ العلاقة السياقية التي تربط المقسم به بالمقسم عليه في السورة الكريمة ، فقد أقسم سبحانه (بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان وحملها على

عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونَبّه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين، وأفعالهم ، وجَعَلها قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوّى بينهم، وأن لا يُجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رَحِمَهُ اللهُ⁽¹²⁶⁾، بعد أن توافرت فيه شروط أربعة: إيمان لا اختبار القلب، وعمل صالح لا اختبار الجسد، وتواصل بالحق اختبار للعقل، وصبرٌ اختبار للنفس. فهؤلاء هم المستثنون بقوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)، وهم بعملهم هذا، وصفاتهم هذه، قد اشتروا حياة سعيدة حافلة بمرضاة الله.

8. القسم بالسماء :

• قال تعالى: (والسماء ذات الخُبُك . إنكم لفي قول مختلف. يؤفك عنه من أفك)⁽¹²⁷⁾.

الخُبُكُ: (قال أبو عبيدة، والمبرد، الخُبُكُ: الطريق، واحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق على جناحيه، وحبك الماء طريقه)⁽¹²⁸⁾.

المقسم به السماء موصوفة بذات الطرائق المختلفة، وفي هذا الوصف (إيماء إلى نوع جواب القسم)⁽¹²⁹⁾، فكان المقسم عليه (إنكم لفي قول مختلف) ، أي اختلاف الناس وتشتت طرائقهم (في القرآن وفي النبي ((صلى الله عليه وسلم)) ، هو خرص كله ، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم وطرائقهم ، وأقوالهم ، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرائق)⁽¹³⁰⁾ .

ومن سياق الآيات نلاحظ العلاقة الرابطة بين المقسم به السماء موصوفة بذات الطرائق المختلفة، وبين المقسم عليه اختلاف طرائقهم ومذاهبهم وآرائهم بكتاب الله وبنبيه المصطفى، فهم مرة يقولون في الكتاب سحر ومحمد ساحر، وأخرى زجر ومحمد مجنون، وثالثة شعر ومحمد شاعر...، ويقرر سبحانه بعد ذلك: يُصرف عن هذا الكتاب من صرف ويُصرف عن التصديق والإيمان بالنبي محمد من صرف.

ثانياً : القَسَم المتعدد:

هو القَسَم الذي أقسم فيه الله سبحانه بأمر عدة جمعها في آية واحدة أو أكثر، وجعل لها جميعها مقسماً عليه واحداً ، ومنه قوله تعالى في:

• سورة الصافات :

• قال تعالى : (والصفات صفّاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً . إنّ إلهكم لواحد)⁽¹³¹⁾.

كان الناس قبل وأثناء نزول القرآن يؤمنون بأن الخالق واحد فهم موجدون في الخالقية ولكنهم في الوقت ذاته مشركون في الإلوهية والتدبير ، إذ أنهم كانوا ينسبون الأمور وتدبيرها للآلهة التي لا تضر ولا تنفع ، وبما أن غرض السورة في مفتحها إثبات الوجدانية لله سبحانه ، وأنه هو المدبر الذي لا شريك له ، اقتضى سياق النص أن يُقسم سبحانه بمُقَسَم به مختلف الأصناف وهو طوائف من الملائكة التي عبّر عنها (بلفظ الإناث : الصفات والزاجرات والتاليات ؛ لأن موصوفها الجماعة والتأنيث لفظي)⁽¹³²⁾. فالله سبحانه لم يقسم بالملائكة لذاتها وإنما أقسم بصفات من صفاتها ، فهي صافات بين يديه للعبودية، وزاجرات للسحاب ولغيره بأمر الله تعالى وتاليات تتلو كلامه سبحانه⁽¹³³⁾ لرسله (عليهم السلام) . والقسم بهذه الصفات معطوفة (بالفاء يقتضي أنّ تلك الصفات ثابتة لموصوف واحد باعتبار جهة ترجع إليها وحدته ، وهذا الموصوف هو هذه الطوائف من الملائكة)⁽¹³⁴⁾ التي تأتمر بأمر الله سبحانه وهو الإله والمدبر .

المقسم عليه (إنّ إلهكم لواحد) ، وهو جواب القسم ، وبما أن القسم يُؤتى به للتأكيد فكان التأكيد على صفة (واحد) ؛ لأن المشركين كانوا يعلمون أن لهم إلهاً واحداً ولكنهم أشركوا به وجعلوا لهم آلهة عدة . فأبطل تعالى بالمقسم عليه اعتقادهم ، وزاد على ذلك التأكيد بأن أكد ربوبيته وقرر توحيد هذه الربوبية فأردف سبحانه بعد (إنّ إلهكم لواحد)⁽¹³⁵⁾ ، فقال : (رَبّ السماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق)⁽¹³⁵⁾ ، وهذا (من أعظم الأدلة على أنه إله واحد ، ولو كان معه إلهاً آخر لكان الإله مشاركاً له في ربوبيته ، كما شاركه في إلهيته)⁽¹³⁶⁾.

سورة الطور

- قال تعالى: (والطور . وكتاب مسطور . في رِقِّ منشور . والبيت المعمور والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِع . ما له من دافع)(137) .
المقسم به في هذه السورة أمور خمسة هي:
- الطور وهو الجبل الذي كَلَّمَ الله تعالى به موسى (عليه السلام) ، وأقسم به توطئة للقسمة بالتوراة) .
- كتاب مسطور في رق منشور هي التوراة التي كتبها موسى بعد نزول الألواح، وليس المراد به القرآن؛ لأن القرآن لم يكن يومئذ مكتوباً سطوراً ولا هو مكتوباً في رق .
- البيت المعمور هو الكعبة ، فبعد أن أقسم بكتاب التوراة عَقَّب ذلك بموطن نزول القرآن ، وهو مكة التي لا تخلو من طائف بها (138) .
- السقف المرفوع هو السماء ، وأقسم تعالى بها لأنها مصدر نزول الوحي كله التوراة والقرآن .
- البحر المسجور هو البحر المحبوس بقدرة الله ، المملوء بالماء ، الذي يذهب ماؤه يوم القيامة ويصير ناراً(139) .
وهذه الأشياء التي أقسم تعالى بها هي (مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته) (140) .
المقسم عليه (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِع . ما له من دافع) ، هو عذاب يوم القيامة الذي كَذَّب به الكفار فإنه واقع لا شك ، وأنه ليس له دافع ؛ لأنه من قضاء الله المحتوم الذي لا مفرّ للكافر منه يوم القيامة .
فناسب البيان القرآني وسياقه في هذه الآيات أن يقسم تعالى بالطور والتوراة وموطن نزول القرآن وغيرها ، على تحقق وقوع عذاب يوم القيامة ؛ لأن التوراة والقرآن قد ورد فيهما إخبار الناس بوقوع يوم القيامة وأنه لا مناص من حتمية وقوعه .
سورة الحاقة .
- قال تعالى: (فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إِنَّه لَقَوْلِ رَسولِ كَرِيم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيلٌ من رب العالمين)(141) .

الفاء السابقة لفعل القسم (لتفريع إثبات أن القرآن منزل من عند الله ونفي ما نسبته المشركون إليه)⁽¹⁴²⁾ . و (لا) النافية مرّ أثناء البحث عرض الآراء التي قيلت فيها . المقسم به (ما تبصرون . وما لا تبصرون) ، أي (أقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة ، لأنها لا تخرج من قسمين مبصر وغير مبصر . وقيل : الدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والخالق والخلق ، والنعم الظاهرة والباطنة)⁽¹⁴³⁾ . أما صاحب الميزان فاستبعد أن يجمع تعالى بين الخالق والخلق في صفّ واحد، قائلاً: (فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في صفّ واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيماً مشتركاً في عرض واحد)⁽¹⁴⁴⁾ .

المقسم عليه (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين). أي هو القرآن وأنه قول الرسول الكريم محمد المنزل إليه من الله تعالى عن طريق جبريل الأمين ، وما دام هذا القرآن كذلك فهو ليس بقول شاعر ولا كاهن ، وإنما هو (تنزيل من رب العالمين) .

ومن هذا نرى أن العلاقة السياقية بين المقسم به والمقسم عليه واضحة للعيان بادية للمتمعن في القرآن ، ف (في اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقية القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابه أجزاءه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحيده تعالى ومصير الكل إليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب ، والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم)⁽¹⁴⁵⁾ .

سورة المدثر .

• قال تعالى: (كلاً والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكُبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر)⁽¹⁴⁶⁾ .

جاءت (كلاً) قبل القسم حرف ردع وإبطال⁽¹⁴⁷⁾ لما تقدم من كلامهم إذ قالوا (ماذا أراد الله بهذا مثلاً)⁽¹⁴⁸⁾ .

المقسم به (القمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر) ، وهي أقسام ثلاثة قسم بعد قسم لزيادة التأكيد ، فأقسم سبحانه بالقمر الذي يظهر ويتجلى في الليل، وبالليل في

حال إداره، أي اقتراب انقضائه عند الفجر، وبإسفار الصباح، أي ابتداء ظهور الفجر، فهي آيات ثلاث متعاقبة فيها أدلة واضحة على المبدأ والمعاد .
 المقسم عليه (إنها لإحدى الكُبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) .
 الهاء تعود على (سقر) وصفاتها التي تقدم الكلام عليها في سياق السورة ، وبهذا فإنه سبحانه يقسم (بهذه الأشياء الثلاثة - وهي القمر، والليل إذ أدبر، والصبح إذا أسفر - على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر)⁽¹⁴⁹⁾، فكما أن المقسم به من آيات الله ، كذلك المقسم عليه وهي (سقر) المتميزة من بين الكُبر في العظم لا نظير لها أنها من آياته ، وفي هذا نلاحظ ما بين المقسم به والمقسم عليه من علاقة سياقية وتناسب.
 سورة المرسلات .

• قال تعالى : (والمرسلات عُرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأ .
 فالفارقات فرقأ . فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً . إنما توعدون لواقع)⁽¹⁵⁰⁾
 اختلف المفسرون في المقسم به ، فمنهم من قال إنها الرياح وهذه صفاتها ، ومنهم من قال إنها الملائكة⁽¹⁵¹⁾ ، ولكن سياق الآيات يرجح قبول تفسيرها بالملائكة التي من صفاتها أنها تُرسل متتابعة فتسرع في سيرها مثل الرياح العاصفة.
 والآيات متضمنة لقسامين : المقسم به الأول هو الجماعات المرسلات من ملائكة الوحي التي ترسل متتابعة ، فتسرع في سيرها كالرياح العاصفة مطيعة لأمره سبحانه، والمقسم به الثاني هو (الناشرات نشرأ) ، فقد استأنف القسم الثاني بالواو وجعل سبحانه (الإقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى به بالواو ، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء)⁽¹⁵²⁾ ، فهذه الصفات الأخيرة المقسم بها وهي (النشر والفرق وإلقاء الذكر مترتبة ، فإن الفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام يتحقق بنشر الصحف وإلقاء الذكر، فبالنشر يشرع الفرق بالتحقق ، وبالتلاوة يتم تحققه، فالنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق

ويترتب عليهما تمام وجوده بالإلقاء⁽¹⁵³⁾، وما تأتي به الملائكة - التي هذه صفاتها - من الذكر سيكون إما عذراً لعباد الله المؤمنين، أو نُذراً للمكذبين، ونلاحظ في الآيات تعدد المقسم به وهو تطويل للقسم لأجل (تشويق السامع لتلقي المقسم عليه)⁽¹⁵⁴⁾. المقسم عليه قوله: (إنما توعدون لواقع)، فهو تأكيد لوقوع يوم القيامة وما فيه من الثواب والعقاب وهو أمر قطعي .

أما مناسبة المقسم به للمقسم عليه في هذه السورة المباركة فقد أبانها الطباطبائي قائلاً: (من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الست أنها مع ما تتضمن الإقسام لتأكيد الخبر الذي في الجواب تتضمن الحجة على مضمون الجواب وهو وقوع الجزاء الموعود، فإن التدبير الربوبي الذي يشير إليه القسم، أعني إرسال الرسائل العاصفات ونشرها الصحف وفرقها وإلقاءها الذكر للنبي تدبير لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهي والتكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم معد للجزاء يُجازى فيه العاصي والمطيع من المكلفين . فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجة على وقوعه كأنه قيل: أقسم بهذه الحجة أن مدلولها واقع)⁽¹⁵⁵⁾.

سورة النازعات.

- قال تعالى: (والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسابحات سبجاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً . يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة)⁽¹⁵⁶⁾.

ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير موصوفات هذه الصفات المقسم بها ودارت أقوالهم ما بين الرياح والنجوم والملائكة التي تنزع أرواح الكفار أو أرواح المؤمنين وغيرها من التفسيرات⁽¹⁵⁷⁾. لكن الرأي الراجح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، فهو سبحانه قد أقسم بصفات الملائكة التي منها نازعات، وناشطات، وسابحات، وجاءت هذه الصفات الثلاث الأولى بالواو، ثم أنها سابقات، فمدبرات، وجاءتا بالفاء؛ السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزع وسبقت ونشطت وسبقت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته⁽¹⁵⁸⁾. أي أنه تعالى أقسم بالملائكة وهم (على انتزاعهم وخروجهم من موقف الخطاب إلى ما أمروا به، فنزعهم غرقاً شروعهم في

النزول نحو المطلوب بشدة وجد، ونشطهم خروجهم من موقفهم نحوه، كما أن سبجهم إسرارهم إليه بعد الخروج ويتعقب ذلك سيقهم إليه وتديبر الأمر بإذن الله⁽¹⁵⁹⁾.

المقسم عليه محذوف (للدلالة على فخامته وبلوغه الغاية في الشدة وهو ((لتبعثن)). وذهب ابن القيم إلى أبعد من ذلك، قائلاً: (إنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبارة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً... وهذا أطف مسلكاً. فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره)⁽¹⁶⁰⁾.

وبهذا نرى المناسبة بين ما هو مقسم به وما هو مقسم عليه، (فأل تعالى إلى أن المقسم عليه المراد تحقيقه هو وقوع البعث بأسلوب أوقع في نفوس السامعين المنكرين من أسلوب التصريح بجواب القسم، إذ دلَّ على المقسم عليه بعض أحواله التي هي من أهواله فكان في جواب القسم إنذار)⁽¹⁶¹⁾.
سورة الانشقاق .

• قال تعالى: (فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق. لتركبن طبقاً عن طبق. فما لهم لا يؤمنون. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون)⁽¹⁶²⁾.

أقسم سبحانه بأمر أربعة هي من دلائل آياته، فأقسم بالشفق وهو اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس⁽¹⁶³⁾، أي أقسم بالحمرة التي تكون بعد غروب الشمس وهي آية، ثم عطف عليه قسمه بالليل وما وسق، أي ما ضمَّ وحوى وجمع⁽¹⁶⁴⁾، وهو آية أخرى، ثم القمر وهو في حد ذاته آية، واتساقه أي امتلاؤه نوراً واكتماله بدرأ، وهي آية أخرى أيضاً، فهذه أربع آيات من دلائل ربوبيته سبحانه وفيها مراحل وتعاقب، فالحمرة أولاً أي بداية الليل، ثم إطباق الليل، ثم جمعه وضمه لأشياء بعد تفرقها في النهار، ثم القمر ثم اكتمال نوره وامتلاؤه.

فهذه طبقات ومراحل أقسم بها البارئ تعالى على المقسم عليه وهو (لتركبن طبقاً عن طبق)، أي: حالاً بعد حال، فالإنسان يعيش حياته الدنيا، ثم ينتقل إلى حياة البرزخ، ثم إلى الآخرة، ثم الحياة الأخروية حيث الحساب والجزاء⁽¹⁶⁵⁾.

وإذا أنعمنا النظر في المقسم به والمقسم عليه في هذه السورة المباركة وجدنا فيهما قدرة الله تعالى في تغيير العالم وتصريفه من حال إلى حال، وهما أيضاً أي المقسم به والمقسم عليه - (من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسوله، وعلى المعاد. ولهذا عَقِبَ ذلك بقوله ((فما لهم لا يؤمنون)) إنكاراً على مَنْ لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمذلولها أتم استلزام، وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك)⁽¹⁶⁶⁾.
سورة الطارق .

أقسم الله سبحانه بالسماء في سورة الطارق مرتين:

- الأولى في قوله تعالى: (والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب. إِنْ كَلَّ نَفْسَ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)⁽¹⁶⁷⁾.
- والثانية في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجوع. والأرض ذات الصدع. إِنْهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ. وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)⁽¹⁶⁸⁾.

في القَسَمِ الأول أقسم سبحانه بالسماء والطارق، أي النجم الطالع ليلاً الثاقب ضوءه ظلمة الليل، فشبهه سبحانه بالذي يطرق الناس أو يطرق أهله ليلاً، وهو بطروقه يبدد ظلمة الليل، ويبيدي ما يخفي هذا الليل وهذا الطارق، والسماء من دلائل عظيم قدرته في مخلوقاته.

والمقسم عليه (إِنْ كَلَّ نَفْسَ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)، أي هو (حال النفس الإنسانية والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدىً، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها)⁽¹⁶⁹⁾ ويكتب تلك الأعمال فَنُجَازِيْ إِنْ خَيْرًا بِخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا بِشَرٍّ.

والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه هي علاقة مشابهة ، قدرة الله في خلق النجم الثاقب الذي يثقب ظلام الليل الدامس ويبدده ويظهر ما يخفيه هذا الليل (فكذلك عِلْمُ الله . جَلَّ وَعَلَا . عظيم يثقب دخائل الأنفس وما تكنه صدورها في أعماقها المظلمة المخفية، فيكتب ذلك عنها ويسجله عليها، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)⁽¹⁷⁰⁾.

أما في القَسَم الثاني فأقسم سبحانه بـ (السماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع)، أي بالسماء موصوفة بـرجعها بالمطر، أي كون السماء تحمل البخار من البحار والأنهار وترفعه إلى الأعلى وتعيده مطراً مرة أخرى بإذن الله، وأقسم بالأرض موصوفة بصدعها بالنبات، أي أن الأرض بعد سقوط المطر عليها يصدعها النبات أي يشقها ويخرج منها.

والمقسم عليه (إنه لقولٌ فصل. وما هو بالهزل).

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في (إنه) يعود على القرآن، أي أن القرآن يفصل بين الحقّ الباطل⁽¹⁷¹⁾.

وسياق الآيات لا يوحي بهذا التفسير، إذ أنّ الآيات السابقة للقَسَم الثاني (والسماء ذات الرجوع) تتحدث عن قدرة الله سبحانه على إعادة بعث الإنسان من جديد: (إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر)⁽¹⁷²⁾.

وعلى هذا فإن المقسم عليه في قوله تعالى: (إنه لقول فصل. وما هو بالهزل) هو البعث والنشور وليس القرآن، أي أن إحياء الموتى وإخراجهم من الأرض هو القول الفصل الذي أقسم عليه سبحانه، ووصفه بالفصل مبالغة، أي الذي يفصل فيه تعالى بين أهل الحق وأهل الباطل على وجه المبالغة، فيكثر من ثواب أصحاب الحق، ويزيد في عقاب أهل الباطل. ثم نفى تعالى أن يكون أمر البعث والمعاد هزلاً وإنما هو جد؛ رداً على إنكارهم له إذ قالوا: (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون)⁽¹⁷³⁾، وقوله: (قالوا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون)⁽¹⁷⁴⁾.

أما المناسبة أو العلاقة الجامعة بين المقسم به والمقسم عليه في هذه الآيات فهي أن القرآن الكريم لجأ (إلى) هذا الأسلوب البياني الدقيق وهو القسم بآيات الله التي تتجسد فيها ظواهر مشاكلة للبعث والمعاد، وهي ظواهر تمر بالإنسان حيناً بعد حين ولا يُشك في أمرها لأنها تحدث وتتجسد أمامه، فكأن القرآن أراد أن يلفت أنظارهم بهذا القسم - الذي تضمن السماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع - إلى أنه كما أنكم ترون كيف تحمل السماء الماء من بحار الأرض وأنهارها، ثم تعيده وترجعه على شكل أمطار، وكما أنكم ترون كيف أن الأرض تكون قاحلة ميتة فيبعث الله فيها

الحياة من جديد فتتشقق وتتصدع عن النبات - رمز حياتها - فكذلك أنتم بعد موتكم ستُعاد لكم الحياة وتُبعثون بعد موتكم من جديد⁽¹⁷⁵⁾.

سورة الفجر .

• قال تعالى: (والفجر . وليالٍ عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل في ذلك قَسَمَ لذي حِجْر)⁽¹⁷⁶⁾.

المقسم به في هذه السورة أمور خمسة قال المفسرون في تفسيرها ودلالاتها أقوال عدة، إلا أننا نؤثر قول د. بنت الشاطي في تفسيرها (التفسير البياني)؛ لأن فيه لفت إلى ملاحظ بيانية هي أقرب مدلولاً في تفسير المقسم به، إذ أنه أقسام - جمع قسم - بمدركات حسية على أمور معنوية.

فالفجر - عندها - هو الفجر المعهود عند تبين الخيط الأبيض من سواد الليل، وهذا - أي الفجر - يحمل دلالة الانبثاق والانبعاث، يكون حسيّاً بشق متعمد، كما يكون تلقائياً كالانفجار، ومعنوياً في الفجر والانبعاث المجازي.

وليالٍ عشر، يكون اللفت بها إلى نزول القرآن فيها هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وبهذا تكون الليالي العشر مرتبطة بما قبلها وما بعدها من الفجر الصادق البازغ، نوراً ينسخ ظلمة الليل إذا يسري.

أما الشفع والوتر فهما ما يحملان من دلالة صريحة، لغةً ونصاً وسباقاً، على الأزواج والإفراد مع ملحظ فيهما من التقابل والتضاد.

وأما الليل إذا يسر فتعدّه ظاهرة أسلوبية عدل فيها البيان القرآني بالقَسَم عن أصل استعماله الأول للتعظيم، لملاحظ بلاغي هو اللفت بالواو إلى واقع حسّي مُدرك لا مجال للمهارة فيه، فهو عندها توطئة للإقناع بما هو موضع جدل أو ارتياب، من المعنويات والغيبات غير المدركة.

ومجمل القول في الأمور الخمسة المقسم بها في سورة الفجر - عند د. بنت الشاطي - أنها تراها لافتة لفتاً قوياً إلى صور مدركة من التقابل في الأضواء، ما بين الفجر وسري الليل، وفي العدد، أيان كان المحدود، من شفع ووتر. وأنها توطئة بيانية لما يتلو من آيات محكمات فيها تقابل بين الابتلاء بالقوة وبالغنى وبالنعمة أو بالفقر والحرمان، وما يُظنّ معهما من إكرام أو إهانة، في التقابل في المصير ما بين عذاب

الطاغين المغرورين، ونعيم النفس مطمئنة⁽¹⁷⁷⁾، وهو ما تشير إليه الآيات التي أعقبت آيات الأقسام .

أما قوله تعالى بعد هذه الأقسام: (هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْرٍ)، معناه (هل في ذلك تحقيق لما أقسم عليه للسامع الموصوف بأنه صاحب حجر)⁽¹⁷⁸⁾، أي صاحب عقل يتدبر بعقله أن ما أقسم به تعالى قَسَمٌ كافٍ ومقنع للمقسّم له.

المقسّم عليه محذوف يدل عليه سياق الآيات المعقبة لهذه الأقسام، وهو أنه تعالى أتى بهذه الأقسام لأجل وعيد الطاغين والفاستين والكافرين كما حلّ بقوم عاد وثمود من عذاب وإهلاك، وأن(حذف الجواب والإشارة إليه عن طريق التكنية أوقع وأكد في باب الإنذار والتبشير)⁽¹⁷⁹⁾.

أما مناسبة المقسم به المتعدد للمقسم عليه المحذوف فهي(أن مَنْ كان ذا لبٍّ، علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال عباده فلا يعزب عنه أحد ولا يفوته شيء من أعمالهم لأنه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم خصوصاً بالنظر إلى ما أدب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوة والمنعة)⁽¹⁸⁰⁾.

سورة الشمس.

• قال تعالى: (والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل

إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها. ونفسٍ وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاه. وقد خاب من دساها)⁽¹⁸¹⁾

أقسم تعالى بالشمس وانبساط ضوئها على الأرض، والقمر حال كونه تالياً للشمس، وبالنهار إذ أظهر الأرض للأبصار، وبالليل في حال تغطيته الأرض، وبالسماء وبانيها، وبالأرض والذي طحاها، وبنفسٍ والذي سواها أي أبدعها وخلقها⁽¹⁸²⁾، ثم أردف سبحانه فقال: (فألهمها فجورها وتقواها)، أي أنه تعالى عزّف النفس الإنسانية صفة فعلها من تقوى أو فجور وميّز لها ما هو تقوى مما هو فجور⁽¹⁸³⁾.

المقسم عليه إما أن يكون جملة (قد أفلح من زكّاه. وقد خاب من دساها)، فيكون المقسم عليه هو تحقيق فلاح المؤمنين بسبب تركيبتهم لأنفسهم، وخيبة

المشركين بسبب تدسييس أنفسهم، لأن (التزكية هي الإتمام والإعلاء بالتقوى... والتدسية هي النقص والإخفاء بالفجور)⁽¹⁸⁴⁾.

والصلة على هذا بين المقسم به والمقسم عليه هي أنه تعالى أقسم بهذه الآيات المتعددة التي فيها نعم الله لعباده والمسببة لاستمرارية عجلة الحياة، أقسم على فلاح الإنسان المؤمن وطاعته لربّه وتزكيته لنفسه، وعلى خيبة وخسران الإنسان المشرك ومخالفته أوامر ربّه وإيلاجه نفسه في الفجور.

وقيل يجوز أن تكون جملة (قد أفلح...) معترضة بين القسم وجوابه، وجملة (كذّبت ثمود بطغواها)⁽¹⁸⁵⁾ جواباً للقسم (باعتبار ما فُرِعَ عليها بقوله: فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، أي حقاً لقد كان ذلك لذلك، ولام الجواب محذوف تخفيفاً لاستطالة القسم)⁽¹⁸⁶⁾ وعلى هذا تكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه أنه تعالى أقسم بهذه الأقسام التسعة المتضمنة للخالق ومخلوقاته من أجل (التعريض بتهديد المشركين الذين كذبوا الرسول طغياناً هم يعلمونه من أنفسهم كما كذّبت ثمود رسولهم طغياناً، وذلك هو المحتاج إلى التأكيد بالقسم... فكأنه قيل: أقسم ليصيبكم عذاب كما أصاب ثمود، ولقد أصاب المشركين عذاب السيف بأيدي الذين عادوهم وأذوهم وأخرجوهم، وذلك أقسى عليهم وأنكل)⁽¹⁸⁷⁾.

سورة الليل.

• قال سبحانه: (والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلّى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى)⁽¹⁸⁸⁾.

المقسم به الليل في وقت غشيانه، والنهار وقت تجلّيه، وخالق الذكر والأنثى على اختلاف صنفيهما من ذكر وأنثى. المقسم عليه (إن سعيكم لشتى) أي اختلاف سعي الإنسان في حياته الدنيا وجزاؤه في العقبى.

سياق الآيات يظهر أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه علاقة تقابل وتفاوت، فعلى ما يتفاوت الليل إذا يغشى بظلماته، والنهار إذا تجلّى بضياءه، وما يتفاوت الذكر والأنثى، يتفاوت سعي الإنسان في الدنيا بين ضلال وهدى، وهذا ما أكدته الآيات اللاحقة في أعطى واتقى وصدّق بالحسنى، ومن بخل واستغنى وكذّب بالحسنى، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الحياة الآخرة بين الأنقى الذي يسره تعالى

لليسرى ويجنب النار التي تلتظى بعد أن اتقى ربّه الأعلى، وبين الأشقى الذي يبسره سبحانه للعسرى ويصلى النار التي تلتظى بعد أن كذّب وتولّى (189).

سورة الضحى.

• قال تعالى: (والضحى. والليل إذا سجى. ما ودّعك ربك وما قلى) (190).

ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أن الوحي انقطع عن النبي محمد أياماً فقال المشركون أنربّ محمد قد ودّعه وقلاه فنزلت السورة. وقد تناقلت أكثر كتب التفسير هذا السبب.

المقسم به شيان هما: الضحى، أي وقت انبساط نور الشمس، والليل إذا سجى، أي إذا سكن. فأقسم سبحانه بالضحى لمناسبته الوحي في نزوله، وأقسم بالليل إذا سكن لمناسبته احتباس الوحي أو فتوره.

المقسم عليه (ما ودّعك ربك وما قلى)، أي ما تركك ربك يا محمد، وفيه نفي من الله تعالى أن يكون قد ترك نبيّه المصطفى، ثم أردف سبحانه بواو العطف، قائلاً: (وما قلى)، أي وما أبغضك.

ومن تأمل سياق السورة المباركة يجد العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة جلية في (مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فائق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم) (191).

والى مثل هذا ذهب د. بنت الشاطئ في تفسيرها البياني لسورة الضحى في تلمس العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه إذ تقول: (المقسم به في آيتي الضحى، صورة مادية وواقع حسي، يشهد به الناس في كل يوم تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجى وسكن، دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحاليين

عليه ما يبعث على إنكار بل دون أن يخطر على بال أحد، أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة، بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فأى عجب في أن يجيء، بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم، فترة سكون يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق⁽¹⁹²⁾.

سورة التين.

• قال تعالى: (التين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين)⁽¹⁹³⁾.

كثرت أقوال المفسرين في التين والزيتون، فقيل المراد بها (الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمة والخواص النافعة، وقيل المراد بهما الشجرتان التين والزيتون، وقيل المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، ولعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما ولعل الإقسام بهما لكونهما مبعثي جم غفير من الأنبياء وقيل غير ذلك)⁽¹⁹⁴⁾.

المقسم به هو التين والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين، أي أن الله تعالى أقسم (بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكبيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتيهما: وهو أرض بيته المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً... وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه، ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم تلى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه)⁽¹⁹⁵⁾.

فالأشياء المقسم بها. إذن - هي أماكن مبعث الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام)، ومبعث رسالاتهم اليهودية والمسيحية والإسلامية.

المقسم عليه (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أي بداية خلق الإنسان على أفضل وأحسن تقويم معنوي خلقي، ف(التقويم جَعَلَ الشيء ذا قوام، وقوام الشيء ما

يقوم به ويثبت، فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة⁽¹⁹⁶⁾، وبهذا يكون صالحاً لأن يعرج إلى الله سبحانه ويفوز عنده بحياة خالدة سعيدة لا شقوة فيها، ثم يكمل تعالى جواب قسمه، قائلاً: (ثم رددناه أسفل سافلين)، فمثلما أقسم على بداية خلق الإنسان وما جبل عليه من تقويم، أقسم على نهايته وأنه أسفل سافلين، وذلك حينما يخالف أوامر الله ونواهيه فيكون مقامه (مقام منحط هو أسفل من سفلى من أهل الشقوة والخسران ، والمعنى ثم رددنا الإنسان إلى أسفل من سفلى من أهل العذاب)⁽¹⁹⁷⁾ .

والمأمل جواب القسم يرى كيف ناسب تعالى بينه وبين المقسم عليه ، فهو تتاسب رائع لطيف وفيه ملاءمة بديعة، فأقسامه تعالى برسالاته وأماكن مظهر رسله كان على منهج الإنسان وطبيعته، وهي أنه مخلوق بأحسن تقويم فانقسم الناس تجاه الرسالات والرسل فريقيين فـ (الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)⁽¹⁹⁸⁾ ، ومن كفر وعصا وأبى التصديق بالرسالات والرسل فهو مردود (أسفل سافلين).

الخاتمة:

لعل قارئ هذه الصفحات التي تناولت العلاقة السياقية بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم تطبيقاً سبق بمهاد نظري استوجب تناول ما له صلة بالبحث ، لعله يجد فيها ما يفيد ؛ كونها تناولت أسلوب القسم في النص القرآني وفاق المنهج السياقي وقدمته بين يديه متلقياً ليقف على سرّ من أسرار إعجاز هذا النظم البياني المنفرد .

ولعلنا - في كتابة هذه الصفحات - نكون قد وفقنا في وضع خطوة تبعت خطوات من تقدمنا في طريق البحث والدراسة في كتاب لا ينضب وان جُهدَ فيه الدارسون، ذلك هو كتاب الله الخالد، القرآن الكريم. والله ولي النعمة ومنه التوفيق.

الهوامش:

- 1 . الصحاح: 2 / 1138 - 1139.
- 2 . أساس البلاغة: مادة (سَوَّقَ): 1 / 232.
- 3 . لسان العرب: مادة (سَوَّقَ): 10 / 166.

- 4 . المعجم الوسيط: 1 / 963 .
- 5 . ينظر: البحث الدلالي عند الأصوليين: 28.
- 6 . معجم المصطلحات اللغوية والأدبية: 83.
- 7 . المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث: 116.
- 8 . ينظر الدلالة السياقية عند اللغويين: 52.
- 9 . منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص): 331.
- 10 . العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية في الأحاديث القدسية الشريفة: 152.
- 11 . ينظر: م . ن: 152.
- 12 . منازل الرؤية: 20.
- 13 . ينظر: بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية: 49 .
- 14 . العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية: 153.
- 15 . ينظر: م . ن: 153.
- 16 . بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية: 49.
- 17 . المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية: 129.
- 18 . العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية : 155 .
- 19 . ينظر: م . ن: 156 . 157.
- 20 . نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصا): 12.
- 21 . ينظر: علم لغة النص: 221 . 222.
- 22 المخصص: 13 / 11 .
- 23 . لسان العرب: مادة (قَسَم): 12 / 478 .
- 24 . مباحث في علوم القرآن (للقطان): 291.
- 25 . النحل / 38.
- 26 . الليل / 1.
- 27 . الأنبياء / 57.
- 28 . ينظر: التبيان في أقسام القرآن: 8 ، ومباحث في علوم القرآن (للقطان): 291.
- 29 . ينظر: التعبير الفني في القرآن الكريم : 247.
- 30 . إمعان في أقسام القرآن: 15.
- 31 . ينظر: م . ن: 12.

32. ينظر: إمعان في أقسام القرآن: 13، والتعبير الفني في القرآن الكريم: 248.
- 33 . ديوان زهير: 106.
- 34 . آل عمران / 112.
- 35 . البقرة / 2260.
- 36 . ينظر: إمعان في أقسام القرآن: 14.
- 37 . الإتيان في علوم القرآن: 2 / 46.
- 38 . آل عمران / 18.
- 39 . يونس / 53.
- 40 . ينظر: الإتيان في علوم القرآن: 2 / 46.
- 41 . الكشف والبيان في علوم القرآن: 289 - 290.
- 42 . الذاريات / 22 - 23.
- 43 . الإتيان في علوم القرآن: 2 / 46.
- 44 . الكتاب: 2 / 293.
- 45 . م . ن . 2 / 293 (من شواهد سيبويه).
- 46 . المغني: 143.
- 47 . ينظر: القسم في القرآن الكريم - تركيباً ودلالة: 17، وأسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم - بلاغته وأغراضه: 14.
- 48 . فاطر / 42.
- 49 . الأعراف / 16.
- 50 . المائدة / 53.
- 51 . البيت نسبه ابن منظور إلى غوية بن سلمى ، اللسان: 15 / 443، وهو في شرح المفصل بلا نسبة: 8 / 34.
- 52 . ديوان ابن قيس الرقيات: 137.
- 53 . الكتاب: 2 / 293.
- 54 . الحجر / 72.
- 55 . شرح جمل الزجاجي: 1 / 544.
- 56 . التبيان في أقسام القرآن: 7.
- 57 . آل عمران / 191.

- 58 . الشمس / 7 . 8 .
59 . القيامة / 2 .
60 . ينظر: القسم الظاهر قي القرآن الكريم: 12 .
61 . شرح جمل الزجاجي: 1 / 549 .
62 . التكاثر / 5 .
63 . ينظر: التبيان في أقسام القرآن: 7 . 8 .
64 . القيامة / 1 - 2 .
65 . القيامة / 3 وما بعدها .
66 . ينظر: مباحث في علوم القرآن (للقطان): 293 - 294 .
67 . يوسف / 85 .
68 فاطر / 42 .
69 . الذاريات / 7 - 8 .
70 . التراكيب اللغوية في العربية: 239 .
71 . م . ن . 240 .
72 . آل عمران / 18 .
73 . مباحث في علوم القرآن (للقطان): 293 .
74 . مريم / 71 .
75 . مريم / 68 - 70 .
76 . ينظر: أسلوب القسم في القرآن الكريم: 2 . 3 .
77 . النحل / 56 .
78 . النحل / 51 .
79 . التحرير والتنوير: 14 / 181 .
80 . النساء/85 .
81 . يونس / 53 .
82 . يونس / 52 .
83 . التحرير والتنوير: 11 / 195 .
84 . م . ن: 11 / 196 .
85 . المصدر نفسه .

- 86 . المعارج / 40 - 41.
- 87 . ينظر : التحرير والتنوير: 29 / 179.
- 88 . تفسير الميزان: 20 / 24.
- 89 . المصدر نفسه.
- 90 . المصدر نفسه.
- 91 . التبيان في أقسام القرآن: 129 - 130.
- 92 . الحجر / 71 - 73.
- 93 . التحرير والتنوير: 14 / 67.
- 94 . م . ن: 14 - 68.
- 95 . تفسير الميزان: 12 / 183.
- 96 . يس / 2 - 3.
- 97 . تفسير الميزان: 17 / 63.
- 98 . ق / 1.
- 99 . ينظر : مفردات الراغب: 2 / 366.
- 100 . التحرير والتنوير: 26 / 276.
- 101 . التبيان في أقسام القرآن : 284.
- 102 . الزخرف / 1 - 3.
- 103 . الدخان / 13.
- 104 . التحرير و التنوير: 25 / 159.
- 105 . م . ن: 25 / 277.
- 106 . م . ن: 25 / 159.
- 107 . الأقسام في القرآن الكريم: 68.
- 108 . النجم / 1 - 4.
- 109 . ينظر: التحرير و التنوير: 27 / 92 . 93.
- 110 . م . ن: 27 / 92 . 93.
- 111 . الواقعة / 75 - 78 .
- 112 . التحرير و التنوير: 39 / 338.
- 113 . التفسير البياني: 1 - 166.

114. م . ن .
115. التبيان في أقسام القرآن: 147.
116. م . ن: 146.
117. ينظر: م . ن: 146.
118. م . ن: 146.
119. م . ن: 167.
120. العصر / 1 - 3.
121. جامع البيان في تأويل القرآن: 24 / 60، والتبيان في أقسام القرآن: 57 .
122. تفسير الميزان: 20 / 409.
123. الآيات على التوالي: الضحى / 1 - 2، والمدثر / 34.
124. ينظر: التحرير والتتوير: 30 / 529 - 530.
125. التفسير البياني: 2 / 80 ، وينظر: 2 / 75.
126. التبيان في أقسام القرآن: 57 - 58.
127. الذاريات / 7 - 9.
128. التبيان في أقسام القرآن: 190.
129. التحرير والتتوير: 26 / 340.
130. التبيان في أقسام القرآن: 191.
131. الصافات / 1 - 4.
132. تفسير الميزان: 17 / 123.
133. ينظر: التبيان في أقسام القرآن: 285.
134. التحرير والتتوير: 23 / 83 .
135. الصافات / 4 - 5 .
136. التبيان في أقسام القرآن: 286..
137. الطور / 1 - 8 .
138. ينظر: التحرير والتتوير: 27 / 37 - 39.
139. ينظر: التبيان في أقسام القرآن: 179.
140. م . ن: 175.
141. الحاقة / 38 - 43.

142. التحرير والتنوير: 29 / 140 - 141.
143. الكشاف: 568 .
144. تفسير الميزان: 19 / 420.
145. م . ن : 19 / 420.
146. المدثر / 32 . 37.
147. ينظر: التحرير والتنوير: 19 / 321.
148. المدثر / 31.
149. التبيان في أقسام القرآن: 78..
150. المرسلات / 1 - 7.
151. ينظر: التحرير والتنوير: 29 / 419 - 421 ، وتفسير الميزان: 20 / 159 - 160.
152. التبيان في أقسام القرآن: 97.
153. تفسير الميزان: 20 / 160.
154. التحرير والتنوير: 29 / 419.
155. تفسير الميزان: 20 / 161.
156. النازعات / 1 - 9.
157. ينظر : تفسير الميزان: 20 / 195 - 196 ، والتحرير والتنوير: 30 / 61 - 62 ،
والتفسير البياني: 1/123
158. ينظر: التبيان في أقسام القرآن: 91.
159. تفسير الميزان: 20 / 198 - 199..
160. التبيان في أقسام القرآن: 93.
161. التحرير والتنوير: 30 / 65 - 66..
162. الانشقاق / 16 - 21.
163. مفردات الراغب: 1 / 545.
164. التبيان في أقسام القرآن: 74.
165. ينظر: تفسير الميزان: 20 / 274.
166. التبيان في أقسام القرآن: 76 - 77..
167. الطارق / 1 - 4.
168. الطارق / 11 - 14.

169. التبيان في أقسام القرآن: 68.
170. القسم في القرآن - تركيباً ودلالةً : 112.
171. انظر على سبيل المثال لا الحصر: جامع البيان للطبري ، ومعالم التنزيل للبغوي ،
والتحرير والتتوير لابن عاشور ، ومجمع البيان للطبرسي ، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي .
172. الطارق / 8 - 9.
173. المؤمنون / 35.
174. المؤمنون / 82.
175. من أسرار القسم في القرآن الكريم: 566 .
176. الفجر / 1 - 5.
177. ينظر: التفسير البياني: 2 / 126 ، 129 ، 132 ، 134 - 135.
178. التحرير والتتوير: 30 / 316.
179. تفسير الميزان: 20 / 317.
180. الأقسام في القرآن الكريم: 158.
181. الشمس / 1 - 10 .
182. ينظر: تفسير الميزان: 20 / 337 - 338.
183. ينظر: م . ن: 20 / 338.
184. الأقسام في القرآن الكريم: 171.
185. الشمس / 11.
186. التحرير والتتوير: 30 / 372.
187. م . ن: 30 / 372.
188. الليل / 1 - 4.
189. ينظر: التفسير البياني: 2 / 103.
190. الضحى / 1 - 3.
191. التبيان في أقسام القرآن: 50.
192. التفسير البياني: 1 / 26.
193. التين / 1 - 4.
194. تفسير الميزان: 20 / 364 - 365.
195. التبيان في أقسام القرآن: 32 - 33.

196. تفسير الميزان: 20 / 365.

197. م . ن: 20 / 366.

198. التين / 6.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم .

▪ أساس البلاغة - أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري (ت 538هـ) - دار الفكر - لبنان - 1399 هـ .

▪ أسرار القسم في القرآن الكريم (بحث) - د. سليمان بن علي - مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها - ج / 19 - ع / 31 - رمضان - 1425 هـ .

▪ أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم / بلاغته وأغراضه - د. سامي عطا حسن - منشورات جامعة أهل البيت - المفرق - المملكة الأردنية الهاشمية .

▪ إمعان في أقسام القرآن - عبد الحميد الفراهي - المطبعة السلفية ومكنتبتها - القاهرة - 1349 هـ .

▪ الإتيان في علوم القرآن - تأليف الإمام جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ) - تحقيق: محمد

أبو الفضل إبراهيم - ضبطه وصححه وخرّج أبياته : محمد سالم هاشم - الناشر : فخر الدين - قم - إيران .

▪ الأقسام في القرآن - العلامة المحقق جعفر السبحاني - ط / 1 - مطبعة الاعتماد - قم - 1420 هـ . ق .

▪ البحث الدلالي عند الأصوليين - محمد يوسف حبلى - ط / 1 - مكتبة عالم الكتب - 1411 هـ - 1991م .

▪ التبيان في أقسام القرآن - لابن القيم الجوزية (ت 751 هـ) - مكتبة المنتبي - القاهرة .

▪ التراكيب اللغوية في العربية / دراسة وصفية تطبيقية - د. هادي نهر - ط / 1 - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع - عمان - الأردن - 2004 م .

▪ التعبير الفني في القرآن الكريم - د. بكرى شيخ أمين - ط / 1 - دار العلم للملايين - بيروت - 1994 م .

▪ التفسير البياني للقرآن الكريم - د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - ج / 1 - ط / 7 وج / 2 - ط / 5 - دار المعارف - ج . م . ع - 1990 /

- التناسب بين القسم المفرد وجوابه في القرآن الكريم (بحث) - د. ناصر بن محمد آل عشوان - مجلة الدراسات القرآنية ع / 6 - جمادى الأولى/ 1431 هـ - مايو/ 2010 م
- الدلالة السياقية عند اللغويين - د. عواطف كنوش مصطفى - ط / 1 - دار السياح للطباعة والنشر والتوزيع - لندن - 2007 م .
- العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية في الأحاديث القدسية (بحث) - د. عبد المهدي هاشم الجراح - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني - الأردن - 2003 م .
- القسم في القرآن الكريم / تركيباً ودلالةً (رسالة ماجستير) - عبدالله علي الهتاري - كلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن - 1999 م .
- الكتاب - لأبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر سيويوه (ت 180هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - ط / 1 - دار الجيل - بيروت .
- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ) - دار الكتاب العربي - 1947 م .
- الكشف والبيان في علوم القرآن - د. سمير عبد العزيز شليوة - مطبعة دار البيان بمصر المخصص - ابن سيده - المكتب التجاري - بيروت .
- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث - محمد أحمد أبو الفرج - ط / 1 - دار النهضة العربية - 1966 م
- المعجم الوسيط - إبراهيم مصطفى وآخرون - دار المعارف بمصر .
- المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية - وليم راي - ترجمة : يوثيل يوسف عزيز - ط / 1 - دار المأمون - بغداد - 1987 م .
- الميزان في تفسير القرآن - العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي - ط / 1 - مؤسسة الأعلمي للطبوعات - 1417 هـ - 2000 م .
- بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية - المنصف عاشور - تونس - جامعة تونس - 1991 م .
- تاج اللغة وصحاح العربية - إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 1002هـ) - تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار - ط / 4 - دار العلم للملايين - بيروت - 1990 م .
- تحرير المعنى السديد وتווير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد - محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393 هـ) - الدار التونسية للنشر - تونس .

- ديوان زهير بن أبي سلمى - شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور - ط / 1 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1408 هـ - 1988 م .
- ديوان عبد الله بن قيس الرقيات - طبع دار بيروت الطباعة والنشر .
- شرح المفصل - موفق الدين بن يعيش بن علي بن يعيش - عالم الكتب - بيروت .
- شرح جمل الزجاجي - ابن عصفور الإشبيلي (ت 669هـ) - قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : فواز الشعار - إشراف : د. إميل بديع يعقوب - ط / 1 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1419 هـ - 1998 م .
- علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) - سعيد حسن بحيري - ط / 1 - الشركة المصرية العالمية للنشر - مكتبة لبنان - 1997 م .
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور (ت711هـ) - دار صادر - بيروت - 1374 هـ .
- مباحث في علوم القرآن - مناع القطان - ط / 2 - مؤسسة الرسالة - بيروت - 1407 هـ - 1986 م .
- مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - دار القلم - دمشق .
- معالم التنزيل - أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت516هـ) - حقق وخرج أحاديثه: محمد بن عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان مسلم الحرش - ط / 4 - دار طيبة للنشر والتوزيع - 1417 هـ - 1997 م .
- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية - د. عليّة عزت - دار المريخ للنشر - الرياض - 1984 م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب جمال الدين بن هشام الأنصاري - تحقيق : مازن المبارك وزملاؤه - ط / 6 - دار الفكر - بيروت .
- منازل الرؤية / منهج تكاملي في قراءة النص - د. سمير شريف ستيّية - ط / 1 - دار وائل للنشر - أربد - الأردن - 2003م .

الكتابة التوثيقية في الرواية العربية المعاصرة

رواية (مصائر) لربيعي المدهون أنموذجا

د. عبد الرحمان بن يظو جامعة محمد بوضياف - المسيلة

الملخص :

يمكن أن نصنّف رواية " مصائر " للروائي الفلسطيني ربيعي المدهون (*) ضمن أدب النكبة، فهي تُشكّل حالة سردية استثنائية في الرواية العربية المعاصرة لأنها تغترف من التاريخ العربي الفلسطيني منذ أن وطئ المحتلون اليهود أرض فلسطين إلى غاية مفاوضات أوسلو وما بعدها، ومن جهة أخرى اشتغل الكاتب على السرد التوثيقي الذي حشد له كثير من الشواهد التاريخية التي توثق للأحداث الفلسطينية بدقة، وقد ابتكر المدهون طريقة مستحدثة، وهي تتمثل في أربع حركات؛ بحيث يسرد لنا في كلّ حركة قصة تبدو لنا في البداية وكأنها منفصلة عن الأخرى ولكن تلتقي جميعها في الأخير في تناغم وفي غير نشاز، تماما مثل الفرقة الموسيقية (الأوركسترا)

Résumé

Nous pouvons décrire les «Destinées» du romancier palestinien Robie Madhoun dans la littérature de la disgrâce. C'est un cas narratif exceptionnel dans le roman arabe contemporain car il s'inspire de l'histoire arabe palestinienne depuis que les occupants juifs ont piétiné la terre de Palestine jusqu'aux négociations d'Oslo et au-delà de ces négociations ; d'autre part, l'écrivain a travaillé avec précision sur le récit documentaire dont il a recueilli beaucoup de preuves historiques documentant les événements palestiniens, Madhoun a conçu un moyen novateur, qui consiste en quatre mouvements ; dans chaque mouvement, il nous raconte une histoire qui nous semble d'abord séparée les unes des autres, mais elles convergent vers

la dernière en harmonie et en non dissonance, tout comme l'orchestre.

عند صدور رواية " المصائر ، كونشرتو الهولوكوست والنكبة " في بيروت عام 2015 ، فوجئ صاحبها في العام الموالي بفوز روايته بالجائزة العالمية للرواية (البوكر) في نسختها العربية ، وأثارت هذه الرواية كثيرا من النقاش النقدي الأدبي والجدل السياسي؛ لكونها تشكّل نوعا من التّطبيع مع الكيان الإسرائيلي ، وهي رواية ؛ كتبت تحت تأثير اللغة الإعلاميّة لأنّ صاحبها أحد الأعلام الصحافية العربية المهاجرة في بريطانيا ، ولذا نلاحظ استبدال اللغة الإعلاميّة وما تقتضيه من أسلوب مباشر ومواضيع تسجيلية تنحى منحى التّحقيق الصحفي أكثر من السرد الروائي الذي تتحكّم فيه اللغة الأدبية من جهة وعنصر التّخييل كمادّة أساسيّة وحيويّة متوهّجة في إنتاج الفعل السردّي إذ من المفترض " أنّ السرد لا يسجل واقعا ، بل يقوم بتركيب عوالم متخيلة مناظرة للعوالم الواقعيّة " (1)

ولذا سعى الكاتب في روايته قدر الإمكان أن يُزاح بين تقنيات الكتابة الإعلاميّة والسرد الروائيّ بعيدا عن الأشكال الحكائيّة المتوارثة ، وبهذه الطريقة في تقديري تراجع منسوب التّخييل ليتيح المجال إلى الكتابة تحت سطوة الذاكرة الإعلاميّة كمحفّز تظهر مؤشرات من البداية، ولكن لا ضير في ذلك مادام السرد هو " فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبيّة أو غير أدبيّة " (2)

وحاول المدهون أن يقتحم الذاكرة المأهولة بالأوجاع الفلسطينية، من خلال سرد كرونولوجيّ لحياة عائلة فلسطينية كأنموذج للمعاناة؛ تعيش في الشّتات وترغب في العودة إلى الوطن، ومن هنا تعنّ ثنائيّة الهجرة و العودة التي تشكّلها جسا لا يفارق وجدان الإنسان العربي الفلسطيني ، ولجأ الكاتب إلى الاشتغال على السرد التاريخي الذي تبدأ حيثياته مع نكبة (48)،مرورا بنكسة (67) " حدث هذا بعد سنوات ، حين احتلّت إسرائيل في يونيو 1967 ، ما أجّلت احتلاله من باقي فلسطين عام 1948" (3) إلى غاية التّطبيع مع الكيان الإسرائيلي الذي توجب توقيع معاهدة أوسلو(النرويج) وما بعدها، حشد لها كمّ كبير من المعلومات التي يتقاطع فيها التاريخي بالسياسي بالاجتماعي ، ووظف أحيانا لغات متعدّدة ، إضافة إلى اللغة

العربية الفصحى ،اللهجة الفلسطينية واللغة العبرية والإنجليزية والفرنسية وحتى اللغة الروسية(4) و يمكن أن ندرج هذا العمل السردى ضمن إبداع النكبة ؛ بوصفها تعالج الواقع الفلسطيني الجريح ، " من حجم القمع تولدت الرواية الفلسطينية وإبداع النكبة والمقاومة"(5)، في ظل غياب نقاش حقيقي عن سؤال الهوية والانتماء ،لأن الرواية على حدّ تعبير الروائي المغربي عبد الكريم جلطي هي التفكير في الهوية بدون تساهل ، ومضمون الأحداث الروائية؛ يتأسس على أربعة مسارات استوحاها الكاتب من عالم الموسيقى أي من الحركات الأربع للكونشرتو، وهي لفظة تعني في اللغة اللاتينية القديمة " الكفاح " ، اجتهد صاحبها قدر الإمكان أن يعطينا انطبعا بأنها رواية تتدرّث بثوب صحفي أو تحقيق صحفي يتدرّث بثوب روائي ، وهذا طبعا للإمكانيات التي تضطلع بها الرواية وتميّزها عن غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى ، فهي "ظاهرة متعدّدة في أساليبها مُتنوّعة في أنماطها الكلامية ، متباينة في أصولها ، يقع الباحث فيها على عدّة وحدات أسلوبية غير متجانسة ، توجد أحيانا في مستويات لغوية مُختلفة ، وتخضع لقوانين أسلوبية مُختلفة."(6)

والطريقة الرباعية التي ابتكرها المدهون تبدو في الوهلة الأولى مختلفة في مساراتها ولكن في الأخير تلتقي و تتسجم وتتآلف ، توهم القارئ وكأنها مركّب قصصي غير متجانس كلّ عنصر مستقل عن غيره ولهذا استوحى نظام الأوركسترا الموسيقية لتعدّد عناصره ولكن في تناغم دون نشاز؛كالآتي :

الحركة الأولى :

وهذه الحركة تجري أحداثها أيام الانتداب البريطاني على فلسطين ، إذ تبدأ بقصة غرامية بين فتاة فلسطينية عكاوية من أصول أرمنية تدعى إيفانا أردكيان، وبين طبيب بريطاني، تتزوّجه وتتجب منه بنتا ثم تسافر معه إلى لندن عام (1948) وبعد عمر طويل وقبل وفاتها توصي إيفانا ابنتها جولي بحرق جثتها ؛ونشر جزء منها في نهر التايمز بلندن والجزء الآخر يدفن في عكا القديمة مسقط رأسها أو في القدس.(7)

والحركة الثانية :

وهي حكاية مركّبة من قصتين ، إحداهما تبدأ جنين دهمان تكتب روايتها (فلسطيني تيس) عن محمود دهمان اختار الهجرة مع عائلته من المجدل (عسقلان) إلى غزة أيام النكبة ، وجد نفسه ملاحقا من المخابرات المصرية يهرب سراً عائداً إلى المجدل ويترك خلفه عائلته ، ومن سوء حظه ترسم الحدود مع إسرائيل وغزة ؛ فوجد نفسه مُعلّقاً وتعدّر عليه العودة لأسرته الصغيرة ، يتزوج مرة أخرى ويعيش حياة جديدة ولكن تحت طائلة سياسة الأمر الواقع بمعنى آخر : فلسطيني في دولة تدعى (إسرائيل). (8)

الحركة الثالثة :

قرّرت جولي ابنة إيفانا أن تتنقذ وصية أمّها المتوفاة بمساعدة زوجها وليد دهمان فيسافران معا إلى فلسطين المحتلة ، وفي أثناء زيارتهما قام الاثنان بجولة في أنحاء البلاد وزارا كل من : حيفا ، وعكا ، ويافا ، والمجدل وعسقلان ،والقدس ، ومن خلال هذه الزيارة ؛ أحسّ كلّ واحد منهما بجاذبيّة خاصة وغير منتظرة نحو المكان وعطره الجذّاب فقّررا التّفكير في العودة النهائيّة والاستقرار في أرض الوطن ولكن هيهات. (9)

الحركة الرابعة :

يستحدث الكاتب مسوّغا ليمرّر خطابا تاريخيا وسياسيا ، من خلال زيارة وليد دهمان لمتحف (يد قشيم) في القدس ، الذي يؤرّخ للمحرقة النازية ضدّ اليهود في الحرب العالميّة الثّانيّة ، ويقارن وليد بينها وبين مجزرة دير ياسين التي ارتكبتها العصابات الصهيونيّة في حقّ الفلسطينيين الأبرياء عام 1948. (10) واليهودي الذي نجا من المحرقة النازيّة بالأمس ها هو اليوم يعاقب الفلسطيني البريء الذي لا ناقة ولا جمل في المحرقة و من هنا ، تحوّل الضحية إلى جلاّد، اشتغل المتن الروائيّ على كم هائل من المعلومات والأحداث التاريخيّة المؤثّقة بالتواريخ وكأنّه يريد بذلك ترتيب الذاكرة الفلسطينيّة، وهو يوجّه خطابه للمتلقّي المقصود بأمانة؛ يرافع من خلالها على ما لحق من ظلم وتأمّر على حقّ الشّعب الفلسطينيّ في الحياة على أرضه ، بأسلوب سرديّ لم تألفه الدائقة العربيّة المعاصرة ، والسرد في أحد أوجهه هو " نقل المعرفة ممن يعرف إلى مَنْ لا يعرف" (11)

وحاول المدهون أن يكتب هذه المرّة بلغة تتأى بنفسها عن اللغة الاستعارية التي تشكّل أحيانا عبئا على النصّ الروائي الواقعي إذ اختار البحث عن مسارات متوارية داخل اللغة الروائية نفسها ليمرّر خطابه المقصود بطريقة ما؛ نحو القارئ الواعي، فتأتي المعلومات تلاحق بعضها البعض لتضيء النص وتبدّد عوالمه المظلمة، "عالم من الوعي المتعدّد تعمد جوانبه المختلفة إضاءة بعضها البعض" (12)، تؤثّق لكثير من الأحداث الهامة المرتبطة تاريخيا بمنطقة الشرق الأوسط " .. بعد وصول جون إلى لندن في مايو 1948 ، عائدا من فلسطين وقد أصبحت إسرائيل" (13)، وهي حادثة مؤلمة تؤرّخ لاحتلال أرض فلسطين من طرف العصابات الإسرائيلية، بعد أن تأمر عليها العرب والعجم ، وها هي المدينة بدأت تفقد معالمها العمرانية و تطمس هويتها الثقافيّة بفعل التّهويد الذي لحق بأسواقها وشوارعها وجوامعها وكنائسها ودورها العريقة وحدائقها .مثل هذا الجامع الذي يتحدّث عنه الراوي قائلا: "عدت أتأمل ، بمرارة ، ما تبقى من الجامع الكبير الذي بناه الأمير المملوكي، سيف الدين سلار، عام 1300 مئذنة ترتفع قليلا عند زاويته اليسرى مثل منارة قديمة هجرتها السفن وبضع قباب بدت طاقيات من الصوف شاحبة اللون وقد تأكل وبرها." (14)

ثم يتحوّل السارد ليحدثنا على صورة تشكّل خطأ إستراتيجي ارتكبه أهل فلسطين في حقّ وطنهم والمتمثل في هروب سكان البلدة من بيوتهم وتركوها عرضة لليهود الغزاة ليشغلوها وتصير من ممتلكاتهم وفي هذا السياق يقول الراوي: " دخلنا البيت الذي كان لنا قبل سقوط المجدل عسقلان في أيدي القوات الإسرائيلية بتاريخ 4 نوفمبر 1948 ... والسوق القريبة بعد أن هجر أصحابه ، وصار مُشاعا لمن يسرقه بمبادرة شخصية، أو تسرقه له الوكالة اليهودية التي وزعت الغنائم من أملاكنا ، بعد احتلال المدينة، على بعض العائلات اليهودية المهاجرة." (15) ، وامتدت الرواية تسرد الأحداث العربية والإقليمية التي على علاقة بالفلسطينيين كاحتلال العراق للكويت وما ترتّب عنه من مآسي للجالية الفلسطينية المقيمة في الكويت " أخبرتني جنين ، بأنّ زكريا عمل في الكويت منذ ستينات القرن الماضي حتى حرب الخليج الثانية عام 1991 في أغسطس من العام نفسه." (16) ولم يكتف الكاتب بذلك بل راح يفنّش عن كلّ متعلّقات الشعب الفلسطيني ليذكره في الرواية كقوله مثلا عن الشرخ السياسي

بين حماس وفتح " ويشمل ذلك من سقطوا في تصفية حسابات سياسية وحزبية داخلية بين جناحي العائلة الحمساويّ والفتحاويّ" (17)

أو كالإتيان على ذكر الانتفاضة الفلسطينية التي دوت العالم وعرفت إعلاميًا بأطفال الحجارة نسبة إلى السلاح السلمي والبسيط الذي استعمله الأطفال ولم يتركوا بذلك مبررا للجيش الإسرائيلي لكي يفرض في استعمال القوّة " ثم أخذتني إلى الانتفاضة الثانية التي انطلقت في 28 سبتمبر 2000" (18)

ومن الروائيين الفلسطينيين الذين خصّهم المدهون بالذكر صاحب رواية (المتشائل)؛ إميل حبيبي (1921.1996) الذي أوصى أن يُكتب على قبره (أنا باقي في حيفا) والمتحصّل على الجائزة التّقديرية في الأدب التي تقدّمها الدّولة العبرية للمبدعين ، وربما نال هذا التّويج لأنه كان من المنخرطين في اليسار الإسرائيلي كغيره من الشباب الفلسطيني الذين يعيشون في الخط الأخضر ويحملون الجنسية الإسرائيليّة. "وعندما نال إميل حبيبي جائزة الدولة الإسرائيليّة للأدب عام 1992 وتسلمها من الرئيس الحكومة آنذاك إسحاق شامير في احتفال رسميّ بهي" (19) ولم ينس الكاتب أن يشير إلى القدرات النووية الإسرائيليّة في المنطقة ، والتي تتكرها إسرائيل دوما في المحافل الدّولية كمفاعل (ديمونة) في صحراء النقب "وصارت تأتيها الرياح من خمس جهات وما بينها ، محملة بكلّ أنواع الغبار بما فيه النووي المحلي الذي قد يأتي من مفاعل (ديمونة) في النقب" (20)

وفي نفس السياق فضح الكاتب الخطاب العربي الرسمي المزيف و انتصارات جيوشه الكاذبة على الجيش الإسرائيليّ ، والدليل على ذلك ما حققته إسرائيل على الأرض من توسعة جغرافية على حساب الدول المجاورة بضمها لهضبة الجولان السورية وصحراء سيناء المصريّة . " ما أطول البلاد ، زاد عام 1967 بهضبة الجولان في الشمال الشرقي ، وبقطاع غزة وسيناء جنوبا" (21)، ومن المشاهد الجميلة المرتبطة بالمكان الفلسطيني هذا الوصف الذي استوقف عنده الكاتب مُعنا في وصف طبيعة فلسطين الخلّابة ، فهي ليست أرض للنزاعات فقط بل لها جانبها الجمالي الذي حباها به الله سبحانه وتعالى من جبال وأنهار وغابات وسفوح ؛و كلّ أنواع النباتات والخيرات الأخرى التي يتمتع بها الإنسان الفلسطيني المقهور في أرضه

ووطنه تضاف إليها الذكريات الجميلة التي بقيت منقوشة في الذاكرة الفلسطينية ،
ومهما يكن فإنّ فلسطين تسكن في وجدان أبنائها ، ولا يمكن لإرادة المحتل الغاصب
أن تحتثها .

"واصلت السيارة صعود الهضاب القريبة المشجرة وهبوطها أخذتنا إلى ماضيها
الذي كان حاضرنّا، عندما كانت أرضها كصدر ثوب فلاحات بلادنا، مطرزة
بالزعرتر، والعكوب والبرقوق، وعصا الراعي، والسوسن، وقرن الغزال، وسيف القمح ،
والزعفران بأنواعه ، وترمس الجبال وكانت أشجار السنديان ، والخروب والمل ،
والملول ، والبطم بأنواعه ، والسيال ، والسدر ، وقاتل أبيه ، وعروس الغاب
والصفصاف والزعرور والذلب ، تزّين سفوحها ، بينما تحمل نسائمها روائح نباتات
تدعو المارة والعابرين إلى الصعود لجمع أوراقها." (22)

ويعود مرّة أخرى وينتدّر بمرارة تاريخ احتلال فلسطين وما لحق به من مجازر ضدّ
الإنسانيّة الفلسطينيّة كمجازر (دير ياسين) ؛ راح ضحيتها فلسطينيون أبرياء غدرا من
طرف العصابات الصهيونيّة الغازيّة "دير ياسين هي المذبحة اللي غيّرت التاريخ
ورسمت الملامح القاسيّة لنكبة 1948" (23)

كما يذكّرنا الكاتب مرة أخرى بزيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل في
سبعينيّات القرن الماضي والتي فتح بها المجال واسعا للتطبيع مع إسرائيل. " حين
نزور المدينة وننزل ، بعد أيام ، نزل الرئيس المصري السابق ، محمد أنور السادات في
زيارته لحيفا عام 1978" (24)، في الأصل أنّ الأكل واللباس من المقتضيات
الوظيفية في الحياة ، ولكن قد يتجاوزان وظيفتها لتتحوّل إلى قيمة ثقافيّة ترتبط
بهوية الأمة التي تنتسب إليها مثل أكلة (الكنافة) التي يشتهر الشعب الفلسطيني عن
غيره من الشعوب العربيّة .

" (أكم صينية كنافة بتعملو في اليوم يا معلم)؟

سألّت الشاب الأسمراني الذي فتل قدوم الكنافة عضلاته" (25)، ومن الأمور التي
تميّز الثقافة اليهوديّة في العالم كثرة الخرافات والأساطير التي توثّت المجتمع
الإسرائيلي ؛ طبعا والمستمدّة من نصوصهم المقدّسة كالتلمود والتوراة ومن ذلك قول
وليد لإيفانا في حفل تنفيذ وصية والدتها : " أتعرفين أنّ اليهود يعتقدون بأنّ من تدفن

جنته في تلك البلاد ، يكون أول من يُبعث يوم القيامة حيا يوم ويكون في مقدمة المنتظرين على باب الجنة يوم القيامة" (26)

ومن المعتقدات اليهودية يوم عطلة السبت أيضا " أن دفع النقود أو تلقيها في عطلة السبت، يعد خطيئة عند المتدينين اليهود " (27)، وأشهر الخرافات التي تروج لها الأساطير الإسرائيلية ، هو قصة الهيكل المزعوم التي يعتقد اليهود أنه موجود في أسفل الأقصى ، وحائط البراق الذي منه أعرج الرسول (ص) إلى السموات العلى حتى سدره المنتهى هو الآن (حائط المبكى) عند اليهود . " أخذني فضول غريب إلى التعرف على المكان الذي صار (حائط المبكى) ، يؤمه المتدينون اليهود ، ويكون خسارة الهيكل" (28)

هذا الكم من المعلومات التاريخية المتزاحمة ؛ أحيانا لا يمرر له، ويمكن يأتي في سياق الحشو؛ إذ نلاحظ أنّ الكاتب لم يترك خبرا أو معلومة سياسية متعلقة بفلسطين وإلاّ وذكرها فيجد القارئ نفسه وكأنه يقرأ في مجموعة من القصص الصحفية القديمة ، تُحم إقحاما داخل السياق ، وقد يُفسر أحيانا أنّ الكاتب دخل في مغامرة التجريب وما ينبثق عنه من رؤى وتصورات تقتضيها الذات المُبدعة، والتي تحفزها الرغبة المتأججة للتجديد. ومن هنا جاءت الحاجة إلى هذا التمازج الغريب بين المعلومات الإعلامية والسياسية والتاريخية والثقافية، لتكوّن في الأخير المشهد البانورامي للرواية التي تشكّل في وجهها الآخر خطابا موازيا، هو ما يسعى إليه صاحب المدونة حتى يتسنى له أن يمرر من خلاله رسائل متعدّدة للمتلقّي الفلسطيني المعني في المقام الأول بهذا الكلام .

الإحالات :

(*) . رواي فلسطيني مقيم بلندن، صدرت له رواية "مصائر، كونشيتو الهولوكست والنكبة" عام 2015 عن المؤسسة العربية للدراسات وحازت على الجائزة العالمية للرواية العربية عام 2016، وهي النسخة العربية لجائزة "البوكر" العالمية للرواية.

(1) جريدة الحياة، الموقع الإلكتروني: www. Alhayat.com بتاريخ 2017/09/23

(2) سعيد يقطين ، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) (المركز الثقافي العربي ، الدار

البيضاء ط1، 1991 ، ص46

- (3) ربيعي المدهون ، مصائر ، كونسرتو الهولوكست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2015 ، ص 120
- (4) ينظر: الرواية ، م س ، ص 191، 192
- (5) جابر عصفور ، زمن الرواية ، دار المدى ، ط 1 ، دمشق 1999 ، ص 13
- (6) ميخائيل باختين ، الكلمة في الرواية ، ترجمة يوسف حلاق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1988 ، ص 9
- (7) الرواية ، م س ، ص 13
- (8) الرواية، م س ، ص 71
- (9) الرواية، م س ، ص 139
- (10) الرواية ، م س ، ص 177
- (11) يمني العيد ، الموقع والشكل، (دراسة في السرد العربي)، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ط 1، 1986، ص 58
- (12) منيرة الفاضل، سرد الذات، إشكالية الهوية، مجلة ثقافات، كلية الآداب بجامعة البحرين ، المنامة ، ع 1، 2002، ص 90
- (13) الرواية ، م س ، ص 36
- (14) الرواية م س ، ص 55
- (15) الرواية م س ، ص 58
- (16) الرواية ، م س ، ص 124
- (17) الرواية ، م س ، ص 130
- (18) الرواية ، م س ، ص 133
- (19) الرواية ، م س ، ص 143
- (20) الرواية ، م س ، ص 144، 145
- (21) الرواية ، م س ، ص 133
- (22) الرواية ، م س ، ص 181 - (23) الرواية، م س ، ص 182
- (24) الرواية ، م س ، ص 185 - (25) الرواية ، م س ، ص 217
- (26) الرواية، م س ، ص 35 - (27) الرواية، م س ، ص 63
- (28) الرواية، م س ، ص 229

النصوص المحيطة في الرواية

بين المفهوم والإجراء

هند بوعود - جامعة خنشلة

الملخص:

يهتم هذا المقال بتعريف النصوص المحيطة في النقد الحدائثي، العربي والغربي على حد سواء وإبراز أهمية هذه العتبات بالنسبة للنص السردي، وفاعليتها في محاورة أفق انتظار القارئ، وإثارة اشتهاه لقراءة النص المركزي.

وبرهنت الدراسة على أن النصوص المحيطة تتنوع وتتعدد، بحسب وعي الكاتب لأهميتها وضرورتها، وقوة حضورها وتأثيرها في سياق المتن النصي من جهة، وبحسب حاجة المدون الروائي من جهة ثانية.

وتبين أن عتبات النص الروائي هي جملة من الوحدات الأيقونية واللغوية والإشارية والرموز، المشكلة للخطاب الروائي والمحاورة لأفق انتظار القارئ وإثارة اشتهاه لقراءة النص السردي، بل وتحرك فضوله وتدفعه بقوة لمعرفة تفاصيل أكثر تخص النص الحكائي.

فكل ما في الرواية له دلالة، أي إن كل ما يتضمنه العمل الأدبي له معنى معين ودور يقوم به، باعتبار أن ما يحيط بالنص عبارة عن علامات دالة على شيء ما، ذلك أن كل رواية تمتلك هويتها الخاصة، ولغتها المميزة، وأول ملامح هذه الهوية "العتبات النصية" وتعتبر المرفقات النصية المحيطة بالنص مفاتيح أساسية يستخدمها القارئ لسبر أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها، أي المداخل التي تتخلل النص المتن وتكمله وتتممه. فالعتبات تعتبر بمثابة البوابة الرئيسية للدخول قرانيا إلى النص الروائي وإدراك مواطن الجمال فيه.

الكلمات المفتاحية: النص المحيط، النصوص الموازية، العتبات، الهامش، المركز، وحدات أيقونية، الدلالة، المصطلح.

Résumé

A travers cet article nous aimerions mettre en exergue le concept « seuil » et la place qu'il occupe dans la critique littéraire moderne, arabe et occidentale, simultanées, et de faire ressortir l'efficacité de la « paratextualité » dans le texte narratif afin de susciter chez le lecteur le désir de vouloir découvrir avec engouement le contenu textuel de l'ouvrage.

Nombreuses sont les études qui ont démontrées la pluri-diversité du « seuil », selon son importance et les sensations cognitives de l'auteur ainsi que, selon sa prépondérance et son influence sur l'authenticité du texte et des exigences du romancier.

Cette étude démontre que la notion du seuil narratif se résume en un ensemble d'icônes linguistiques, de signes et symboles qui composent le discours narratif et suscite la convoitise du lecteur pour découvrir le roman.

Le roman est très riche en significations qui concourent tous pour constituer la personnalité et l'identité du texte, à savoir, la langue, la prose, les expressions, les signes, l'espace et le temps. Cet ensemble d'indices forment le « seuil textuel ».

Toutes les références qui accompagnent le texte sont considérées comme des mots clés utilisés par le lecteur pour se faire une idée sur le roman et ses orientations littéraires. Les seuils narratifs sont un préambule au texte pour apprécier la beauté du texte et ses lieux créatifs et novateurs.

تمهيد

عرف النقد العربي خلال العقود الماضية انشغالا كبيرا بالمؤثرات الخارجية للكتابة الإبداعية بعامة. فقد كان النقد الأدبي ينظر إلى الأثر الأدبي - إلى زمن قريب - في ضوء علاقته بأشياء تجاوز الأدب سواء أكانت تاريخية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو نفسية. وتبني هذه الرؤية النقدية على اقتناع الناقد بأن الكتابة الأدبية شكل من أشكال الاستتساخ لما هو خارج - أدبي.

غير أنّ هذه المقاربات النقدية، على الرّغم من تعدّد مناهجها واختلاف أهدافها، وتباين منطلقاتها الفلسفية (مناهج نفسية، تاريخية، اجتماعية...)، فإنّها تلتقي حول نقطة محورية مشتركة، وهي الحيرة الدائمة التي تلازمها حين تطرح عليها بعض الأسئلة المتعلقة بوصف العناصر والمكوّنات الداخلية لهذا الأثر الأدبي، أو تحديد نوعية العلاقات التي تربط هذه المكوّنات فيما بينها.

دعت هذه الانشغالات وغيرها إلى تطوير الرؤية النقدية تجاه النص الأدبي، لأنّ الرواية بوصفها نصا حكايا ينتج عن أفكار مختلفة ومتغيرة، ورؤى خاصة ومواقف فلسفية، تشكّل في ضوء رؤية موضوعية وفنية، ذات تشعبات شديدة التنوع والاختلاف يجسدها حرص الكاتب على إظهارها بالصورة المثلى، والتشكيل الجمالي المناسب، بما يتضمن عليه المشهد الروائي والتشكيل الفني من تقنيات سردية خاصة وآليات متنوّعة، تعمل على تشكيلها تشكيلا جماليا، وفق تمرّس يمنحها صياغة مميزة للألفاظ وأساليب وطرق لتوظيف اللغة، تعمق الأفكار، وتختزن في ذاكرتها صور الانصهار والتمازج الواضح في ثناياها وتقاسيمها وجزئياتها.

وتتدعّم بعد ذلك بوساطة شبكة من الإجراءات التي ينتمي بعضها إلى جوهر المتن النصي، ويحيط البعض الآخر بهذا المتن، ينمو على تخومه ويصاحبه حسب مجموعة من المتطلبات والاستحقاقات التشكيلية الضرورية لتشييد الهيكل العام، والعمارة النهائية لهيكلية الخطاب الروائي.

ومن التقنيات التي يحرص الكاتب على إبرازها وتفعيل أدواتها. عادة العتبات النصية، التي تتعدّد وتتنوع بحسب وعي الكاتب لأهميتها وضرورتها، وقوة حضورها وتأثيرها في سياق المتن النصي من ناحية. وبحسب حاجة المدوّن الروائي من ناحية أخرى.

1- مفهوم العتبة النصية:

وتمثل عتبات النص الروائي على جملة من الوحدات الأيقونية واللغوية والإشارية والرموز، المشكلة للخطاب الروائي، والمحاورة لاستثارة أفق انتظار القارئ، بل وتصيده بالمعنى البارتي للكلمة، بحيث يرى بأن "كل ما في الرواية له دلالة..."⁽¹⁾ ؛

أي إن كل ما يتضمّنه العمل الأدبي له دلالة، باعتبار أن ما يحيط بالنص عبارة عن علامات دالة على شيء ما، ذلك أنّ كل رواية تمتلك هويتها الخاصة وأسلوبيتها المميزة، ولا تسمح لأحد بالمرور داخل فضاءها الأسلوبي والوقوف على هذه الهوية المغلقة ما لم يمتلك أدوات معرفية معنونة في خصوصيتها وتفردّها، تؤهله لخوض هذه المغامرة التي تفتح أمامه أفقا مركزيا واسعا وعميقا من آفاق النص وعوالمه وفضاءاته. وأول ملامح هذه الهوية "العتبات النصية" ونعني بها شبكة " المرفقات النصية المحيطة بالنص التي تعدّ مفاتيح إجرائية أساسية يستخدمها الباحث لاستكشاف أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها، أي المداخل التي تتخلل النص المتن، وتكمله وتتممه"⁽²⁾.

يمكن عد هذه العتبات بمثابة البوابة الرئيسية للدخول قرائيا إلى النص الروائي، والتعرّف على متاهاته وإدراك مواطن جمالياته. فالعتبات هي التي " تسيج النص وتسميه وتحميه، وتدافع عنه وتميزه عن غيره وتعين موقعه في جنسه وتحدث القارئ على اقتنائه"⁽³⁾. فهي التي تحيط بالنص السردي فتمهد له، وتحفز القارئ وتستدرجه للولوج في عوالمه، بداية من غلاف الرواية الذي يحتوي على العنوان الذي يوسمه، ويفتح أمام ذهن القارئ مجموعة من الافتراضات والأسئلة حول مضمون المتن السردي، واسم الكاتب الذي يزيد من رغبة القارئ ويحفزه على اقتنائه وقراءته، ولفظة "رواية" التي تحدد جنسه، وغيرها من مكونات العتبة النصية.

وقد حدد جيرار جينيت "**Gerard Genette**" هذه العتبات بالعناوين الرئيسية والفرعية والمقتبسات والإهداء والمقدمة والتمهيد والاستهلال والهوامش والملاحظات، والأيقونات وأسماء المؤلفين والناشرين، وأدرجها ضمن ما نص عليه بالمناص⁽⁴⁾، وهي عند هنري ميتيران "**Henri Mitterand**" بالهوامش النصية⁽⁵⁾.

تظهر هذه العتبات على الغلاف وداخل الكتاب، وتترأى في منظور القارئ منذ الملامسة القرائية الأولى للنص، أي قبل الشروع في تلقّي سرد الأحداث الروائية، ماعدا الهوامش والملاحظات التي يرى الكاتب أنها تفتح للقارئ رؤى توضيحية حول حدث ما أو شخصية ما أو فكرة معينة، فتظهر للقارئ بعضها مبنوثا داخل متن

النص الروائي، ولا يأتي ذلك على سبيل المصادفة، إذ تأتي لتدعيم المعاني أو تعميقها أو إحالة القارئ إلى أفكار قد تغيب عن ذهنه أثناء تلقيه لتتابع السرد.

وقد يلجأ الروائي في أحيان أخرى، إلى وضع ملحق خاص للتبويب بهذا في نهاية الرواية شدا لانتباه القارئ إلى أهميته، إضافة إلى عتبة الإهداء التي تتسم بالذاتية الخالصة - في الغالب - والاستهلال الذي يبتدئ به الراوي روايته ضمن أفق ومنظور يثير رؤى وقيما وإشارات تسهم في توجيه فعالية القراءة في مسارات قرآنية معينة، تشتبك فيما بعد مع حلقات المتن النصي وشخصه وأحداثه. كما تحيلنا إلى بعض قواعد أدبية الرواية ومفتاحها الرئيس وهو اللغة، حيث تعطينا لمحة خاطفة عن لغة الروائي وتوجهاته داخل الرواية فيما بعد، كما يأخذنا الطموح بعيدا إلى حد أن تصلنا عتبة الرواية إلى المرجع والخلفية المؤتثة للرواية.

فعتبات الرواية لا يمكنها أن تكون مجرد زخارف تسيح النص الروائي الروائية بجماليات التشكيل فحسب، إنما هي أيضا الأساس الذي يبني عليه الروائي العمارة، التي يجتهد كثيرا في منحها فرصتها تشكليا وجماليا وسيميائيا ضمن قالب عام هو الشعرية.

2- عتبات الكتابة الروائية من منظور النقد الغربي

عنيت النظريات النقدية الغربية بالجدل الدائر في عمق كل عمل سردي، بين مكوناته المحيطة به، وبين تمفصلاته الداخلية. ويعتبر ميشيل فوكو "Michel Foucault" من الأوائل الذين أثاروا مسألة "النص المحيط" في خلال حديثه عن حدود الكتاب، وذلك في كتابه "حفريات المعرفة"، يقول في هذا الصدد: "حدود كتاب من الكتب ليست أبدا واضحة بما فيه الكفاية، وغير متميزة بدقة. فخلف العنوان، والأسطر الأولى والكلمات الأخيرة، وخلف بنيتها الداخلية وشكله الذي يضيف عليه نوعا من الاستقلالية والتميز، ثمة منظومة من الإحالات إلى كتب ونصوص وجمل أخرى...⁽⁶⁾، فيرى فوكو "Foucault" احتضان أي كتاب مما يحيط به من عناوين رئيسية، وعناوين فرعية، وتمهيدات وغيرها، لا تكن دلالاتها واضحة ولا مقاصدها جلية، إلا إذا ربطها قارئ الرواية بغيرها من النصوص المصاحبة لها التي استلهم

منها الكاتب بعض أفكاره، بالإضافة إلى كل ما يحيط الروائي والكتاب من لقاءات صحفية وغيرها، فالعتبة الروائية ليست مستقلة بذاتها، ولا مكتفية بمعانيها ورموزها.

إن هذا الوعي النقدي الذي تميز به ميشيل فوكوه " **Michel Foucault** " وميز مؤلفه، هو الذي فتح الباب واسعا أمام التنقيب والدراسة والتحليل النقدي البناء حول العلاقة بين العتبة النصية والنصوص المحيطة بالنص المركزي، فقد حوّلت ماهية العتبة من مشكلات ثانوية وهامشية للرواية، إلى مكّون له ما يميزه من خصائص شكلية ووظائف دلالية، يمنحها الدرس النقدي الأهمية النقدية نفسها التي يوليها لبنية النص السردي في حدّ ذاته.

ولعل من أهم النقاد الذين اهتموا بهذه المسألة هو جيرار جينيت ضمن ما تعرض إليه من مقترحات حول موضوع الشعرية، حيث كان يسعى إلى تحديث رؤيته النقدية من مجال النص. فظهرت مميزات النص « L'architexte » المغلق إلى تطبيقات ومفاهيم النص الشامل المغلق في " خطاب الحكاية، بحث في المنهج " حيث تمكّن من خلال تحليله لرواية **مارسيل بروس** " **Marcel Proust** " بحثا عن الزمن الضائع " من وضع قواعد نصية وخطابية أضحت أوليات في فهم بنيات السرد ومكوناته وماهيات صيغه التركيبية. فكان لـ **جينيت** رؤى نقدية مختلفة للنص الأدبي، كما ابتكر تقنيات ذات طابع حدائثي تفتح للقارئ سبلا وآفاقا جديدة للتعامل مع أي نص، فكان له الفضل في إعادة الاعتبار لكل مكّون داخلي وخارجي في النص.

فتحليله للنص الفوقي " **L'hypertextuel** " شدّه إلى سبيل انفتاح النص على مجموعة من الصيغ التي تمكن النص من أن يتعالى على الصيغة الانغلاقية إلى علاقة تفاعلية مع مرجعيات عدة وجعل **جينيت** هذه العلاقات متفرعة إلى خمسة تصنيفات تخص العلاقات، « **Paratextualité** » النصية المحاذية، « **Intertextualité** » العبر نصية وهي كالتالي: التناصية « **L'hypertextualité** »، والنصية الفوقية « **Métatextualité** » والنصية الوصفة « **L'architextualité** » النصية الشاملة « **synthé textualité** » .

وفي تحليل جيرار جينيت ودراسته لـ "التناصية"، ركّز على الحضور المتزامن بين نصين أو أكثر من ذلك، على سبيل الاستحضار. وغالبا ما يكون النص الآخر حاضرا فعليا بشكله الحرفي في النص السردي وهذا يتطابق بصفة تقريبية مع ما يسمّى قديما (الاستشهاد)، ويأتي هذا النص بين مزدوجتين أو بالتوثيق له أو من دون توثيق، أو قد يأتي بأقل حرفية في حال (التلميح)⁽⁷⁾، وهو مصطلح التناص الذي اقترحه جوليا كريستيفا "Julia Kristeva" فيما سبق.

وقد حدّد معنى النصية الواصفة بأنها الرابط بين نصين، يتحدث عنه المؤلف دون أنيشير إليه أو يستدعيه. ويأتي هذا النص في الكثير من الأحيان منضويا داخل سياق العمل دون ذكر من الكاتب، وقد اقترح "سعيد يقطين" مصطلح "التعلق النصي" مقابلا لمصطلح جينيت، وينطلق في ذلك من الإيحاءات التي ينطوي عليها فعل التعلق⁽⁸⁾.

بيد أن "محمد الهادي المطوي" وضع مقابلا آخر للنصية الواصفة وهو "التحويل النصي"، يقول: "ولما كانت السابقة « Hyper » تعني في اليونانية: بعد، مفرط، كما تعني زائد، وفوق، وأن دلالة هذا النوع من التعالي النصي تعني فيما تعنيه التحويل كما مر، وفي التحويل ما يقتضي الزيادة والإضافة لفظا أو معنى، فقد رأينا في انتظار العثور على مصطلح أدق، اعتماد مصطلح "التحويل النصي" على أن يكون النص (ب) هو النص المحوّل، والنص (أ) هو النص المحوّل إليه"⁽⁹⁾.

كما اهتم "علي نجيب إبراهيم" بذات المصطلح فترجمه إلى "كلية النص"، فهو عند جينيت "مجموعة الخصائص العامة التي تجعل من النص كلا (جنسا)، حتى إنه رأى أنه ثمة ما يسمى بالأجناس الكلية..."⁽¹⁰⁾.

وتحدث جينيت أيضا عن النصية الفوقية وعن النصية الشاملة؛ فأما الأولى فتهتم بالعلاقة، وتكون هذه العلاقة « Hypotexte » بنص سابق « Hypertexte » التي تجمع نصا لاحقا بتحويل نص سابق عبر نص بديل، أو تقليد نص لنص سابق عن طريق ما اصطلح عليه بالاشتقاق⁽¹¹⁾. وأما الثانية وهي النصية الشاملة وهي "أدلة وعلامات مصطلح عليها يقتضي العرف الأدبي من

الكاتب احترامها، والتصرّف فيها في حدود معلومة، ويقتضي من القارئ - إذا رام الفهم - تعقبها عند تفكيكه لعلامات النص⁽¹²⁾، فالنصية الشاملة ميثاق ضماني يُعقد بين الكاتب والقارئ وفق توضيح مسارات وسبل توضيحية لفهم المعاني، ونجاح الكاتب في منح النص كل فاعليته كي يضمن التأثير في متلقيه.

أما عن النصية المحاذية انصب حديث **جينيت** في هذا التصنيف على عنوان العمل السردي، العنوان التحتي، العنوان الداخلي، المقدمات، التذييلات، التصدير، التنبهات، الحواشي الجانبية، الهوامش التي تأتي أسفل الصفحات، الهامش في آخر العمل، العبارات التوجيهية، رسومات وصور وأنواع أخرى من إشارات وملاحق، ومخطوطات ذاتية وغيرية وقد يقتضي النص حواشي توضيحية أو تعريفات لشخصية أو لمصطلح ما، أو التنويه بتاريخ يخدم فكرة الموضوع⁽¹³⁾.

وبشكل عام، وجب أن تحتوي كل رواية - بالضرورة - على نصوص محاذية تطبعها وتميزها، وقد أفرد لها **جينيت** سنة 1987م كتابا متميزا عنوانه: "عتبات"، وقد بيّن من خلاله أن صيغ وجود أي كتاب لم تأخذ الكثير من اهتمام النقاد واجتهادات الباحثين في مجال الأدب، رغم أهمية هذه الممارسات الافتتاحية التي بواسطتها - وبالتصاف مع مكونات أخرى - يصير النص أو مجموعة من النصوص رواية أو كتاباً.

إن النصوص أو العتبات المحاذية من منظور **جيرار جينيت** الموقع الذي يُظهر الميزة الأساسية للعمل الأدبي وهي مثالية هذا العمل « L'idéalité »، ومثالية العمل نعني بها طبيعة العلاقة بين العمل نفسه وشكل ظهوره، وعلاقته بتجسيده المختلفة أهمها: عروض خطية، أو افتتاحية، أو قرائية.

بعد تحليل متعدد ومختلف لكل المعطيات التي توقّرت بين يدي **جينيت**، واجه سؤالاً إشكالياً هو: "ما الذي يجعل العمل الأدبي عملاً فنياً"⁽¹⁴⁾، وهل أدبية الأدب تتحقق في النص ذاته بمفهومه التقليدي من حيث هو مضمون، أو ترتكز بالأساس على البنية والشكل العام للعمل، وبذلك شدّ انتباهه أنّ العتبات المحاذية هي أحد مكونات بناء الكتاب ككل، وليس النص لوحده. لذلك وجب الانطلاق من نقطة

مركزية مفادها أنّ العمل الأدبي هو نسق من العلامات الدالة، ومهمة المحلل والباحث هو الغوص في أغوار مظاهر تحقق الدلالة من خلال هذه العلامات، وكيفية اشتغال نسقها، ومظاهر تعدّد دلالاتها.

إن أهم ما اهتم بدراسته وتوضيحه **جينيت** هو شرح آليات الرواية ووصف هذه التقنيات وتنوير "الطريقة التي بها يتولد المعنى"⁽¹⁵⁾، ولا تكون هذه الآليات موجهة لتحليل النص المركزي فحسب، بل تشمل أيضا آليات النصوص المحاذية.

أما **هنري ميتران** "Henri Mitterand"، فكانت رؤيته لعتبات العمل الأدبي من منطلق "أنه لا وجود لشيء محايد في الرواية"⁽¹⁶⁾، فكل مشكل نصي يرتبط بشكل عنقودي بالنص المركزي، فبداية من العنوان والصورة التي تحتل - غالبا - الحيز الأعظم من الغلاف الخارجي للرواية، ثم الصفحة التي تحوي مؤلفات الكاتب وسيرته الذاتية، وصولا إلى الصفحة الأخيرة، كلها متواليات ذات دلالة رمزية، وهو مجموعة من الملفوظات التي لها شبكة من العلاقات الدلالية المميزة سواء أكان ملفوظا قرائيا أو تشكليا. وهذا ما يدفعنا بقوة إلى أن نولي هذه العتبات قيمة قرائية وتحليلية تستثمر دلالات المكونات النصية المحاذية في جانب قيمتها الفنية والجمالية.

وقد انكبّ الباحثون في دراستهم للعتبات على الجانب الإخباري لها، كما اهتموا بحلقة الوصل الرابطة بين النص المركزي وحوافه المحيطة به ذات المعنى المزدوج؛ معنى تخيلي خاص بالعنوان الرئيس والعناوين الثانوية وصورة الغلاف، ومعنى حقيقي يتعلق باسم المؤلف ومعلومات النشر، وتعداد مؤلفات الروائي ...

3. قضايا العتبات النصية والنقد العربي

3. 1. العتبات في النقد العربي التقليدي:

اهتم النقد العربي منذ العصور الأولى لنشأته، بالمؤثرات الخارجية للعمل الفني. فقد انصب اهتمام الناقد العربي حول علاقة الأثر الأدبي بالفترة التاريخية أو الزمنية التي انتقل فيه العمل من المبدع إلى متلقيه. فاعتبر التاريخ عاملا فاعلا في ميلاد العمل وفي خصوصية معانيه ومضامينه ولغته، كما اعتبر العامل الاجتماعي والسياسي والنفساني من المشكلات الأساسية لأي عمل أدبي، وبذلك تجتمع الرؤية

النقدية العربية التقليدية حول فكرة أن الكتابة الأدبية هي صورة من صور الاستتساخ لما هو خارج - أدبي، ولا تقوم أساسا على الوصف من داخل النص الأدبي وبدل أن يكون الانطلاق من داخل العمل إلى خارجه كانت مجرى التحليل النصي يكون من الخارج فحسب، ويحمل طابع الوصف من خارج العمل دون ما الاهتمام بأدبية العمل، والتعمق في مشكلاته، والعلاقة القائمة بينها التي تخصب الممارسة النقدية.

وقد غيب الناقد العربي التقليدي وظائف العتبات النصية، ولم يولها أدنى اهتمام، بل اعتبرها نصوصا بكما غير ناطقة، لا تدلّ ولا ترمز، في ظل اكتساح ظاهرة ربط العمل الأدبي بما هو خارج - نصي. فتم تغييب خطاب العتبات الذي كان عرضيا في اعتبار الناقد التقليدي لم يَرَقْ إلى حد اعتباره بنية مستقلة لها خصوصيتها الجمالية والرمزية، وعمل منذ زمن بعيد على أن يُقَوِّل العتبات، فتتطق عنوة بما يريدها الناقد أن تتطق به ، فإذا أشار إلى الاسم يكون حديثه عنه لا يتعدى أن يكون حديث عن الانتماء القبلي أو السياسي أو العقائدي أو المذهبي لتسمح أن يفتح أبواب الشرح والتأويل، ومن ثم ربط النص بما هو خارج عنه، كما يهتم في تحليله لكل جزء من العمل الأدبي بواسطة إسقاطات نقدية تتحاز إلى المضمون دون الشكل الذي يبقى ثانويا وعرضيا في نظره.

وإذا تطرّق الناقد التقليدي إلى التعيين الجنسي فإنه يحدد الجنس الأدبي للعمل بين تصنيفه في خانة الشعر أو القصة أو الرواية، فإنه غالبا ما تطغى على تصورات الثقافة القبلية التي تعطي الحظوة للشعر، دون غيره من الأجناس الأدبية. فظل دائما الجنس الذي لطالما لقي اهتماما واسعا لدى النقاد فاستمال إليه المتلقين فحَقَّر المبدعين على الإقبال عليه، وبذلك تغييب أهمية النثر عبر مراحل تاريخية عدة.

كما ظلّ عنوان العمل مغنّيا تغييبا شبه تام في النقد العربي التقليدي، وحينما أقول النقد التقليدي، لا أعني به فقط النقد الذي يخص المراحل التاريخية التي تسبق عصرنا الحديث، بل أقصد به كل نقد لا يأخذ بالنظريات الحديثة وبالرؤية الحديثة للإبداع، هذا النوع من النقد غيب القيمة الجمالية والرمزية للعتبات النصية وعلى رأسها العنوان، فكان موضوعا منسيا في الثقافة العربية، وإذا ما التف إليه الناقد في

حالات نادرة. فإن الهدف من ذلك هو اختزال النص ضمن مفهومه الشامل، حيث " كان الناقد يلخص مهمة العنوان المركزية في التلخيص الشامل لمضمون النص، الذي يحيل على منتج كتابي يدخل في نطاق ما هو خارج النص، يهدف إلى القيام باستباق لمعرفة مضمون ما للنص الأدبي بالدرجة الأولى" (17).

وظلت محتويات الغلاف الخارجي للرواية أيضا بعيدة عن انتباه الناقد واهتمامه، ولم تكن أغلفة الروايات التقليدية محفزة لأفق انتظار القارئ، فلم تكن تستدعيه بقوة إلى الالتفات إليها، فكانت على شاكلة صور وضعت أساسا بهدف الدعاية والإشهار، فنجدها تحمل الصورة الرومانسية للرواية ذات المضمون الرومانسي، أو تبين الصراع الطبقي أو الاجتماعي، فتحمل صورة تدل على هذا الصراع بشكل يميل إلى البساطة، ويفتقر إلى العمق، أو يزخر بصور حماسية، أو بصور مثيرة تغري القارئ وتستدرجه لقراءة الرواية والإطلاع على مضمونها، فبقيت الأغلفة لمرحلة نقدية طويلة مجرد نقطة عبور نحو المضمون.

وإذا تحدثنا عن المقدمة أو ما يطلق عليه خطاب التقديم، فنجد أنه قد لاقى ما لاقاه العنوان والغلاف من التهميش وعدم الاكتراث، فاعتبره الناقد صاحب دور ثانوي لا يجدر به أن يمنحه أكثر مما يستحق في نظره وتبقى أيضا في النقد الكلاسيكي مسافة وفضاء عبوريا إجباريا قبل الدخول في صلب النص المركزي، دون أن تكون له خصوصيته الأدبية والجمالية التي تميزه.

وبناءً على اتجاه معاكس لهذه الممارسة النقدية المغلوطة، فإن " أفضل وسيلة لرد الاعتبار للمقدمة هي قراءتها، والتحاور معها" (18)، بدل تركها على هامش النقد الروائي، ذلك لأن عدم الاهتمام الجاد بالمقدمات كمكون نصي أساسي ينتقص كثيرا من مستوى تلقي الرواية ككل، حيث بقيت المقدمات الروائية من دون اهتمام نقدي حقيقي، أو متابعة تحليلية جادة تستجلي طبيعتها، وتحدد وظائفها المتعددة انطلاقا من " تحول جل هذه المقدمات إلى مجرد قراءات نقدية أو انطباعية في النصوص المقدم لها" (19).

وباستثناء جلّ النقد العربي التقليدي، فإن النقد الإيديولوجي للرواية، عني في أحيان كثيرة بخطاب التقديم، حيث وظفه لتبرير مواقفه وأحكامه النقدية، إذ تؤكد العتبات الافتتاحية توجهات المؤلف السياسية أو العقائدية، أو انتماءاته الطبقية التي تتيح للناقد أن يثبت رجعيته أو تقدميته أو تعصّبه إلى طبقة دون أخرى.

بالإضافة إلى عدم اهتمام الناقد التقليدي بالخطاب الافتتاحي، نادرًا ما نلفي دراسة في النقد العربي التقليدي، تهتم بالغوص في معاني ورموز ووظائف التنبهات، والاستشهاد داخل الرواية، ولا يربطها علائقيا بالمتن الروائي، فبقيت في نظر النقد مجرد نصوص عرضية ثانوية.

3. 2. العتبات أو النصوص المحاذية في النقد العربي الحديث:

لا يمكنني أن أجزم بأن النقد العربي الحديث الذي عني بالنص السردى، قد توصل إلى مراحل متقدمة من الممارسة النقدية الجادة التي بإمكانها الإجابة على كل ما تطرحه النصوص الأدبية من أسئلة ورموز. فالكثير من النصوص الروائية استعصت على النقاد المحدثين، وبقيت الكثير من التساؤلات قيد البحث والتحليل، ولم تكن دراسة النصوص المحاذية والمحيطية بالمتن الروائي شافية حتى في مراحل حديثة متقدمة في البحث، لأنها أخفقت . في الكثير من الأحيان . في تمثل الممارسات النقدية الغربية المتطورة.

فقد بقيت العتبات النصية موضوعا بكرا لم تطلّه الكثير من الدراسات وظل محصورا بين تحليلات مبسطة لا تغوص بعيدًا في أغوار الرموز والمعاني، وبين أخرى تقتقد إلى المهارة في استجلاء معانيه وتفكيك رموزه، فبقيت جل الدراسات في طور استكشاف موضوع النصوص المحاذية، ولم يسلم الكثير منها من العثرات، وطغيان نفوذ المتن النصي الروائي على باقي المكونات أو تبعية تحليل العتبات إلى تحليل النص المركزي لا تنفرد - في الكثير من الأحيان - باهتمام خاص بها دون أن تكون ظلًا لا باهتة للمتن الروائي، " ذلك أن بعض الممارسات النقدية العربية ظلت تشكو من فقر ملحوظ في مواكبتها لتطورات الصيرورة النقدية الحديثة ... أمام الحقيقة التي

لا يمكن تجاهلها، وهي أن التطورات النقدية متسارعة ولا يمكن أن تكون إلا محفزاً إيجابياً للناقد العربي الطموح⁽²⁰⁾.

أما بالنسبة للنقد المغاربي، فإنني وجدت بعض التنوع بالنسبة للنقد المشرقي الذي يتحرى في دراسته للنصوص المحيطة صفة التجزيء، إضافة إلى التبسيط المخل بالتحليل. فالنقد المغاربي اتجه في تناوله العتبات إلى العمق محاولة منه سبر أغوار هذه النصوص وإنارة عتمتها، وتعددت الدراسات والمؤلفات في هذا الشأن أهمها : (عتبات النص: البنية والدلالة) لـ"عبد الفتاح الحجمري" خصّه للخطاب الافتتاحي لأعمال الناقد "عبد الفتاح كليطو". ونجد أيضاً مؤلفاً آخر لا يقل أهمية من سابقه وهو (البوح والكتابة، دراسة في السيرة الذاتية في الأدب العربي) لـ"عمر حلي"، درس من خلاله أهمية العتبات عند الحديث عن السيرة الذاتية، وبحث "عبد النبي ذاكر" خصوصية العتبات في خطاب الرحلة من خلال كتابه (عتبات الكتابة، مقارنة لميثاق المحكي الرحلي)، و(الخطاب المقدماتي في الرواية المغربية) مقال لـ"عبد الرحيم العلام" عن مجلة علامات مغربية، ومقال (في التعالي النصي والمتعاليات النصية) لـ"محمد الهادي المطوي" في المجلة العربية للثقافة ... وغيره كثير.

وتخللت في مؤلفات أخرى الإشارة إلى النصوص الموازية، من خلال فصول أو نصوص أو تعليقات حول هذا الموضوع، من أهمها مؤلف (الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها) للدكتور "محمد بنيس" عن دار توبقال، و (الحكاية والمتخيل) لـ"فؤاد الزاهي"، وأزمة المصطلح في النقد الروائي العربي) للدكتور "محمد خير البقاعي" عن دار الفكر العربي، و(تفسير وتطبيق التناص في الخطاب النقدي المعاصر) للدكتور عبد الله ترو عن دار الفكر العربي أيضاً... إلخ.

وقد اختلفت الدراسات والأبحاث السردية العربية في تحديد مصطلح يحدد معاني العتبات، ويدل على مقاصدها، وبلغت الترجمة بين النقاد المغاربة والمشاركة اضطراباً، فكانت . في الكثير من الأحيان . تعتمد على الترجمة الحرفية المعجمية، أو اعتماد المعنى السياقي الذي وُظف فيه في اللغة الأصلية.

فـ"سعيد يقطين" يترجم مصطلح (Paratextes) بالمناصصات، ويعرفها في كتابه (القراءة والتجربة) بأنها "التي تأتي على شكل هوامش نصية للنص الأصل، بهدف التوضيح أو التعليق أو إثارة الالتباس الوارد. وتبدو لنا - يقول الباحث- هذه المناصصات خارجية، ويمكن أن تكون داخلية"²¹. وفي كتابه (انفتاح النص الروائي)، يستعمل المناص بعد عملية الإدغام الصرفية، ويجمعها على صيغة المناصصات. فالمناص اسم فاعل من الفعل ناص ناصصا، مفسرا تحويله للمصطلح بأن هذا الاسم يدل دلالة فعلية على المشاركة والجوار. ومنه أخذ المناصص للدلالة على اسم الفاعل²². وفيما بعد أصبح هذا الناقد «المناصص» في كل مؤلفاته التي لحقت وخاصة منها في مؤلفه (الرواية والتراث السردية)²³. ووجدت عند الباحث "محمد بنيس" مصطلحا آخر هو (النص الموازي). ويعني به الوسيلة التي بها "يصنع من نفسه كتابا ويقترح ذاته بهذه الصفة على قرائه وعموما على الجمهور"²⁴.

وعرف "محمد بنيس" النص الموازي بأنه عبارة عن "العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن واحد، تتصل به اتصالا يجعلها تتداخل معه إلى حد تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتتفصل عنه انفصالا يسمح للداخل النصي، كبنية وبناء، أن يشتغل وينتج دلاليته"²⁵. هذا التداخل والانفصال. في الوقت نفسه. بين النصوص الموازية والنص المركزي. كما تحدث "محمد بنيس" عن الشعرية الأرسطية والشعرية العربية من خلال النقد العربي قديمه وحديثه، وأثبت أنهما لم يهتما مطلقا "بقراءة ما يحيط بالنص من عناصر أو بنيته أو وظيفتها"²⁶، وقد وجد بعد تمحيص واستقراء مؤلفا لـ "الصولي" هو "أدب الكتاب" هذا المصدر أشار بطريقة الخاصة إلى مقاصد النص المحيط²⁷.

وإذا ما رجعنا إلى مؤلفات النقد العربي القديم ألفينا كتابا أولت بعض الاهتمام بعبارات النص الموازي لاسيما عند الكتاب الذين عالجوا موضوع الكتابة و الكتاب، وغيرهم. فنجد المؤلف "الصولي" في كتابه "أدب الكاتب" اهتم كثيرا بعنوان العمل وفضاء الكتابة، وأدوات التعبير والترقيش، وكيفية التصدير، والتقديم والتختيم.

وإذ ذكرت بعض المؤلفات القديمة التي أشارت إلى النصوص المحيطة . بشكل أو بآخر . فهذا لا يوقعني في التناقض فهو يكمل ما قلته سابقا حينما أشرت إلى أن الناقد العربي التقليدي، لم يولِ أدنى اهتمام للنصوص الموازية. فالناقد التقليدي لا أقصد به الناقد الذي عاصر حقبا تاريخية غابرة، بل عنيت كل ناقد لا ينهج منهاجا حديثا في تحليله للنصوص الأدبية، وكذلك لا أحكم على النقد القديم ككل بتهميشه للنصوص المحيطة بالنص الأدبي، بل تحدثت عن الكم الذي وصلنا من المؤلفات النقدية القديمة والتي وجدت أن جلها لا تهتم بهذا الموضوع، إلا ما استثنيت منها سابقا.

وإذا ما عدنا إلى المصطلحات المترجمة من الفرنسية إلى العربية والخاصة بالنصوص المحيطة والموازية، وما يخص مفاهيمها ومقاصدها نجد فريد الزاهي يترجم (le paratexte) بالمحيط الخارجي أو ما أطلق عليه بمحيط النص الخارجي²⁸، أما "عبد العالي بوطيب" فيوافق "السعيد يقطين" في استخدامه مصطلح المناص²⁹، في حين وجدت "عبد الفتاح الحجمري" قد انتقى مصطلح (النص الموازي)، واستخدم عبد الرحيم العلام مصطلح (الموازيات)³⁰.

كما وظف الأستاذ "محمد الهادي المطوي" مصطلح الموازية النصية للدلالة على مصطلح (La paratextualité) بالموازية النصية أو الموازي النصي وهي ترجمة حرفية للمصطلح، لأن (Para) ترجمها الموازي، ويوازي بمعنى يحاذي أو يجاور، وفي اللغة " توازي الشيطان: تحاذيا وتقابلا. وذلك حتى يشمل المصطلح الصنفين من الموازي النصي (أي النص الداخلي والنص الفوقي الخارجي) وفيهما ما لا يجاور المتن في نفس الأثر كأن يكون شهادة أو تعليقا أو توضيحا، إذا جاء متأخرا عن طبعه ونشره"³¹.

وعند "محمد خير البقاعي" وجدت مصطلح الملحقات النصية³²، وهي - في رأيي - أكثر الترجمات دقة ودلالة ؛ لأن العتبات أو تمثّل حواشي وهوامش وملحقات تحيط بالنص المركزي تتصل به من داخله أو من خارجه. و مصطلح (La paratextualité) في قواميس اللغة الفرنسية يقسم دوما إلى قسمين أساسيين: أولهما

السابقة (Para) وأصلها من اللغة اليونانية بمعنى بجانب، وهي في اللغة الفرنسية تسبق كلمات كثيرة وتحمل دائما معنى المجاورة أو المشابهة أو المصاحبة، و (textualité) تعني النصية، و (texte) تعني النص.

ومن أصوب الترجمات أيضا - إلى جانب ترجمة السوري "مجد خير البقاعي"- استخدام "مجد بنيس" مصطلح النص الموازي أو النصوص الموازية " فالنص الموازي عبارة عن عتبات مباشرة، وعناصر تحيط بالنص، وهي تتحدث مباشرة أو غير مباشرة عن النص، إذ تفسره وتضيء جوانبه الغامضة، وتبعد عنه التباساته وما أشكل على القارئ؛" فخطاب العتبات يتشكل بالأساس من نصوص مستقلة بوصفها كيانا قائما بذاته له بنيته الخاصة ووظائفه المنوط بها، لذلك فضلت مصطلح (النص الموازي) لأنني رأيت أنه أكثر دلالة من غيره.

وتعدّ النصوص الموازية من أهم مشكلات المتعاليات النصية (transtextualité)، إلى جانب معمارية النص، والنص الواصف، التعلق النصي، والتناص. ويتألف النص الموازي من ملحقات وعتبات داخلية وخارجية تتعلّق مع النص المركزي إما بالشرح أو الإيحاء أو التمهيد " ضمن سياق نظري وتحليلي عام يعنّي بإبراز ما للعتبات من وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية"33، أو تحفيز أفق الانتظار لدى المتلقي واستدعاء فضوله، مثل عتبة الغلاف وعتبة المؤلف وعتبة العنوان وعتبة المقدمات... وغيرها. لأن ما كان يهتم به الباحث جيرار جينيت في الأساس كان التعالي النصي، والتفاعل الحاصل بين النصوص على سبيل الوصف أو المجاورة أو التعلق النصي من خلال جدلية السابق واللاحق³⁴.

ويؤكد جينيت في كتابه (Palimpsestes) أو (الأطراس) بأن النصوص الموازية هي شكل آخر من التعالي النصي حيث " يتكون من علاقة هي أقل وضوحا وأكثر اتساعا. ويقومها النص في الكل الذي يشكله العمل الأدبي، مع ما يمكن أن نسميه بالنص الموازي، أو الملحقات النصية، كالعنوان، والعنوان الفردي، والعناوين الداخلية، والمقدمات والملحقات، والتنبيهات، والتمهيد، والهوامش في أسفل الصفحة أو

النهاية، والمقتبسات والتزيينات، والرسوم، وعبارات التنويه والشكر... وأنواع أخرى من العلامات الثانوية والإشارات الكتابية أو غيرها مما توفر للنص وسطا متنوعاً³⁵.

ويرى **جيرار جينيت** في كتابه (Seuils) أو (عتبات) أن النص المحيط أو الموازي من أهم المقومات التي تجعل من " النص كتاباً ليقد إلى القراء بصفة خاصة، والجمهور بصفة عامة"³⁶. وهو قول يدل على القيمة التي يحظى بها النص الموازي ومدى أهميته، كعتبة وجب أن يطؤها القارئ قبل اللوج في قراءة النص المركزي، تستثيره وتفتح أمامه أفقا للانتظار.

وبذلك نصل إلى القول أن النص الموازي يتمثل في النصوص المجاورة، التي ترافق النص بوصفها عتبات وملحقات داخلية أو خارجية، تمارس وظائف عدة منها الدلالية والجمالية والشعرية والتداولية، ويعرفه "**محمد الهادي المطوي**" في كتابه (في التعالي النصي والمتعاليات النصية) بقوله: "النص الموازي هو كل نصية شعرية أو نثرية تكون فيها العلاقة، مهما كانت خفية أو ظاهرة، بين نص أصلي هو المتن ونص آخر يقدم له أو يتخلله مثل العنوان والمقدمة، والإهداء، والتنبيهات، والفتحة، والملاحق والذبول... وغيرها من توابع نص المتن والمتممات له، مما ألحقه المؤلف أو الناشر أو الطابع داخل الكتاب أو خارجه مثل الشهادات والمحاورات والإعلانات وغيرها، سواء لبيان بواعث إبداعه وغاياته، أو لإرشاد القارئ وتوجيهه حتى يضمن له القراءة المنتجة"³⁷.

كما يعرف الدكتور "**سعيد يقطين**" النص الموازي بأنه " تلك البنية النصية التي تشترك وبنية نصية أصلية في مقام وسياق معينين، تجاوزا محافظة على بنيتها كاملة ومستقلة وهذه البنية النصية قد تكون شعرا أو نثرا، وقد تنتمي إلى خطابات عديدة، كما أنها قد تأتي هامشا أو تعليقا على مقطع سردي أو حوار أو ما شابه"³⁸.

وعليه فإن النص الموازي يتمثل في جزء من الرواية ككل، هو أول مقوم يجعل من الرواية رواية، فهو الذي يرسم الملامح الأولى لصورة الرواية وشعريتها، وهو الذي يساعد القارئ على فهم خصوصية المتن السردي وربط العلاقة القائمة بين

النص الموازي والمتن والتفاعل النصي الحاصل بينهما ، كما يوضح له بعض مقاصده، ويستثير فيه الفضول الذي يدفعه إلى خوض مغامرة قراءة النص السردي وتفكيك مغالقه ورموزه. فالنص الموازي بالنسبة للقارئ هو الذي يلعب "الدور التواصلي الهام الذي تلعبه في توجيه القراءة، ورسم خطوطها الكبرى، لدرجة يمكن معها اعتبار كل قراءة للرواية بدونها بمثابة دراسة تقوم بتشويه أبعاد النص ومراميه"³⁹.

ويمارس النص الموازي وظيفة جمالية، وأخرى إيضاحية وثالثة تداولية؛ فأما الوظيفة الأولى فهي وظيفة تجميلية تنميقية، تسعى إلى تزيين الرواية، هدفها الأول اقتصادي وهدفها الثاني متعلق بجلب أنظار القراء وفتح أفق الانتظار واسعا أمامهم، أما الوظيفة الثانية الموكلة للنص الموازي، فهي الوظيفة الجمالية التي تتمثل في تنميق الكتاب وتزيينه، بالإضافة إلى وظيفته التداولية التي تجعل منه خطابا أساسيا ومساعدًا في الآن ذاته، يسعى إلى توضيح دلالية النص المركزي بصفة موجزة، وبذلك تصبح وظيفته إخبارية وإنجازية وتداولية معا بصفته "خطابا أساسيا مسخرا لخدمة شيء آخر يثبت وجوده الحقيقي، وهو النص، باعتباره إرسالية موجهة إلى الجمهور"⁴⁰.

وبذلك يكون للنصوص الموازية قيمة كبيرة في التمهيد لقراءة النص السردي وفهمه، والإحاطة به وبكافة بنياته، فبواسطة النص الموازي يتلمس القارئ جميع تمفصلات النص في جانب مدلوليته، وفي جانب إنتاجه وتوليد المعاني والإيحاءات.

وينقسم النص الموازي إلى شقين أساسيين هما: النص الموازي الخارجي (Epitexte) والنص الموازي الداخلي (Péritexte)؛ فأما النص الموازي الخارجي، فهو النص المصاحب الذي "يكون بينه وبين الكتاب بعد فضائي وفي أحيان كثيرة زمني أيضا، ويحمل صبغة إعلامية مثل الاستجابات والمذكرات، والشهادات، والإعلانات، ويشمل الفصلين الأخيرين من كتاب جينيت⁴¹، ويمثل النص المصاحب (الخارجي) كل نص لا يوجد بينه وبين الكتاب وصل مادي محسوس، فموقعه يكون ضمن فضاء فيزيائي واجتماعي خارج الكتاب، يتعلق أساسا بالصحف واللقاءات الخاصة مع الكاتب... وغيرها.

أما النص الموازي الداخلي، فهو النص الذي يحيط بالنص المركزي، ويطلق عليه أيضا النص المحيط، وهو يجاور المتن السردي، ويمثل عتبات وملحقات تتصل بالنص مباشرة ضمن الكتاب نفسه، ويتعلق الأمر بالغلاف، والعنوان الرئيسي والعناوين الفرعية، والمقدمات، والهوامش. ويعتبر النص الموازي الداخلي حلقة وصل بين القارئ والنص، يتيح له فهم النص والتمهيد له.

وعلى كل تبقى وظيفة النص الموازي الخارجي والداخلي على حد سواء، الإحاطة بالنص الإبداعي وتفسير مقاصده وإيضاح مدلولياته قصد استيعابه، وفك مغالقات رموزه، فهو " يسعى إلى تقشير جيولوجيا المعنى بوعي يحفر في التفاصيل وفي النص الأدبي الذي يحمل في نسيجه تعددية وظلالا لنصوص أخرى"⁴² وإنارة ما يجب إنارته قبل دخول مغامرة قراءته وتحليله، فالنص الموازي من الداخل أو الخارج يعطي للقارئ أكثر من سلاح لمواجهة المتن السردي، فلا يمكن لأي قارئ متمرس أن يمر مباشرة إلى النص، دون الوقوف على ملحقاته سواء أكانت نصية أو خارجية.

وأخلص إلى القول بعد كل الذي سبق، إنّ العلاقة بين النص الموازي والرئيس، علاقة تقوم على حاجة كل طرف من هذه الثنائية للآخر، فهي علاقة جدلية تكاملية، والاهتمام بكل ما يحيط بالرواية هو الأيقونة التي تدخلنا إلى أعماق النص الإبداعي، ومهما يبدو النص الموازي محايدا ومستقلا بذاته، فإنّه شديد الارتباط بالنص، فهو المدخل الأساسي الذي لا بد منه لفهم النص وفتح مغالقه وسبر أغواره، فهو "البهو الذي منه ندلف إلى دهاليز، نتحاور فيها مع المؤلف الحقيقي والمتخيل".⁴³، لذلك يبقى الاهتمام بالعتبات النصية في الرواية، ذلك الباب الذي يجب أن يلجّه القارئ، ويتلمس حدوده، ويقف على دلالاته ومعانيه وإيحاءاته، وعلاقة هذه الرموز بالنص السردي، ومدى انعكاس ظلالها عليه، من أجل تحليل متوازن للرواية وفهم أعمق لها، فتحليل ودراسة شعرية العتبة النصية، باب لا بد العبور من خلاله لفهم شعرية النص الروائي .

الإحالات

(1) Roland Barthe: L'effet de réel, littérature et réalité. éd. Seuil point, 1982, P: 833.

(2) هياس، خليل شكري. فاعلية العتبات في قراءة النص الروائي. ط1. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2005، ص: 229 .

(3) جينيت، جيرار: خطاب الحكاية (بحث في المنهج). ترجمة محمد معتصم وآخرون. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص: 15.

(4) يقطين، سعيد: انفتاح النص الروائي. ط1. المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1989، ص: 97.

(5) جينيت، جيرار: خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ص: 15.14.

(6) فوكوه، ميشيل. حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت. ط1. منشورات عالم المعرفة، الدار البيضاء، 1986، ص: 23.

(7) **Gérard Genette** : « Palimpsestes , la littérature au second degré », Ed . seuil , 1982,p : 8.

(8) يقطين، سعيد. الرواية والتراث السردى. دط. 1992 م ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص: 29.

(9) المطوي، محمد الهادي: "في التعالي النصي والمتعاليات النصية". المجلة العربية للثقافة. ع 32، مارس 1997، ص: 198.

(10) روتير، إيف: "انفتاح النص وتفاعل النصوص". ترجمة علي نجيب إبراهيم. مجلة البحرين الثقافية. ع 24، أبريل 2000 ص: 129.

(11) **Gérard Genette** : « Palimpsestes », Op . Cit . p :13.

(12) المبخوت، شكري. جمالية الألفة، 1993، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ص: 23.

(13) **Gérard Genette**: « Figures » , Ed . seuil , coll . Poétique , Paris 1999 , p : 8 .

(14) *Ibid.* p :21 .

(15) السيد، إبراهيم. نظرية الرواية. ط1. 1998 م، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص: 171.

(16) « Le discours du roman » , P.U.F . Paris, 1980 , p : 16

(17) أشهبون، عبد المالك. عتبات الكتابة في الرواية العربية. 2007، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ص: 21.

(18) الحجري، عبد الفتاح. عتبات النص، البنية والدلالة. 1996، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، صص: 4140.

(19) **العلام، عبد الرحيم.** " الخطاب المقدماتي في الرواية المغربية، محاولة في التصنيف"،

مجلة علامات، ع8، 1997، المغرب، ص: 20

(20) **أشهوبون، عبد المالك.** عتبات الكتابة في الرواية العربية. 2007، دار الحوار للنشر

والتوزيع، اللاذقية، سورية، ص: 24.

(21) **يقطين، سعيد.** القراءة والتجربة. ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985 م، ص:

208.

(22) **يقطين، سعيد:** انفتاح النص الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

1989، ص: 102.

(23) **يقطين، سعيد:** الرواية والتراث السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992،

ص: 50.

(24) **بنيس، محمد.** الشعر العربي الحديث: بنياته و إبدالاتها. ط1. دار تويقال للنشر، الدار

البيضاء، 1989، ص: 77.

(25) المرجع نفسه، ص: 76.

(26) المرجع نفسه، ص: 77.

(27) **الصولي.** أدب الكتاب. دط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت ، ص ص:

163 - 260.

(28) **فؤاد الزاهي.** " الحكاية والمتخيل ". ط1، مجلة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب،

1991، ص 85.

(29) **عبد العالي بوطيب،** (برج السعود- وإشكالية العلاقة بين الروائي والتاريخي)، مجلة

المناهل-مغربية- ع55، جانفي 1997، ص: 63.

(30) **العلام، عبد الرحيم.** "الخطاب المقدماتي في الرواية المغربية". مجلة علامات مغربية.

ع8، 1997، ص: 23.

(31) **المطوي، محمد الهادي.** " في التعالي النصي والمتعاليات النصية ". المجلة العربية

للثقافة. ع 32، تونس 1997: ص 196.

(32) **البقاعي، محمد خير.** " أزمة المصطلح في النقد الروائي العربي " مجلة الفكر العربي،

بيروت، ع 83، 1996: ص 84.

(33) **الحجمري، عبد الفتاح .** عتبات النص (البنية والدلالة)، ص: 7.

(34) **G. Genette:** Introduction à l'Architexte, seuil, pp 87.88

(35) **G. Genette:** Palimpseste, p 9.

(36) **G. Genette: Seuil**, p 7.

(37) **المطوي، محمد الهادي**. " في التعالي النصي والمتعاليات النصية " ، ص: 195

(38) **يقطين، سعيد**. انفتاح النص الروائي، ص: 99.

(39) **بوطيب، عبد العالي**. " برج السعود و إشكالية العلاقة بين الروائي والتاريخي " . مجلة

المناهل، ع 55، جانفي 1997، المغرب، ص: 64.

(40) **G. Genette: Seuil**, p p 15-16

(41) **المطوي، محمد الهادي** . " في التعالي النصي والمتعاليات النصية " ، ص 196.

(42) **حليفي، شعيب**. " النص الموازي للرواية- استراتيجية العنوان " . مجلة الكرمل. ع 46

1992، قيرص، ص: 83.

المفارقة الساخرة في أدب السعيد بوطاجين

مفارقة العنوانه مثالاً

د. عمار بن لقريشي جامعة المسيلة

سليمان لبشيري جامعة بسكرة

الملخص:

تدخل هذه الدراسة الموسومة بـ: "المفارقة الساخرة في أدب السعيد بوطاجين" في إطار الدراسات التي تسعى إلى كشف خطاب المفارقة وما يحمله من أبعاد ودلالات وحمولات جمالية، خاصة وأن السرد القصصي للسعيد بوطاجين عبارة عن نسيج غني بالإشارات والمواقف الفكرية، والفنية الجديرة بتوقف الدراسة الجادة عندها، فهي تستقرّ القارئ وتصدمه بدءاً من قوة مجاز العنوانه ودلالاتها المفتوحة وتركيز المفارقة الساخرة، وكأنه يريد منا مُحاوره ومُقارعة النَّصِّ، وتلمس المعاني الدفينة المتلبسة داخله، والذي تكشف أغواره من خلال اللغة الساحرة الساخرة المتشظية فيه. وقد اخترنا مجموعة من قصصه مدونات للبحث نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (اللَّغَةُ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا - وَفَاءُ الرَّجُلِ الْمَيْتِ - مَا حَدَّثَ لِي غَدًا - أُخْدِيتِي وَجَوَارِيي وَأَنْتُمْ...).

الكلمات المفتاحية / الكلمات الدليلية: المفارقة - السخرية - المفارقة الساخرة

- عالمية الأدب الساخر - مفارقة العنوانه في التجربة القصصية للسعيد بوطاجين.

Summary:

This study, entitled "The Ironic Paradox in the Literature of Sa'eed Botajeen", is included in the frame of study that aim to unveil the paradoxical discourse, the dimensions, denotations and decorative devices it carries. Especially that Botajeen's narration consists of a rich fabric in hints and situations of

thought and art which are worthy of serious study. It provokes and shocks the reader starting from the ambiguous title and the focus on irony as if he is trying to make an argument and a conflict out of the text. This will make the covert meanings within touch the reader which can be revealed by the charming ironic language scattered around. We have chosen a collection of his stories as a research sample including (Damn You All, The death of the Dead man, What Happened to Me Tomorrow, My Shoes, my Socks and You...)

1- المفارقة/ حدود المفاهيم والعناصر:

- المفارقة / تأثيل المصطلح :

1-1- المفهمة القاموسية:

يرجع التّأثيل اللّغويّ/ القاموسيّ لمصطلح المفارقة إلى الاشتقاق اللّغويّ المأخوذ من جذرها الثلاثي " فرق" بفتح الفاء والزّاء والقاف، ومصدرها " فرق" بفتح الفاء و سكون الزّاء، والفرق في اللغة خلاف الجمع،فرقه،يفرقه،فرقا، وانفرق الشّيء وتفرّقا وافترقا، أي باينه المفرق و المفرق وسط الرّأس وهو الدّي يفرق فيه الشّعر، وفرق له الطّريق أي اتّجاه له طريقان، الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سمّاه الله به، لتفريقه بين الحقّ والباطل(1).

أمّا في الصّحاح جاء فرقت بين الشّيين فرقا و فرقا ، الفرقان القرآن. و كلّ ما فرق به بين الحقّ والباطل فهو فرقان . فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾، والفرق أيضا القرآن ، الفرقة الاسم من فارقته مفارقة و فراقا ، و المفرق و المفرق وسط الرّأس وهو الذي يفرق فيه الشعر(2).

وفي أساس البلاغة للزمخشريّ ترجع المفهمة القاموسية أيضا لمادّة " فرق " ، فرق بذا المشيب في مفرقة ومفرقة و فرقة، و فرق في الطريق فروقا وانفرق انفرقا إذا اتّجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما(3).

هذا ونجد نفس المعنى الذي أخذه مصطلح المفارقة في المعاجم القديمة، قد أخذه في المعاجم الحديثة بدليل المعجم الوجيز ، الذي ورد فيه فارق مفارقة و فراقا باعده فرق بين القوم أحدث بينهم فرقة ، فرق القاضي بين الرّوجين حكم بالفرقة بينهما(4).

ويعرّف المعجم الأدبيّ المفارقة بأنها " رأي غريب مفاجئ يعبر عن رغبة صاحبه في الظهور وذلك بمخالفة موقف الآخرين وصدمة في ما يسلمون به ". (5) أو هي " إثبات لقول يتناقض مع الرأى الشائع في موضوع ما بالاستناد إلى اعتبار خفيّ على هذا الرأى العامّ حتّى وقت الإثبات" (6)

كما نجد أنّ المفارقة قد ارتدت عبر الزمن عبااءات متنوّعة لكنّها في مجملها تتبني على عبارة متناقضة، وبعد التأمّل نجد أنّها تتجلى عن منظومة تتيح للمبدع الهروب من قيد المباشرة والإبحار في مرافئ الضبابيّة والإيهام والإيهام، والمبدع الذي يجعل المفارقة فلسفة وتصرفاً يستطيع أن يلتقط أشتات المفارقة في الواقع والماحول ليكتفها في موشور الإبداع، محقّقاً أعلى درجات التوتّر مرتقياً إلى لذّة النّصّ ودهشته عبر تفعيل التفاعل بين الدلالات الجليّة والدلالات الخفيّة، التي تعمل على مشاكسة أفق توقّع المتلقّي وتغريب ترسباته القبليّة في محاولة لخلق مفارقة جديدة قائمة على تشكيل جديد لدلالات اللّغة، التي تبدو للوهلة الأولى سطحيّة تسطيحيّة، إلا أنّ هندسة المشاهد وفق ثقافة المفارقة يمنحها جمالا ووعبا غير عاديين، ممّا يدفع المتلقّي إلى البحث عن الرّوح الهائمة خلف ضباب المفردات (7).

وتأسيسا على ما سبق يتّضح جلياً أنّ المفهومة القاموسية لكلمة المفارقة تدور في مرجعيتها على التباعد والافتراق والاختلاف .

1-2- المفهومة الاصطلاحية :

تعدّدت مفاهيم المفارقة من دارس لآخر ، كون المصطلح غامض يثير الالتباس أضف إلى ذلك أنّه يمتلك مساراً تاريخياً طويلاً ، يمتدّ إلى العصور الأدبيّة الأولى، ومن بين هذه المفاهيم ، مفهوم (ميويك) الذي يرى فيها "صيغة بلاغية تعبّر عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضادّ" (8)، كما يرى أنّ "المفارقة ليست بالظاهرة البسيطة ، لهذا هناك عقبة رئيسيّة في تعريفها" (9).

وهذا التعدّد المفاهيمي، يعني أنّه لم يكن هناك تعريفا واحدا جامعا، مانعا لها ، فكلّ حسب مفهومه.

فهاهي نبيلة إبراهيم تقول: "المفارقة بادئ ذي بدء تعبير بلاغيّ يرتكز أساسا على تحقيق العلاقة الذهنيّة بين الألفاظ أكثر ممّا يعتمد على العلاقة النغميّة أو

التشكيلية، وهي لا تتبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات، فتكون بذلك ذات طابع غنائي أو عاطفي، ولكنها تصدر أساسا عن ذهن متوقّد، ووعي شديد للذات بما حولها" (10)، كما تقول: "المفارقة كلام يستخلص منه المعنى الثاني الخفي من المعنى الأول السطحي" (11).

هذا ويعرفها ناصر شبانة في كتابه (المفارقة في الشعر العربي الحديث) بقوله: "يمكن القول بادئا أنّ المفارقة انحراف لغوي يؤدي بالبنية إلى أن تكون مراوغة وغير مستقرة ومتعددة الدلالات، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيات أوسع" (12).

ويرى محمد العبد في كتابه (المفارقة القرآنية) أنّ المفارقة تبدو نوعا من التضاد، بين المعنى المباشر للمنطوق و المعنى غير المباشر (13).

أما يميني العيد فتري في المفارقة الأدبية من خلال كتابها (فن الرواية العربية) أنّ لها ارتباطا وثيقا بالتأويل، وليس له حدود ، أضف إلى ذلك أنّه يربطها أكثر أمام الاختلافات والتناقضات التي تتمحور بشكل أساسي حول مسألة المرجعية والإحالة .

و تضيف قائلة "يرتكز التأويل على مفهوم المفارقة بين الكلمات والأشياء، أو بين اللغة باعتبارها تعبير يتوسل الملفوظات الصوتية، وبين الواقع بما يعنيه من وجود محسوس وتجربة معيشة، وعليه فإنّ محتوى العمل الأدبي هو مجرد تصوّر ولا يمكن للحقيقة التي يبني العمل الأدبي معناها، إلا أن تكون نسبية، لذا فالمعنى من هذه الوجهة مفتوح على التعدد، ربما اللامحدود، أي على اللامعنى" (14).

وتأسيسا على ما سبق حول المفهمة الاصطلاحية نقول إنّها مهما تعددت مفاهيم المفارقة، فإنّ هناك عنصرا قازا ثابتا يجمعها ألا وهو عنصر التناقض .

3-1- عناصر المفارقة:

مادامت المفارقة لغة اتصال سرّي بين الكاتب والقارئ، فمعنى هذا أنّه توجد عناصر اتصال تتمثّل في ثلوث العملية الاتصالية:

المرسل: ويقابله صانع المفارقة. ويعتبر الله صانع المفارقة الأول فيما يخص قضية آدم وحواء، أمّا داخل النصوص الإبداعية فيعدّ الكاتب روائيا كان أو قاصّا أو

أحد الشخصيات الروائية صانع المفارقة؛ الذي يعمل على لفت الانتباه وتشثيت اللغة والأحداث فتصبح المفارقة "كائنا أسمى، والكائنات الأسمى تنظر إلى الحياة على أنها كوميديا، وإقامة مثل هذه الكوميديا يتطلب ممارسة المفارقة" (15). فمن واجب صانع المفارقة أن يصنع جوًّا ملائمًا لنصّه، حتّى لا يصبح ضربًا من العبث ووجهًا من أوجه العدميّة والخيال، ويتيه صانع المفارقة في عالم من اللآ ثبات، وشيئا فشيئا يتحوّل إلى وهم، فيحاول صانع المفارقة أن يخرجها في شكل موجات وتموجات لغويّة تدلّ على تشثت وعيه عن ذاته " ولا يبقى للذات عندئذ سوى أن تجد ملاذًا في المجال الترانسدتالي، فترسل من عليائها ضحكات ساخرة هادئة من الضحايا الذين تتمركز هي في وسطهم، باحثة عن طريق آمن في الحياة" (16). ولا بدّ لصانع المفارقة أن يتميّز بحنكة ومقدرة لغويّة تستمدّ بنياتها من الواقع وممارساته لتصنع عالما يشوبه الغموض والصفاء في آن واحد كمظهر من مظاهر التناقض، وانحراف سلوكيّ يحدده وعيه بما يحيط به، لكن تبقى المفارقة عند صانعها مجرد لعبة لغويّة يضيف عليها الجانب الجماليّ من حيث تركيب الكلمات وتقابلها داخل هيئة توجي بتناقض الأشياء وخروجها عن المألوف، وهي في الآن ذاته تحاول الإمساك بطرف الحقيقة على أن يكمل المتلقي بقيتها، من خلال إثارته واستفزازه جماليًّا وأخلاقيًّا، أو على الأقلّ المستوى الجماليّ، وفي هذا الصدد نجد (كيركجورد) يقول: " يستطيع الكاتب أن يلعب بأسلوب المفارقة على المستوى الجماليّ لا الأخلاقيّ" (17)، فينتهي به المطاف إلى إغراق ضحيّته بجملة من الشكوك نتيجة الألباز اللغوية المحيرة.

الرسالة: وتحمل البنية المفارقة؛ هذه الأخيرة تمتاز بالتعسخ والتثثت اللغويّ

نظرا لاحتوائها على لغة التّداعيّ الدلاليّ؛ فهي لغة منعزلة لأنّها تتعمّد أن تكون خارج الموضوع، كما أنّها تتعمّد عدم الإفهام على نحو مباشر، وهي لغة تجعل الأشياء تهرب بمجرد أن تقترب نحوها، ويجب النظر إلى المفارقة على أنّها " صورة من أيام العصر المهرزور بكلّ القيم والحقائق، فالحقيقة التسيّية تولد لغة نسبيّة... لغة مراوغة تقبل وجهات النظر المختلفة وتتداخل فيها الأضداد" (18). كما تمتاز بنية المفارقة بأنّها بنية الانحراف الدلاليّ؛ ذلك لاحتوائها على الوظيفة الإيحائيّة، ولكنّها تبتعد عن الاستعارة، هذا وتوكّد لغة المفارقة بطابعها الجدليّ على أنّها مسكن كلّ الدلالات

المتماهية في الكون، فلم يعد اللامعقول نقيض العقل بل وجهه الآخر، وبات المعنى يتولّد على اللامعنى ويسكنه، انطلاقاً من فكرة التأويل التي دعا إليها (شليجل) وحاول ربطها بالمفارقة وبالعقل الترانسدنتاليّ، متجاوزاً اللّغة إلى لا وعي اللّغة التي دعا إليها (لاكان).

المستقبل: و يقابله المتلقّي أو السامع أو القارئ الذي يقوم بإنتاج دلالة الرّسالة و حملاتها، التي تستدعي حضوراً واعياً ومميّزاً للقارئ، فإذا لم يستطع فكّ التّشفير اللّغويّ والدلاليّ للرّسالة أصبح يسمّى بضحية المفارقة؛ هذه الأخيرة تخلق انطلاقاً من وعي الكاتب بضرورة الهرب من المفارقات التي يمكن أن يقع فيها: "فهو يختار شخصيّة تتوب عنه في ذلك، وتثير التأمّل في ذهن القارئ... والتي تشبه إلى حدّ كبير الشخصيّة الإغريقيّة في الأدب" الفار مكوس "كباش الفداء" والتي تجمع التناقضات، والتي يجمعها عنصر البراءة، وتحدّد مهمّته بأن يوصل هذه الضّحية إلى جهلها بالحقيقة وانخداعها بالمظهر، فلا يتركها إلا بعد أن تكون قد فقدت كلّ رؤية واضحة في الحياة" (19)، وتوكّد الباحثة (نبيلة إبراهيم) على وجود ضحية المفارقة، التي تلعب دور المتهمة البريئة ما يجعل منها شخصيّة هشة مشتتة وغير محصنة، ودور الضّحية دور "قديري لا إرادة للضحية فيه" (20)، يحاول قدر الإمكان التخلّص من قدره، ولكنّه لا يستطيع لسذاجته وغفلته، فكلمًا توسّعت سذاجته وغفلته كلاً ما ازداد نجاح المفارقة فنّيّاً وجمالياً، حينها تموت المفارقة في قلب الضّحية وتنتقل دلالتها الضّمنيّة من مكان لمكان ومن زمن لزمن، رافضة الكشّف عن هويّتها.

هذا وقد خلصت نبيلة إبراهيم إلى تحديد المفارقة بأربعة عناصر (21) هي:

أولاً: وجود مستويين للمعنى في التّعبير الواحد؛ المستوى السّطحيّ للكلام على نحو ما يعبر عنه و المستوى الكامن الذي لم يعبر عنه ، والذي يلجّ القارئ على اكتشافه اثر إحساسه بتضارب الكلام ، كأنه أشبه بزوبعة مثارة لا يعرف مصدرها ، ولكن فيه من التّلميحات ما يكفي لأن يشدّه إلى تعرية المستوى الكامن للكلام . ومعنى هذا أنه إذا لم يمدّ المستوى السّطحيّ للكلام القارئ بالخيط الذي يعينه على اكتشاف المستوى الكامن للكلام الذي يقف على بعد من المستوى الأول فإنّه لن تكون

هناك مفارقة .و لا نعني بذلك قارنا محدداً، بل القارئ القادر على قراءة النصّ بصفة عامة وهذا يعني من ناحية أخرى أنّ القارئ شريكٌ أساسيٌّ في صنع المفارقة .

ثانياً: لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلّا من خلال إدراك التّعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكليّ للنصّ .

وقد يحدث هذا الإدراك لدى القارئ حالة من البلبلة ، خاصّة إذا كانت صفة المفارقة قد قامت على تعمد الغموض ؛ الأمر الذي قد يصل بالقارئ إلى حدّ أن يقف متردداً في قبول بعض الحقائق دون بعض .

ثالثاً: غالباً ما ترتبط المفارقة بالنّظائر بالبراءة ، وقد يصل الأمر إلى حدّ النّظائر بالسّداجة أو الغفلة .

رابعاً: لا بدّ من وجود ضحيّة في المفارقة.

وفي السّياق ذاته يرى ناصر شبانة أنّ عناصر المفارقة تتمثّل فيما يلي(22):

1/ وحدة البناء: ويقصد بها أنّه هناك نقطة واحدة أو بنى لغويّة واحدة تخرج لدلالات متعدّدة ،و لا بدّ من ذلك لوجود على الأقلّ دالتين تربطهما علاقة تضادّ، ليأتي بعد ذلك دور القارئ الفطن ليكتشف المعنى الذي يذهب إليه صانع المفارقة .

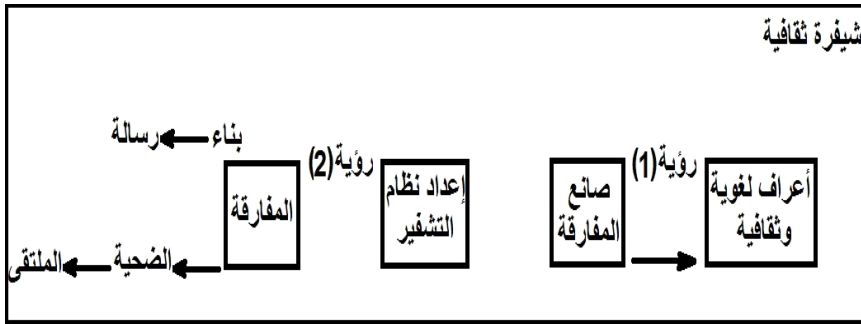
2/ القرينة أو المفتاح: بما أنّ المفارقة لعبة لغويّة ماهرة بين صانعيها و قارئها ، كما تعبّر نبيلة إبراهيم ؛ فإنّه تصبّح لدى مستقبلها بمثابة لغز، لذا سيتوجّب على منتجها أن يقدّم مفاتيح عادة ما تكون قرائن سياقيّة لا قرائن لفظيّة ، ليتسنى اكتشاف المعنى الباطن .

3/ ضحيّة المفارقة: بما أنّ هناك صانع المفارقة ومكتشفها، فلا بدّ من وجود ضحيّة لهذه المفارقة الذي يحدّد دورها الكاتب، والقارئ المكتشف للمفارقة ينظر إلى الضحيّة نظرة المتعاطف الساخر في آن واحد .

4/ عدم الإجماع: يعني أنّ الرّسالة أو البنية المفارقة تستوجب تغييرات متفاوتة و متباينة ، و ذلك بحسب المتلقّي و كقيّة اكتشافه للمعنى .

يرى الباحث (يوسف عليّات) أنّ فاعليّة المفارقة تتحقّق في الحياة والأدب بفعل قوّة تأثيرها المفارق لتوقّعات المتلقّي، إذ إنّ أحداث الصّراع التي تتضمّنهما المفارقة تحدث بطريقة غير مقصودة ومخطّط لها من قبل صانع المفارقة ، حيث

تتصاعد الأحداث تدريجيًا إلى أن يقع المتلقّي في خيبة التوقّع وإحداثية المفاجأة. ولذلك يمكن أن تعدّ المفارقة "إستراتيجية في الإتصال مع الحسّ أو الشّعور بحيث لا تحدث تأثيرًا فقط بين معنى ومعنى (قال/ لم يقل)، ولكن تحدث تأثيرها بين الناس (السّاخر/صاحب المفارقة، والمؤوّلون/ المتلقّون وموضوع المفارقة/ الضّحية)" (23) وقد وضح الإستراتيجية التي يوظّفها صانع المفارقة في بناء العالم المفارق داخل النّصّ وتشكيل الأثر الانفعاليّ على المتلقّي بوضع الخطاطة التّالية (24):



يكشف هذا المخطّط، كما يبدو، تلك الوظيفة التّأثيريّة الانفعاليّة التي تحدثها المفارقة من حيث كونها تقنيّة بارعة يوظّفها المؤفّف/صانع المفارقة لخلق عوالم متصارعة متضادّة يهدف من خلالها إلى رؤية العالم والوجود بثقافة أو رؤية جديدة مغايرة.

إنّ طبيعة العلاقة الصّديّة الماثلة في بنيّة النّصّ المفارق تحفّز المتلقّي على تشريح عناصر المفارقة؛ " لأنّ معنى المفارقة يظهر للوجود بوصفه نتيجة للعلاقات والفاعليّة والأداء التي تدمج سويًا على الرّغم من اختلاف المعاني التي يريدها صانعو المفارقة من أجل خلق شيء جديد، ولوضع المعاني الجديدة على محك النقد" (25).

تعتمد المفارقة، إذن، في تشكيلها على مفارقة الحقيقة والواقع/ العالم المائل بفعل إعادة إنتاج المعنى الثقافيّ للوصول إلى الحقيقة والواقع في ضوء العوالم الجديدة. فهي تنتقل بالمتلقّي من العفويّ إلى المفاجئ واللامتوقّع، كما أنّها " أسلوب مثير؛ لأنّه في أحصّ خصائصه، ناتج من تصادم داخل النّفس بين ما يتوقّع وما يحدث واقعا. وهي حيلة بلاغيّة يستخدمها الكتّاب للتعبير عن معنى يتضادّ مع معنى

آخر مستقرّ في الذهن. وهناك مجموعة من التّقنيّات التي تتحقّق المفارقة بها، أو من خلالها، إذ من الممكن أن يوضّح الكاتب بأنّ المعنى المخفي يتناقض تماما مع المعنى الظاهر. ومن الممكن أيضا أن يبني جملته على أساس التّعارض بين المتوقّع والمنجز، أو بين الوضع البارز والحقيقة الكامنة خلفه" (26).

ويحاول صانع المفارقة أن يقدّم لمتلقّيه فهما خاصّا للأشياء التي يتعامل معها، أي إنّه يحاول بناء نسقٍ ثقافيّ يهيمن فيه على متعلّقات المفارقة: لغة، وحركة وشخصا، وصوّرًا، متشكّلة بوصفها مفردات أساسية تصوغ فلسفته الذاتيّة. وهكذا فإنّ أسلوب صانع المفارقة يصبح ضروريًا ذا دور تمزيقيّ لكلّ الأشياء التي تم ربطها معًا لكي يجيز لها مخرجًا وتشكيلًا من داخلها نفسها... (27).

2/ المفارقة السّاخرة :

لقد ارتبطت السّخريّة بألفاظ كثيرة تحمل مدلولاتها، فقد وردت لها في المعاجم العربيّة معان مختلفة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى، ولم تحاول التّفريق بينهما بدقّة ، فتركت المعنى العامّ الذي يشتمل السّخريّة والاستهزاء والتهمك بدون تعريف يقرّبه من الأذهان، واختلاف الدّراسات في مجال السّخريّة أدّى إلى مدلولات متعدّدة، ومصطلحات خاصّة عند بعض الباحثين، فقد ارتبطت بالغضب والهزاء، والدم، والضّحك، والتندرّ والدعاية، والنكتة، والحسرة، والهزأ، والاستخفاف، و التصوير الكاريكاتوري(28).

أضف إلى ذلك تداخلها و تقاطعها مع المفارقة، ولكي نبيّن هذا التقاطع، لا بدّ من تحديد " السّخريّة " من النّاحية القاموسية والاصطلاحية.

2-1- المفهمة القاموسية للسّخريّة:

قبل تحديد المفهمة الاصطلاحية لكلمة السّخريّة، لا بدّ من الرجوع إلى مفهمتها القاموسية، وإذا عدنا إلى معجم لسان العرب لابن منظور نجد كلمة "سَخِرَ"، تشتقّ من قولنا: (سَخِرَ منه و به سَخِرًا ، وسخرا وسخرا وسُخر بضم السين، وسخرة، وسُخْرِيًا، وسُخْرِيًا، وسخريّة: هزئ به، و يروى بيت أعشى باهلة على وجهين:

إني أتنتي لسان لا أسرّ بها من علو، لا عجب منها، ولا سُخْر

و يروى لا سَخِرُ ، (قال ذلك لما بلغه مقتل أخيه المنتشر) (29).

قال الأزهري: و قد يكون نعتا، كقولهم: هم لك سُخْرِيّ و سُخْرِيّة من ذكر قال: سُخْرِيّا ومن أنت قال سُخْرِيّة.

الفرّاء: يقال سُخِرْت منه، ولا يقال: سُخِرْت به ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ (30)، و سُخِرْت من فلان هي اللّغة الفصيحة .

قال الله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (31)، وقال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (32).

والسُّخرة: الضُّحكة، ورجل سُخرة: سُخِرَ بالنّاس، وفي التّهذيب: سُخِرَ من النّاس، وسُخرة يسُخِر منه وكذلك سُخْرِيّ وسُخْرِيّة، من ذكّره كسر السّين ومن أنثه ضمّها (33). وهو ما يعني أنّها تلابس مفهوم "الاستهزاء من" و " الضّحك من" ؛ بغيّة الانتقال من الغير أو تحقيره أو تحطيمه وجعله مثار تندّر وتفكّه المرسل والمرسل إليه. وهي ليست مباشرة في تهكّمها كالهجاء الذي هو: " أدب الغضب المباشر، والثّورة المكشوفة" (34) ذلك لأنّها طريقة تهكّميّة تقول عكس ما نودّ تبليغه غي ريلاعة المعنى المقلوب (Antiphrase) (35). وهي بهذا التّحديد تريد شيئا وتظهر غيره؛ بمعنى أنّها تعبير عمّا تريد أن تقوله بقول مضادّ له، فتجيء بالذّم في قالب مدحّي، أو بالجدّ في قالب مازح، أو تأتي بالحقّ في قالب الباطل، وهي في كلّ الأحوال خطاب ظاهره جدّ وظاهره هزل.

من خلال هذه الجولة البسيطة في المعاجم لتحديد المفهمة القاموسيّة للسُّخْرِيّة من خلال مادة (سَخَرَ)، يتّضح أنّ مدلولها لا يخرج عن الهزأ والضّحك، والاستهانة، والاستهزاء، و الانتقال من القدر.

2-2- المفهمة الاصطلاحية للسُّخْرِيّة:

السُّخْرِيّة في الأدب فنّ " ينم عن ألم دفين، و يشف عن كرب خفيّ، يريد من يلجأ إليه أن يداوي ألمه بالصّد، و يشفي كربيه بالنقيض" (36).

ومادامت السُّخْرِيّة فناً، فتحدّيّ تعريفٍ جامع مانع لها يصعب؛ " لأنّ الفنون أعمال نابضة بالحياة لا يمكن تعريفها، والإحاطة بها ببعض ألفاظ قاصرة، إذ الفنُّ حيٌّ متحرّكٌ، والألفاظ مهما تكن جامدة ساكنة" (37).

و في هذا الصدد نجد سليمان شبانة , يتّجه قائلا: " رغم كثرة استخدام لفظة السّخرية و جريانها على الألسنة وورودها في القرآن الكريم في أكثر من إحدى عشر آية ، إلاّ أنّها لم تحظ بتعريف اصطلاحي جامع مانع" (38).

ومع هذا التّوضيح لصعوبة الوقوف على تعريف شافٍ وافٍ للسّخرية، لا يمنع الأمر من أن نتلمّس طريق من حاول أن يجتهد ليقف على تعريفٍ للسّخرية، وأولى هذه المفاهيم ما ورد عن (محمد ناصر بوحجام) بقوله عن السّخرية بأنّها: "طريقة فنيّة أدبيّة ذكيّة ليقّة في الإبانة عن آراء ومواقف ذات رؤية خاصّة وبصيغة فنيّة متميّزة ، وهي أسلوب نقديّ هازئ، هادف في التّعبير عن أفعال معيّنة ، كعدم الرّضا بتناقضات الحياة و تصرفات النّاس وكشف الحسرة و المرارة بطريقة غير مباشرة بعيدا عن العاطفة الجامحة، والانفعال الحادّ، قصد الإصلاح والتّقويم، والتّغيير نحو الأحسن، وطلبا للتّنفيس عن الآلام المكبوتة" (39).

من خلال هذا المفهوم نجد أنّ السّخرية بحاجة إلى ذكاء في التّعبير عن آراء خاصّة، وطريقة متميّزة وغير مباشرة، بالإضافة إلى ذلك الأسلوب النقديّ للوصول إلى هدف ما سواء يتمثّل في الإصلاح والتّقويم أو محاولة الترويح عن النفس جراء الآلام المكبوتة، المتضخّمة الناجمة عن أسباب معيّنة .

أمّا ثاني المفاهيم فيتجلّى في قول قحطان التميمي: "السّخرية في الشّعر طريقة تعبيرية متطورة، توصل بها الشّعراء لنقد الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والسير الفرديّة، والنّيل منها بأسلوب يترفّع عن الشّتمة والسباب المحض، ويتنزّه عن القذف والإيغال في الفحش، ورفث القول" (40) .

المتأمّل لتعريف التميمي للسّخرية يجد بأنّه متميّز عن باقي المفاهيم السابقة؛ كيف لا وقد جعلها (السّخرية) أداة إصلاح يهدف من خلالها الأديب السّاخر إلى توجيه أصابع النقد إلى مستحقّيه دون التّفرقة بين الكبير والصّغير، و هذا النقد ليس نقدا تجريحيّا ، يهدف من ورائه إلى التندّر، وإبراز العيوب للتشفيّ فقط ، كما أنّه ليس بهدف استعراض العضلات، وإنّما هو نقد بناء بأسلوب يترفّع فيه الأديب عن سطحيّة العوام، أو تندّر الجّهال، ليقول من خلاله وهذا الموقف نجده ماثلا أمام عين كلّ أديب، سخر أدبه لخدمة مجتمعه و جعل من نفسه حارسا أمينا لكلّ قيم أمته، و في

هذا الصدد نجد الدكتور **طه وادي** في معرض حديثه عن أدب (عبد الله النديم) يقول: "وعلى الرغم من تعدد أنواع الكتابة الفنيّة عند النديم ، فإنّه حرس على أن يوظف كلّ مجالات الكتابة الأدبيّة والصّحفيّة من أجل الدّعوة إلى تحرير وإصلاح المجتمع... والسّخرية عند النديم ليست سخرية لفظيّة، كما هو الحال في أمثلة السّخرية التي تقوم على استخدام التّورية أو التّجسس اللفظي، لكنّ السّخرية عند النديم سخرية موقف" (41).

وفي التّراث النقديّ، يشير أحد النّقاد إلى حضور للخطاب النقديّ الساخر، وذلك في بعض مجالس التحاكم النقديّ، والمفاضلة بين الشّعراء، وفي سياق (مجالس التّخطيط النقدية) تحديداً. (42) وهو سلوك ثقافي نقديّ تبادليّ، ساد كثيراً من السّرودات و الحكايات النقدية، يشير إلى سلوك معرفيّ عامّ، في مجالس التبادل المعرفيّ في التّقاليد العربيّة، وهو: "أنّ السّاخر في كثير من الأحيان لا يعتمد إلى مجرد الإضحاك، وإنّما يضمّن خطابه السّاخر العديد من المعارف، ويسند إليه وظائف أخرى، ومن ذلك النكتة الهادفة ترويضاً، وهي التي تقتطف من صميم الدّرس" (43).

هذا ويرى الدكتور (علي جعفر العلق) أنّ السّخرية في حقيقتها ما هي إلّا "كسر مفاجئ لنسق سلوكيّ، أو وجدانيّ، أو فكريّ، راسخ وجادّ" (44). كما أنّها: "زخرفة بارعة لقول أو سلوك عمّا فيه من وقار أو رهبة أو رهافة" (45).

ومن مجمل التعاريف نخلص إلى أنّ السّخرية أسلوب يهدف إلى الصّحك المبطن بنوع من النقد الموجّه الهادف إلى وضع اليد على علّة ما، أو تعديل وضع فاسد، أو توجيه و إرشاد نحو طريق سويّ، أو تغيير لحالة اجتماعيّة أو سياسيّة فاسدة.

وبعد هذه البسطة المفهومانيّة للسّخرية وتعزيزنا لسؤال المفهمة والماهية لآب لنا أن نتساءل بسؤال اللّماد؛ علماً بأنّ الإجابة عن سؤال لماذا نسخر؟ أو لماذا يلجأ المرء إلى السّخرية؟ من شأنها أن تكشف لنا النّقاب عن دواعي الخطابات السّاخرة سواء أكانت: سيكولوجيّة- أم اجتماعيّة- أم صورلوجيّة أم غير ذلك، وما السّر في صنعها، وإستراتيجيّتها الخطابية؟

سبق أن أشرنا فيما مضى إلى أنّ السّخريّة لا تعني مجرد الاستهزاء والانتقاص من اللّامرغوب فيه والمبتذل، إنّها بديل أخلاقيّ وإيديولوجيّ للأخلاقيّ الرّديء، فهي أداة وعي انتقاديّ تقضح الخطاب المضادّ، وتقشي سرّ حقيقة وهمه. وهي بذلك" ترفد البّاث ومتلقّيه بفرحة القصاص الماكر من الأفكار المزيفة والمحنطة. ويقدر ما تفتح للبسمة طاقة، تشرع طاقات البصر والبصيرة على الفجاعيّ والمريب والسّلبيّ والإستلابيّ" (46).

هكذا شكّلت السّخريّة استراتيجيّة خطابيّة وأسلوبية ترنحت بين اللّغة المضاعفة والنظرات الماكرة الغامزة الموحية بالحقيقة والوعي المضادّ، استجابة لحالة نفسية ووضع إيديولوجيّ معين للذّات السّاخرة؛ هذه الأخيرة تستعين بالحجج وأساليب المقارنة والمعارضة والمناقضة لتعزيز قيمتها النّقدية تحت ستار المراجعة والتّصويب، وهذا ما سنوضّحه في وظيفة السّخريّة.

2-3- وظيفة السّخريّة:

تتعدّد وظائف السّخريّة بتعدّد الغايات والأهداف التي يرمي إلى تحقيقها السّاخرون وخاصّة الأدباء منهم. فالسّخريّة عند هؤلاء الأدباء لا سيما الذين حملوا لواء الإصلاح، والنقد البناء ليست سخريّة إضحاك أو ابتذال فقط؛ فهي ترتقي وترتفع عن مثل هذه المواقف، "ولا تقف أهداف السّخريّة عند إضحاك الآخرين، أو الترويح عنهم، أو قطع أوقات فراغهم للتسليّة، فتلك رؤى سطحيّة مبتذلة وهي للسّوقة، والعامّة، لكنّ السّخريّة الفعّية لها أهداف تربو على ذلك" (47).

كما أنّ السّخريّة ليست هدفا لذاتها، بقدر ما هي وسيلة يسلكها الأديب ليصل إلى هدف أسمى و أنبل من مجرد إثارة الضّحك، إنّها وسيلة لنصل إلى الضّحك الجادّ كما وصفه المازني". فالسّاخر حينما يتناول المضحكات أحيانا، ويمزح، ويسخر، ويركّب الأشياء، والناس بالهزل، فإنّ هزله أبدا مبطن بالجدّ، وهو لا يقصد إلى الهزل في ذاته" (48).

وإذا كانت السّخريّة غير معدّة للضّحك، فلا أقلّ أنّها غير راغبة في البكاء، إنّها بالحرف الواحد مُبكية- مضحكة وهي تخفي قدرا كبيرا من الجدّية. وبتعبير

أوضح: إنها تضحك دون أن تكون لها رغبة في ذلك، وتمزح دون أن تتسلى، بمعنى أنها هازئة؛ لكنّها قاتمة.

هذا وقد كانت السخرية على مرّ العصور الأدبية تعالج المثال الخاطيء، من أجل مسخه بطريقة كاريكاتورية تفضح العيوب، وتجعل صاحبها ينفر من صورته، فيلجأ طوعاً إلى إصلاح نفسه، فالوظيفة هنا أشبه بوظيفة التطهير.

كما أنّ للسخرية وظيفة اجتماعية سامية، فهي تقوم بزرع و بثّ الوعي في النفوس، فالأديب الساخر يستطيع أن يصل إلى إعطاء صورة كاملة للواقع، ومحاكية التناقضات الاجتماعية الموجودة فيه.

أضف إلى ذلك إشعار الإنسان بضرورة تقويم أخلاقه، وإلزامه بواجب المحافظة على تقاليده، وعاداته، ومقوماته، وحثّه على إعادة النظر في علاقته بأفراد مجتمعه وضرورة توثيقها، وهذا بطريقة تنبيه لطيفة و لبقّة (49).

إنّ مضمون السخرية بهذا المعنى هو البحث عن الذات المفقودة، والسعي لاستعادة بشرتها استعادة حقيقية، فالموقع المزدوج للشخصية الروائية بين كونها بطلاً وضحية في الآن ذاته؛ هو التعبير الأدبي الوجيه عن الحركة التي بها تتعرّف الذاتيّة على نفسها وتلغيها إذ تدرك أنّها أصبحت مجرد احتمال أو هي التصحيح الذاتي للهشاشة على حدّ تعبير (لوكاتش) (50).

بالإضافة إلى ذلك تقوم السخرية بوظيفة تربوية مهمة تكمن في مساعدة الإنسان على تثقيف نفسه، فاستعمال النكت الساخرة على سبيل المثال تساهم في تهذيب العقل وتقويم الفكر وتكوين ملكة الذوق، وتطوير الحسّ الجمالي في النفس .

كما تلعب السخرية من الناحية النفسية دوراً صحياً لا نظير له، فالإنسان بمشاغله ومشاكله يحسّ بالنقص، وهذا النقص لا بدّ له من إشباع، وإشباعه لن يتأتّى إلاّ بالتعويض الرّاقى؛ وهذا التعويض يكون من خلال إعادة بعث الثقة في نفسية الإنسان كمتنفسٍ له.

إنّ ظهور الفعل السخريّ في الممارسة الإنسانية بكامل تمفصلاتها، جعلته يتربّى بكلّ أنماط التعبير المختلفة، من حيث البناء ومن حيث التّدليل؛ فالسخرية توجد في كلّ الأنماط السردية، وهي بذلك خاضعة لطبيعة النصوص الحاضنة لها، حيث

آليات البناء السّاحر في الرّواية ليست هي نفسها في الحكاية المصوّرة، ولا في الحكاية الشّعبيّة، ولا في الصّورة البصريّة بكلّ أنماطها التّديليّة.

وهكذا نجد السّخريّة من داخل هذه السيرورات المختلفة تعدّ بناءً سرديّاً له خصوصيّة في الاشتغال، ونمطه في التّعبير عبر المضامين الكامنة في الفعل السّرديّ نفسه، والقذف بالمعاني نحو ساحة التداول والتواصل غير المباشر، عبر المعطيات البيئويّة التي تخلق اثر فعل ساخر يكون بالضرورة ذا طابع مبنين، خاضع للتفاعل بين القارئ والكاتب، وهنا تكمن صورة السّخريّة الوظيفيّة.

ويبقى سؤال السّخريّة دوماً هو سؤال الكتابة المشاكسة المخالفة والمخالطة، المختلفة المتربّصة بالنّمطيّ والنمط والمحنط من الخطابات والأقويل، لكن عبر استراتيجيّة خطابيّة استنهازيّة ومناهضة (51). وهي بهذا المعنى ترقى بالفكاهة إلى المستوى الأكثر ذكاءً ولباقةً؛ فتجعل لها معنى، وتعطيها قدرة خاصّة على أن يكون لها هدف، وأن تخدم هذا الهدف، وأن تحتال لتحقيقه، وأن تكون لها إمكانيّة التّأثير، وهي لذلك تتخذ مادّتها من العيوب والمثالب التي لا تطيق لها وجوداً، ولا ترضى بأن تتركها تعيش في سلام وأمان، دون أن تدقّ عليها دقّاً خفيّاً أو ثقيلًا، حتّى تنبّه إليها أو تنبّه فيها عوامل المقاومة وتثير الرّغبة في الانتصار عليها (52).

وما دامت السّخريّة أسلوباً نقديّاً له ميزاته الفنّيّة. اعتبرت في الواقع بناء للحياة وحارساً للمثل العليا، وهي تتعمّد إيقاع الآخر في حرج مقصود لدفع حرج أكبر، وردّ خطر قائم أو متوقّع، ممّا يعتبر عملاً إنسانيّاً شريفاً وسامياً (53).

3/ مفارقة العنوان في المجموعة القصصيّة للسعيد بوطاجين:

لم تحظ في نظريّات النّصّ الحديثة عتبة قرآنيّة بمثل ما حظيت به عتبة العنوان، فهو بمثابة المدخل والباب الذي يسهم في تلقّي النّصوص وفهمها وتأويلها. إنّ العنوان وإن كان يقدّم نفسه بصفته مجرد عتبة SEUIL للنّصّ، فإنّه بالمقابل لا يمكن الولوج إلى عالم النّصّ، إلّا بعد اجتياز هذه العتبة. إنّها تمفصل حاسم في التفاعل مع النّصّ... باعتباره سمّاً وترياقاً في آن واحد: فالعنوان، عندما يستميل القارئ إلى اقتناء النّصّ وقراءته، يكون ترياقاً محفّزاً لقراءة النّصّ، وحينما ينقّر القارئ من تلقّي النّصّ؛ يصير سمّاً، يفضي إلى موت النّصّ وعدم قراءته". (54)

ويرى **محمد بازي** أن " العنوان حامل معنى وحمل وجوه ، مُوازٍ دلالي للنص ، وعتبة قرائية مقابلة له ، توجه المتلقي نحو فحوى الرسالة ومضمونها ، وهو حامل معنى من حيث كونه يوجه إلى مقصد بذاته أو يلمح للمحتوى. ثم إن المادة اللغوية التي تشكل منها تكوّن لدى المتلقي فروضا استكشافية ، بناء على ما تثير لديه تخمينات وحدوس ؛ فكل كلمة تخلق فضاء تصوّريًا وأفقًا للتوقعات ، لا تتحدّد مساحتها إلاّ بعد النظر في محتويات الكتاب أو العمل ككل". (55)

كما يرى أن: "العنوان موضوع للتأويل، ومفتاح تأويلي للنص الذي يعنونه وإن كان من الممكن أن يكون خادعا، مراوغا، سرايبا، عندما يُبنى على قصيدة الإثارة والإغراء، وهو ما يحتّم على القارئ الاستعداد لتلقي عناوين توهيمية، تمارس مكرها اللغوي والدلالي. وتستخدم سلطتها الاعتبارية في الإغراء ممّا يتطلّب من المتلقين التزوّد بمكر قرائي مضاد". (56)

ويرى **عز الدين جلاوي** أن للعنوان **وظيفة جمالية**، كيف لا وهو مثير محفز مقلق، كما أنّ له **وظيفة فكرية** لا يمكن إغفالها، فكثيرا ما تكون العتبة الكبرى مشحونة بقيم ورؤى في نظره. والعنوان على حدّ قوله هوية النص التي يمكن أن تختزل فيها معانيه ودلالاته المختلفة بل حتّى مرجعيّاته وإيديولوجيته. (57)

والمتمجول لعالم الإبداع القصصي للأستاذ **السعيد بوطاجين** يرى بأنه عبارة عن مآدبة أدبية غنية بالإشارات والصنوف والأشكال والمواقف الفكرية الجديرة بتوقّف الدراسة الجادة عندها؛ فهي متميزة باستفزاز القارئ وصدمة بدءا من قوة مجاز العناوين ودلالاته المفتوحة وتركيز المفارقة الساخرة المتجلية في ذلك الحزن القائم الذي تشعه اللغة الفكاهية الساخرة، فهو يبحث باستمرار عن الطاقة الكامنة المشحونة دلاليًا بغية تفعيل النشاط القرائي للمتلقى من خلال خرق أفق انتظاره عمدا.

وفي هذا السياق نجد الأستاذ **مخلوف عامر** يصرح بقوله: "السعيد بوطاجين يعمد في كتاباته إلى ممارسة هذا الخرق بما ينطوي عليه من حدة ذكاء تدعو القارئ إلى التأمل". (58) والهدف من هذا الخرق هو تحقيق المتعة الجمالية عن طريق التفاعل والتحاوّر مع النصّ البوطاجينيّ.

وعلى كثرة ما يكتب **السعيد بوطاجين** في القصة القصيرة فإنّ للتجربة البوطاجينية على حدّ قول الأستاذ الباحث **بغورة محمد الصديق**: "أصالة نابغة من القرابة الروحية التي هي بين ذاته وفنّه، فخفة روح النص من خفة روحه، وجدية الهزل من حجم همّة الإنسان الذي يسكنه، ونزعته إلى الاختلاف عما هو مألوف في اللغة والفكر بما يصدم العادي ويشكك فيه جزء من طريقة طرحه لما يفكر فيه، وقد يكون عنوان مجموعته "ربّنا لا تغفّر لنا" تطوّرا واضحا في نزوعه إلى العناوين الصادمة". (59)

إنّ هذه العناوين الصادمة التي يتحدّث عنها هي أولى صور المفارقة. وعناوين الكاتب **السعيد بوطاجين** تحمل أبعادا فكرية تصوّر المجتمع وما يحويه من تناقضات، ويمكن أن نمثّل لذلك بـ (اللغة عليكم جميعا)، والمتممّن في هذه المجموعة القصصية يتملّكه شعور بالحرّج والاندھاش بسبب ما يثيره من حقائق موجعة من سبّ وشمّ وتندّر وسخرية خاصة لناس الفوق، يقول: "عليّ أن أعيد لهذه الضيعة مجدها كي لا تقنط أمتنا الأرض وتتهمني بالجبن والخوف من ذلك الفوق عليه اللعنة. أيها الفوق الكرية إنّي أعافك. اللعنة عليك أيها الفوق اللعنة عليكم جميعا". (60)

كما نجدّه يتساءل في حيرة وقلق ممّن تسبّبوا في تعفّن الوضع وفساده، إذ يقول عن المثلث الذي التقاه: "سمعت حمارا ينهق طربا بلغة امرئ القيس، أو شكسبير لم أتبيّنّها...". (61)

هكذا نجد العنوان يرتبط بالحالة النفسية المحبطة للكاتب إزاء الواقع المرير الذي يعيشه الشعب الجزائري.

وفي قصة (ما حدّث لي غدا) نجد تلك المفارقة الصادمة في العنونة، التي تحتاج إلى تأمل عميق. يقول **مخلوف عامر**: "حين يختار (السعيد بوطاجين) لمجموعته (ما حدّث لي غدا) فإنّه بذلك يخالف ما اعتدنا عليه في استعمال قواعد اللغة العربية الموروثة. إذ هو يأتي بصيغة الماضي الحاصل والذي انقضى زمنه، ثم يتبعها بكلمة (غدا) التي هي شحنة مستقبلية. وكان من المفروض حسب القواعد المتعارف عليها أن يورد الفعل (حدّث) في المضارع مجرّدا من حرف التسويّف أو

مسيبوقا به (مَا يَحْدُثُ لِي غَدًا، أَوْ مَا سَيَحْدُثُ لِي غَدًا، أَوْ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ لِي غَدًا)....(62)

إنّ تلقّي القارئ لمثل هذه العناوين الصّادمة يدفعه لا محالة إلى اتّخاذ جملة من المواقف التي حدّدها (مخلوف عامر) كالتالي:

- أن يرفض هذا التّركيب أصلاً لأنّه يعده غريباً على اللّغة العربيّة.
 - أن يتخذَ موقف السّخرية منه، وربّما السّخرية والرّفص معاً.
 - أن يقبله ضاحكاً ومتأمّلاً، لأنّ الحكماء قديماً حين كانوا يجمعون في كلامهم بين الجدّ والهزل، إنّما كانوا يتوقّعون أصنافاً من القراء. صنف منهم لا يتعدّى حدود الطّابع الهزلي لما يقرأ، والثّاني لا يكتفي بذلك بل يضيف إليه فهماً ووعياً، والثّالث يتعدّى ذلك كلّهُ إلى العمل بالحكمة التي استوعبها وهو المطلوب من الحكمة في نهاية المطاف. (63)
- أمّا عن عنوان قصّة (وفاة الرّجل الميت) يكشف عن جانب كبير من الغرابة والخروج عن السّائد، حيث يتكوّن من ثلاث وحدات دلالي (وفاة/مصدر، الرّجل/اسم مفرد، الميت/صفة).

والتأمّل لهاته الوحدات الدلالية يلمس تناقضاً يثير اللبس؛ فكيف بالكاتب أن يجمع كلمتين في حقل دلاليّ واحد (الموت/الوفاة) ويجعلهما في الرّجل ذاته. إنّ استخدام مثل هذه العناوين الصّادمة يخالف قواعد اللّغة دلاليّاً رغم نحوية الجملة، فلو استخدم (وفاة الرّجل)، أو (الرّجل الميت) لكان ذلك مناسباً.

أمّا عن القصّة الموسومة (أحذيتي وجواربي وأنتم) فنلمس فيها تلك النبرة الدفيئة، نبرة الاستهزاء والسّخرية والتهمك. يقول في موضوعها الأول المعنوّن بـ (اعتذار): "تريدون أن أعتذر! لا أجد في زوادتي سوى أجراس الحقّ وتعابير الدفلى، لا أجد سوى الجمل الدّاهية إلى المشنقة، فهاكم واحدة: حذائي وجواربي وأنتم. هكذا يبدأ ترتيب القيم في قيامتكم القائمة وفي حضرة الأقيية، ثمّ السّلام عليكم إن شئتم قليلاً جدّاً، لا حول ولا قوّة لأزيدكم جرعة واحدة بحجم المهزلة. هذا أنا. اليوم وغدا". (64)

هكذا نجدالمفارقةعلمستوى العنونة في المجموعة القصصية البوطاجينية تحمل أبعاداً فكريةً بلغة غير مألوفة تثير الدهشة والاستغراب أحياناً، والضحك أحياناً أخرى (الظاهر/الجليّ مضحك والضمير/الخفيّ مبكّ)، وكلّ هذه العناوين المفارقةية تعبّر عن كاتب وقع ضحيةً لمفارقات عديدة.

الإحالات:

- 1) ابن منظور، جمال الدّين محمد بن مكرم: لسان العرب ، ط6 ، دار صادر ، بيروت، المجلد العاشر ، مادة "فرق" ، د.ت، ص299.
- 2) الجوهرى إسماعيل بن حمّاد: الصّاح ، تق: عبد الله العلابي ، ط1 ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، مادة "فرق" ، 1974م ، ص 239.
- 3) الزمخشري محمود بن عمر: أساس البلاغة ، تح: محمد باسل عيون السود ، ج2، ط1، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 ، ص 393.
- 4) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ، د.ط ، بيروت ، 1994 ، ص 469.
- 5) جبور عبد النور: المعجم الأدبيّ، ط1، دار العلم للملايين، 1977، ص258.
- 6) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د.ط، دار الكتاب، بيروت، 1985، ص162.
- 7) ينظر/ محمّد جواد حبيب البدراني: الذات المتشظية والعالم المأزوم دراسة مفارقةية، بحث ضمن واقع المؤتمر الدّولي (الأدب والعولمة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تشرين، اللاذقية، 4-7/4/2011.
- 8) د.سي ميويك: المفارقة و صفاتها ، موسوعة المصطلح النّقديّ ، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر ، بيروت ، مج 04 ، 1993م ، ص 258.
- 9) المرجع نفسه: الصفحة ذاتها.
- 10) نبيلة إبراهيم: فنّ القصّ بين النظرية و التّطبيق ، د. ط ، مكتبة غريب ، مصر ، د . ت ، ص 197.
- 11) المرجع نفسه : ص 198.

12) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، 2002م، ص 46.

13) محمّد العبد: المفارقة القرآنيّة ، دراسة في بنيّة الدلالة ، ط1 ، دار الفكر العربيّ ، القاهرة ، 1994 م ، ص 15.

14) يمنى العيد: فنّ الرّواية العربيّة ، د . ط ، دار الأدب ، القاهرة، د . ت ، ص 41.

15) ناصر شبانة: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، ص78.

16) نبيلة إبراهيم: المفارقة، مجلّة فصول، ص136.

17) المرجع نفسه، ص136.

18) ناصر شبانة: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، ص61.

19) سامية محرز: المفارقة عند جيمس وإميل حبيبي، مجلّة البلاغة المقارنة، المجلّد

الرّابع، العدد الرّابع، 1984، ص36.

20) ناصر شبانة: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، ص83.

21) نبيلة إبراهيم: فن القصّ بين النظرية و التطبيق ، ص 201.

22) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ، ص 54.

23) ينظر/ Linda Hutcheon, Irony Edge– The Theory and politics of

Irony, Routledge, London and New York, 1995, p58. نقلاً عن/

يوسف عليّات: جماليّات التّحليل النّقّافي، الشّعر الجاهليّ نموذجاً، ط1، دار الفارس

للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 2004، ص274.

(24) المرجع نفسه، ص275.

(25) ينظر/ Linda Hutcheon, Irony Edge – The Theory and politics

of Irony, p58. نقلاً عن/ يوسف عليّات: المرجع نفسه، الصّفحة ذاتها.

(26) عبد القادر الرّياضي: صوّر من المفارقة في شعر عرار – قراءة من الدّاخل، ضمن

كتابه: عرار الرّؤيا والفنّ – قراءة من الدّاخل، دار أزمنة للنّشر والتّوزيع، عمّان،

الأردن، ط2002، ص1، 143. نقلاً عن/ يوسف عليّات: المرجع نفسه، ص276.

(27) Frederick Garber: Self ,Text ,and Romantic Irony– The

example of Byron ,princeton , New jersey– Princeton University

press, 1988, p200. نقلاً عن /يوسف عليّات: المرجع نفسه والصّفحة

- (28) ينظر/ بوحجام محمّد ناصر: السّخريّة في الأدب الجزائريّ الحديث ، د . ط ، مطبعة العربيّة ، 2004 م ، ص 19.
- (29) ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم: لسان العرب ، ص 352.
- (30) سورة الحجرات : القرآن الكريم ، الآية 11.
- (31) سورة التّوبة : القرآن الكريم ، الآية 79.
- (32) سورة هود : القرآن الكريم ، الآية 38.
- (33) ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم: لسان العرب ، ص 353.
- (34) عبد اللّطيف حمزة: حِكَم قراقوش، سلسلة الهلال، دار الهلال، ع374، فبراير، 1982، ص83.
- (35) P.Robert: petit Robert. Le Robert–paris.1982.p.1032.
- (36) اليافي: دراسات فنيّة ، ص 618.
- (37) نعمان طه: السّخريّة في الأدب العربيّ، ط1 ، دار التّوفيق، القاهرة، 1398هـ، ص13.
- (38) سليمان محمّد شبانة: الرّسوم السّاخرة في الصّحافة ، د . ط ، شركة العبيكان للطّباعة والنّشر ، الرّياض، ص 09.
- (39) ينظر/ بوحجام محمّد ناصر: السّخريّة في الأدب الجزائريّ الحديث ، ص 32.
- (40) قحطان رشيد التّيمي: اتّجاهات الهجاء في القرن الثّالث الهجريّ ، د.ط ، دار المسيرة ، بيروت ، د.ت ، ص 356.
- (41) أحمد يوسف خليفة: السّخريّة في أدب عبد الله النديم ، د . ط ، مكتبة نهضة الشروق، 1995م ، ص 29 .
- (42) ينظر/ تخطئة الشّعراء والمجاز السّاخِر، قراءة في المصطلح والوظائف النّقديّة، صالح أزوكاي، ضمن أبحاث في الفكاهة والسّخريّة، الورشة الثّانيّة المقدّمة إلى فريق البّحث في الفكاهة والسّخريّة في الأدب والثّقافة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة بن زهر، أغادير، المغرب، ص100.
- (43) المرجع نفسه، الصّفحة ذاتها.
- (44) علي جعفر علاق: الدلالة المرئيّة، قراءات في شعريّة القصيدة الحديثة، ط1، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 2002، ص30.
- (45) المرجع نفسه، الصّفحة ذاتها.

- 46) عبد النَّبِيِّ ذَاكِر: العَيْن السَّاخِرَة، أَقْنَعْتَهَا وَقَنَاعَاتُهَا فِي الرِّحْلَة العَرَبِيَّة، ط1، المَرْكَز المَغْرِبِي لِلتَّوْثِيقِ وَالتَّبْحَثِ فِي أَدَبِ الرِّحْلَة، سَور الأَزْبُكِيَّة، مَارِس، 2000، ص13.
- 47) المَرْجَع نَفْسُه : الصَّفْحَة ذَاتُهَا .
- 48) إِبْرَاهِيم المَازَنِي: حِصَاد الهَشِيم، د.ط، مَطْبَاع دَار الشَّعْب، القَاهِرَة، د. ت، ص 306.
- 49) بُوْحَام مَحْمُود نَاصِر: السَّخْرِيَّة فِي الأَدَب الجَزَائِرِي الحَدِيث ، ص 33.
- 50) يَرْجَع إِلَى/عَبْد الحَمِيد عَقَار: الرِّوَايَة المَغَارِبِيَّة، تَحْوَلَات اللُّغَة وَالخَطَاب، ص136.
- 51) عَبْد النَّبِيِّ ذَاكِر: اسْتِرَاتِجِيَّاتِ السَّخْرِيَّة فِي رِوَايَة اِيْمِيلْشِيل، فِصُول، م12، ع2، 1993، ص317.
- 52) حَامِد عِبْدُه الهَوَال: السَّخْرِيَّة فِي أَدَب المَازَنِي، د.ط، الهَيْئَة المِصْرِيَّة العَامَّة لِلْكَتَاب، 1982، ص16.
- 53) نَبِيلَة إِبْرَاهِيم : المَرْجَع السَّابِق ، ص 213.
- 54) يَنْظُر / مَحْمُود بُوْعَزَة : مَن النَّصِّ إِلَى العِنْوَان ، ص 408. نَقْلًا عَن/ حَافِظ المَغْرِبِي (عِتَابَاتِ النَّصِّ وَالمَسْكُوتِ عَنه ، قِرَاءَة فِي نَصِّ شَعْرِي) - مَجَلَّة قِرَاءَات - جَامِعَة مَحْمُود خِيضِر ، بَسْكَرَة - العِدَد 3 - 2011 ، ص 160.
- * أَجْرِي الحِوَار بِمَدِينَة مَسْتَعَانَم يَوْم الجُمُعَة : 03 ذِي القَعْدَة 1435 هـ المَوَافِق ل 29 أَوْت 2015 م عَلَى السَّاعَة العَاشِرَة صَبَاحًا (10:00 سا).
- 55) مَحْمُود بَازِي: العِنْوَان فِي النُّقَاطَة العَرَبِيَّة، التَّشْكِيل وَ مَسَالِك التَّأْوِيل، ط1، مَنشُورَات الاِخْتِلَاف، الجَزَائِر، 2002 ، ص 19
- 56) المَرْجَع نَفْسُه : ص 19 - 20 .
- 57) عَز الدِّين جَلَاوَجِي : العِتَابَاتِ وَ التَّحْوَل فِي رِوَايَاتِ الطَّاهِر وَطَار - مَجَلَّة قِرَاءَات - جَامِعَة مَحْمُود خِيضِر ، بَسْكَرَة - العِدَد 3 - 2011 ، ص 31.
- 58) مَخْلُوف عَامِر: مَظَاهِر التَّجْدِيد فِي القِصَّة القَصِيرَة بِالجَزَائِر، دِرَاسَة، ط2، دَار الأَمَل لِلنَّشْرِ وَ التَّوْزِيع ، تِيْزِي وَزُو، 2008، ص 110.
- 59) مَحْمُود الصِّدِيقِ بَغُورَة: مَقَالَات فِي الأَدَب الجَزَائِرِي القَدِيم وَالحَدِيث، ط1، دَار الكِتَاب العَرَبِي لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع ، الجَزَائِر، 2007 ، ص 29.
- 60) السَّعِيد بُوَطَاجِين : اللُّعْنَة عَلَيكُمْ جَمِيعًا، ط1 ، مَنشُورَات الاِخْتِلَاف، الجَزَائِر، أَكْتُوبَر 2001 ، ص 35.

61) المرجع نفسه : ص 93.

62) مخلوف عامر : المرجع السابق، ص 110.

63) المرجع نفسه : الصفحة ذاتها.

64) السعيد بوطاجين : أهديتي وجواربي وأنتم، ط2 ، منشورات دار أسامة للنشر

والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 9.

الحجاج من المنطق السوري إلى البلاغة الجديدة

أ.حنيفة بداش

جامعة برج بوعريريج

الملخص:

تصدرت بلاغة الإقناع الواجهة بعد إهمال أقصاها من دائرة الاعتبار المعرفي وهذا مدين "لبيرلمان" Perelman " الذي اهتم في نشاطه المعرفي بالمنطق السوري والفلسفة التحليلية، وبعدها انكب على دراسة المنطق غير السوري (الاستدلال الطبيعي) ويكون بذلك قد ألبس الخطابة ثوبا جديدا حتى أصبحت "خطابة جديدة"، بلاغة جديدة (الحجاج) argumentation'وهذا الأخير يقع في منطقة وسطى بين الخطابة والجدل، لكن الحجاج تجاوز الجدل كونه أوسع منه (كل حجاج جدل وليس كل جدل حجاج) كما أن الحجاج ليس هو الخطابة عينها لاختلافات جوهرية بينهما، ومن جانب آخر تم التمييز بين حجاج جدلي وآخر خطابي، وكل هذه التحولات المعرفية الإبستمية تحت مظلة التداولية.

كلمات مفتاحية: الحجاج، بلاغة الإقناع، التداولية، الاستدلال الطبيعي، الخطابة، الجدل.

Résumé:

Après une négligence qui l'avait éloigné du cercle de la prise en compte cognitive, la rhétorique de la persuasion a repris place dans la scène grâce à **Perelman** qui a donné de l'importance dans son activité cognitive à la logique formelle et à la philosophie analytique, et qui a ensuite entrepris l'étude de la logique non formelle (raisonnement et inférence naturelle). Il aura ainsi donné à l'éloquence un nouvel habillement pour qu'elle devienne «une nouvelle rhétorique», une nouvelle

éloquence (l'argumentation) et cette dernière se situe dans une zone médiane entre l'éloquence et la polémique, mais l'argumentation est plus large que la polémique (toute argumentation est polémique et non pas toute polémique est argumentation), aussi l'argumentation n'est pas l'éloquence elle-même car il y'a des différences fondamentales entre elles, et d'autre part, une distinction a été faite entre une argumentation polémique et une autre argumentation locutoire, et toutes ces transformations cognitives épistémologiques rentrent dans le cadre de la pragmatique.

Mots clefs: *argumentation, rhétorique de la persuasion, la pragmatique, le raisonnement naturel et l'inférence naturelle, l'éloquence, la polémique.*

الخطاب الإقناعي يحضر في كل مظاهر الحياة اليومية عبر مقالة أوجريدة أو برنامج إذاعي أو ملصق إشهاري وغيرها من وسائل الاتصال والتواصل كما يحضر في واجهات أخرى (المرافعات المناقشات السياسية المنتديات الفكرية، القضائية...) . هذا التعدد والتوسع ساهم في تعدد مباحثه واختلاف الآليات التي اعتمدت لمقاربة مختلف أنواع الخطاب والتخاطب (المنطق، علوم اللغة وغيرها من الحقول التي تهتم بتحليل كل أنواع الخطاب، وتتناول مختلف التفاعلات التواصلية والتناظرية) وتنامي الدرس الذي اهتم بمعالجة مختلف التفاعلات التواصلية والتناظرية، وهدفها الرئيسي هو التمكن من مختلف الأوضاع التي يتطلبها كل مقام حجاجي وتناظري، وقد اتضح هذا بشكل جلي بعد أن تبين بأن الظواهر التي كانت السند الرئيسي للقائلين بضرورة استبعاد اللغة الطبيعية لصالح اللغات الصورية أصبحت تشكل مصدر ثراء هذه اللغة الطبيعية (ذلك يخلق أنساقا منطقية تستجيب لخصوصيات اللغة الطبيعية) مما فتح المجال للاهتمام مجددا بالخطابة والأساليب التدليلية غير الصورية (الطبيعية) بأن ظهرت توجهات حوارية وتخطبية متعددة ومتنوعة المسالك والآليات ليتبين بموجب ذلك عجز المنطق بمفهومه التقليدي من الاستجابة لمتطلبات التفاعلات الحجاجية في مظهراتها العادية، وتحليلاتها اليومية؛ النظرية منها والعملية.

لقد كانت البداية مع التداولين السوريين، حين انتقدوا مواقف الدالين السوريين نتيجة استنادهم إلى البعد الماصدي وتقديم اللغة الصورية على الطبيعية فعمدوا إلى تبني التصور المفهومي كونه القادر على الاستجابة لمختلف متطلبات الخطاب الطبيعي وشكلت أبحاث "مونتغو" Montague الإطار النظري لهذا التوجه بالأخذ بالآليات المتعلقة بالإسناد التأويلي لمعنى العبارة في المستوى الذي لم تبحث فيه الداليات الصورية فانصب اهتمامهم على التعبيرات الإشارية لما تكشف عنه من خصوصيات تخص الخطاب الطبيعي لكن علارغم من هذا البعد الإشاري والمنحى التداولي فقد بقي هذا التوجه قريبا من مقارنة الداليات الصورية (حتى سميت بالداليات المفهومية أو التداوليات الدالية)⁽¹⁾.

أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية عقد الخمسينيات حتى الآن عبر ثلاثة آفاق متباينة في أهدافها وبرامجها، ولا تتعلق هذه الآفاق بالاتجاهات الداخلية للدراسات البلاغية الجديدة فحسب؛ وإنما تمثل طرائق مختلفة في منظور التجديد وأدواته المنهجية، وقد سارت أثناء نموها في المنعطفات التالية:

أولها ميلاد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958 في عنوان كتاب موسوم بـ: "مقالفي البرهان: البلاغة الجديدة " Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique، من تأليف المفكر البولوني "بيرلمان" Perelman، وما يحسب لهذا المؤلف محاولته إعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية، باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر.

وأخذ هذا الاتجاه من الدراسة فيما بعد اسم "مدرسة بروكسل"، وقد تشكلت منها عدة فروع وتيارات متخالفة فيما بعد، إذ انبثقت من دراسة المنطق القضائي لكن تجاوزته إلى الفلسفة والإيديولوجيا، حتى انتهت في آخر عقد الثمانينات إلى ما يطلق عليه أزمة الشكلانية والطبيعية الجديدة، وأهم جانب تركب عليه هو الوظيفة التواصلية للغة، والجدير بالذكر أنها مرتبطة بالبلاغة الكلاسيكية؛ ذلك أن الذي يشتغل في الخطاب البرهاني يهتم بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان.

هذا الجانب بمثابة الإشعاع المعرفي الاستيممي الذي أضاء فيما بعد خاصة بين أحضان البنية النقدية ذات النزوع الشكلاني الواضح (فقد نشأ في منتصف الستينيات من هذا القرن) ولم تكن لها علاقة تذكر ببلاغة "بيرلمان" المنطقية، وما تميزت به خروجها عن النمط التقليدي للبلاغة الفيلولوجية، ويمثلها جماعة من الباحثين (البلاغيين الجدد) مثل: جيرار جنيت Gérard Genette، جان كوهين Jean Cohen، تودروف Tzvetan Todorov، جماعة م (ليجا) Goupe MU ويلتقون في كثير من مبادئهم وإنجازاتهم بممثلي الدراسات المجازية واللغوية في الثقافة الإنجليزية والأمريكية مع اختلاف واضح في المنهج والغاية وما يميز دراساتهم أنهم يستمدون الفهم المعرفي من تيارات تحديثية تتزامن مع حركات تجديد أخرى، مثل النقد الجديد، السينما الجديدة.

ليظهر اتجاه ثالث لتحليل الخطاب "المنهج الوظيفي" والذي يعتمد في شق كبير منه على المنحى التداولي وقد تحول إليه في نهاية السبعينيات بعض أنصار التيار الثاني -البنوي- ومنهم "تودروف" الذي أقر عام 1979 بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة⁽²⁾.

ويمكن إرجاع هذه النهضة البلاغية إلى سبب رئيس خاصة في مجال التنظير إلى الاهتمام المتزايد باللسانيات التداولية والالتفاف حولها، واعتناقها كمرجع معرفي جديد خصب ونشط، ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الإيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقييمها⁽³⁾.

وهكذا إلى أن تغير مسار البلاغة؛ إذ لم تعد محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم؛ بل نزعت إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فقد وسعت حدود الخطابة من خلال دمج الفلسفة بالعلوم الإنسانية، والتحاور اليومي وكل هذا تحت عباءة البلاغة الجديدة.

فلم يعد هدفها المنشود هو إنتاج النصوص بل تحليلها. إن تصورا من هذا القبيل يتضمن أمرين: أولهما ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا لا لدراسة النصوص الأدبية وحدها؛ بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها، والفكرة الثانية هي أنّ كل نص بشكل ما هو بلاغة كونه يملك وظيفة تأثيرية.

وهكذا يمكن القول أن البلاغة تمثل منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير، فقدعلا مقام المستمع (القارئ) وجعل تابعا لمقصدية الأثر، ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول؛ إذ أقحم في دائرة البلاغة كل المخاطبين بغض النظر عن نوعية المستمع (المتلقي)، وبالتالي توسيع حدود الخطابة وغزت الحياة السياسية، الاقتصادية،... وهذا النشاط والحراك اللغوي يوفر كما من الحجاج⁽⁴⁾.

لقد عادت بلاغة الإقناع للواجهة بعد إهمال أقصاها من دائرة الاعتبار المعرفي هذا مدين تاريخيا "لبيرلمان" الذي اهتم في نشاطه المعرفي بالمنطق الصوري والفلسفة التحليلية، إلا أن دراساته المبكرة حول البلاغة والفلسفة قادتته إلى التمييز بين المنطق الصوري الحديث المستند إلى الرياضيات والقيم *valeurs*؛ أي المبادئ العامة التي تؤسس الخلفية الأخلاقية لتدبير الديمقراطيات المعاصرة (العدالة، المساواة، المسؤولية عن الأفعال) وهذا ما زادا من اهتمامه بأشكال الاستدلال العلمي، ومع تيتكا *Tetka* التي ارتبط تكوينها بعلم النفس الاجتماعي وبلاشتغال على القيم التي تحكم العلاقات الإنسانية وتتنظم المبادلات الخطابية، سينكب "بيرلمان" على متابعة المنطق غير الصوري ودراسة النصوص والتقاليد الحجاجية ضمن مسح امتد عميقا إلى الحقبة اليونانية أساسا من أرسطو، وهناك عدة ظروف سياسية خاصة أدت إلى تغذية هذا المنحى اللغوي الفلسفي -البلاغة الجديدة، الحجاج-، إذ نجد الباحث "جورج فينو" *Gorge Vignaux*، يغزو مشروع "بيرلمان" في إحياء بلاغة الإقناع إلى عوامل سياسية، ارتبطت بتأثره بالإبادة الجماعية التي تعرض لها الشعب اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية، والذي كان يبرمج هذه الإبادة الخطب النازية لهتلر، مما جعل "بيرلمان" يقتنع أن الكلام غير المنضبط المستند إلى المطلق قد يقودان إلى اللاعقل والتخريب والموت⁽⁵⁾.

كما أنّ خطاب الأحزاب الشيوعية الأوروبية المهاجمة للديمقراطيات البرجوازية قويا ومشحونا، ورأى بيرلمان فيه صدى للخطابات التوتاليتارية السابقة وحسب "بيرلمان" فلا عدل دون محاجة ولماحاجة إيجابية دون تنظيم النقاش العمومي؛ أي ضبط الحجة التي تحكمه.

كما لعبت المتطلبات المعرفية دورا هاما في إرساء هذا الاتجاه من البحث، إذ تميز القرن العشرون ابستيميا بوصفه قرنا للإشهار والدعاية، مما جعل الحضارة البشرية موسومة بمهارتها المتطرفة في التقنيات الخاصة بالتأثير على الأشياء، وليس انطباقا لاستراتيجيات التأثير من بلاغة الإقناع التي دافع عنها وطورها "بيرلمان". وهذا النزوع العام نحو بلاغة الإقناع كان إجابة معرفية عن مأزق المنطق السوري وعجزه في الفكر المعاصر عن التعامل مع القضايا التي تنفلت من الاختزال الشكلي والحساب، وهذه المجالات التي لا تقوم على الضرورة والبداهة، هي ما يشكل موضوع الحجاج وأن المجالات التي لا يتعلق فيها الأمر بالمفضل والمقبول والمعقول، فالاستدلالات ليست استنباطات شكلية أو استقرارات بل حجاجات، من هنا يمكن القول أن الحجاج مسار آخر للاستدلال يتصدى لفكرتي البداهة والحتمية. فمجال نظرية الحجاج انطلقا مما سبق: "هودراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة " .

وعليه فإن الانسجام مع الفروض والمواقف هو محور الحجاج، فمدار الأمر إحداث تأثير عملي يمهد له تأثير ذهني، وهكذا العمل على الإقناع⁽⁶⁾. وعليه فإن مفهوم الاستدلال -الذي ذكر سابقا، وأشكال الاستدلال العلمي عند بيرلمان- قد تغير وأخذ بعدا لغويا؛ إذ يعتمد القائم بعملية الاستدلال على كفايته اللسانية والمقام والمبادئ العامة للحوار والقواعد الخطابية فنجاح عملية التواصل اللفظي *verbale* يتوقف على الطابع القصدي للرسالة، وعلى الاستدلالات التي يقوم بها المخاطب، إذ يقوم هذا المرسل بمجموعة من الاستدلالات غير البرهانية اعتمادا على المبادئ العامة للتواصل والنتيجة المحصل عليها من نجاح العملية التواصلية وموافقته لمقاصد المتكلم⁽⁷⁾.

وإذا عرضت جميع الأقوال التي دلت بدلوها في المنطق ومسألة الحجاج، فهناك من يرى أن الحجاج في اللغة يتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد الحجاج منتما إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو أو البلاغة الحديثة لبيرلمان، اولبريخت Ulbricht، تيتكاميار Meier...) أو منتما إلى المنطق الطبيعي "جان بلز غريير" Jaen Greer.

إن النظرة التي صاغها الفرنسي "أوزفالد ديكرود" Ozvald ducrot في 1973 نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانيات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق أهدافه الحجاجية والمنطلق من فكرة إننا نتكلم عامة بقصد التأثير⁽⁸⁾.

إن همّ الباحثين ليس بناء الحجاج على الأسس الفلسفية أو المنطقية أو البلاغية، ومن ثم لم ينشغلا بوقائع الإقناع؛ بل بحثا الدور الحجاجي الذي يلعبه الكساء اللغوي لهذه الوقائع، ولذلك انتهيا إلى أن اللغة تحمل في طياتها بعدا حجاجيا كامنا في بنيتها الداخلية مسجلا فيها وليس عنصرا مضافا إليها وبذلك فمعنى الأقوال لا تتفصل عن طابعها الحجاجي⁽⁹⁾.

ومع طرح ديكرود اقترب الحجاج من الخطاب بصوره وأشكاله وتراكيبه اللغوية اللسانية المختلفة فالهوية بين الحجاج والمنطق الصوري والجدلي تزايد مع كل نظرية لغوية لسانية جديدة.

ولكي يتضح مفهوم الجدل لا بد من مقارنته بمفهوم البرهنة أو الاستدلال المنطقي، ومن ذلك أن الخطاب الطبيعي ليس خطابا برهانيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يقدم براهين وأدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي، فلفظة الحجاج تعني البرهنة على صدق إثبات من وجهة نظر منطقية، ومن خلال هذه الأمثلة يتبين الفرق بينهما:

كل اللغويين علماء

زيد لغوي

إذن زيد عالم⁽¹⁰⁾

انخفض ميزان الحرارة

إذن سينزل المطر

ففي المثال الأول قياس منطقي حتمي وضروري لأسباب علمية، أما المثال الثاني فإنه لا يعدو أن يكون حجاجا أو استدلالا طبيعيا غير برهاني، لأن نزول المطر يقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشطر الأول من الجملة وهو استنتاج احتمالي⁽¹¹⁾.

ومن هنا يمكن الجزم بتميز الاستدلال الطبيعي (الحجاج) عن الاستدلال الصوري (البرهان) حيث أن البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتيب صور العبارات بعضها على بعض، بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها⁽¹²⁾.

أما حدّ الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، وهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، وهو جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، والانتقالات فيه لا تبنى على صور القضايا و حدها كما في البرهان؛ بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها بشكل كبير وأن يطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والنتائج، وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا، كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم، بذلك يكون الحجاج الفلسفي التفاعلي فعالية استدلالية خطابية مبناه على عرض رأي أو الاعتراض عليه⁽¹³⁾.

ويرى "عليوي أبا السيد" في كتابه الحجاج في التفكير النقدي أن المنطق غير الصوري أقوى حركة للدراسات الحجاجية، ونظر إليه في بداية الأمر باعتباره دلالة على المعاني الخطابية للحجاج، وإذا كان المنطق غير الصوري قد اخذ المجال الحجاجي كأرضية خصبة للدراسة وبذلك سعى إلى بناء مقارنة فلسفية ذات منحى معياري تصويري⁽¹⁴⁾.

وهنا منبت التمايز بين منطق صوري وآخر أوغل في الخطابات الطبيعية أو الاستدلال الطبيعي وقد تم توضيح ذلك سابقا

ذكر في كذا موضع من الطرح السابق مصطلح الجدل مرة مصاحبا للحجاج ومرة أخرى منفصلا عنه وهذا أمر ضروري كون البحث يدور في فلك المنطق الحجاج الخطابية البلاغة الجديدة، وهناك تعانق، علائق مشتركة بين هذه المصطلحات، فلا نستطيع أن نمر مرور الكرام على هذه المدلولات دون ضبط الفارق الدقيق الموجود بينها، لنسير بأمان فيما بعد ولا نقع في منزلق الخلط بين هذا

وذلك، فمثلاً فرقنا بين المنطق الصوري والاستدلال الطبيعي وجب التفرقة بين (الجدل الحجاج الخطابية) وتوضيح العلاقة بينهما طبعاً إن وجدت.

فالمنطلق يكون من تعريف الحجاج مثلما وضح ذلك "عبد الله صولة" في قوله "الحجاج على ضربين: ضرب أنت فيه لا تبرح حدود المنطق، وهو ضيق المجال ومرادف للبرهنة والاستدلال، إذ هو يعنى بتتبع الجانب الاستدلالي في المحاجة وهو ضرب واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو القارئ، يتخذ هذا التعريف منطلقاً لتحديد علاقة الحجاج بالجدل من جهة، وبالخطابة من جهة أخرى؛ فالحجاج ثلاثة مفاهيم على الأقل، مفهوم يجعله مرادفاً للجدل (خاصة عند القدماء وبعض المحدثين من العرب). ومفهوم يجعله قاسماً مشتركاً بين الجدل والخطابة، خاصة عند اليونان (أرسطو) ومفهوم له في العصر الحديث في الغرب وهو أدق وأوضح وأعمق، ذلك أن الحجاج اخذ في الاستواء مبحثاً فلسفياً قائم الذات مستقل عن صناعة الجدل والخطابة⁽¹⁵⁾.

ولبيرلمان و تينكا وجهة نظر في هذا الموضوع- خاصة فيما تعلق بالعلاقة بين الحجاج الخطابية والجدل- مفادها أن ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في صحة فكرة ما، إن المحاجة تفترض أن هناك فكرة ما ينبغي تدقيقها والتشديد عليها وإن لم يكن الأمر كذلك يشوبها اللبس و حينها لا يمكن فرضها على المتلقي كما يلزم .

وتوجد فئة من خصوم الخطابة تنفي تعدد الحقائق، لأن ذلك يؤدي إلى التناقض وحينها يتصدى للدفاع عنها خطيبان مختلفان، ويمكن أن يؤمن بها جمهوران مختلفان، فالخطابة المنشودة هي تلك التي يراها أفلاطون في القدرة منضوية تحت مضلة الحقيقة وفي النهاية فإن النتائج العملية التي ينبغي التوصل إليها من دراسة الواقع نتائج تفرض نفسها على كل عاقل ومن هذا المنطلق يلغى الحجاج مادامت الأمور واضحة بنفسها كما أن المرسل هنا يسقط دوره الجوهري (فاستدلالاته لا زمنية)⁽¹⁶⁾. وليس همه معرفة خصوصية المتلقي (الجمهور هنا مادامت خطابية) فعلى الجميع النقل بموضوعية كاملة - إن هذا الطرح يتناقض والهدف المنشود من كل خطاب؛ إذ سيلزم الربط بين عناصر السياق المختلفة ووظائف اللغة كما حددها

"جاكسون" بالإضافة إلى ضرورة الاستعانة باستراتيجيات مختلفة لبلوغ الهدف من عملية التواصل، ونقل الرسالة على أكمل وجه فالاتجاه السابق حرض مجموعة من الفلاسفة على إيجاد البديل فقد وضعوا في الحسبان إلى جانب العقل أهواء الإنسان ومصالحه التي من شأنها أن تتعارض مع ما يمليه العقل، إذ يكون الحجاج عندهم لغاية التأثير في الإدراك من ناحية أخرى (الأهواء).

الفكرة نفسها تحدثنا عنها سابقا وهي وجود ضربان من الحجاج، و على هذا الأساس يعقد أرسطو صنفان للحجاج: المواضع و الخطابة، في الأول سعى إلى مناقشة الأطروحات مناقشة نظرية منفصلة عن ذات أو ظرف معين-معيار التأثير العقلي المجرد- وفي الثاني -الخطابة- كان التركيز على المرسل إليه ومحاولة فهم خصوصيته، وهذا الخطاب غير معقول عكس الخطاب الحجاجي الأول و ربما تقسيم الحجاج على هذه الشاكلة عند أرسطو هو ما أدى إلى التمييز بين التأثير في الذهن (نظريا) وهذا هو موضوع الجدل، وبين التأثير في الإرادة (أي عمليا) وهذا هو موضوع الخطابة (17).

والخطابة عند أفلاطون مفيدة و نافعة، لأن الحق والعدل لهما قوة طبيعية أعظم من أصدادهما، فإن لم تصدر الأحكام كما يليق بها، فبالضرورة يهزم المدافعون بسبب خطئهم و إذن يتحقق جهلهم التويخ.

وهناك ما هو أكثر مما ذكر، وهو متى حصلنا على العلم الصحيح الدقيق، فقد يوجد صنف من الناس لن يسهل إقناعهم و نحن نقتبس خطابنا من هذا المصدر وحده، لأن الخطاب المقول حسب العلم ينتمي إلى التعليم ، ومن المحال استعماله في هذا المقام، حيث إن ضروب الأقاويل الخطابية ينبغي أن تدعن بالضرورة للمفاهيم العامة المشتركة .

إن الجدل والخطابة هما اللذان ينتجان الأضداد لأن كل واحد منهما يطبق على القضايا المتقابلة، وما يطبق على نحو من التشابه، لأن هذه المواد يمكن أن تكون ذات قيمة واحدة، لأن القضايا الصحيحة والقضايا الأكثر خلافا تكونان دائما بطبيعتهما أشد قبولا واختصاصا بالاستدلال القياسي والإقناعي (18).

ونخلص إلى أنه يوجد حجاجان جدلي و مقامي؛ فالجدلي لغاية التأثير العقلي المجرد، وتمثله في التراث العربي الإسلامي مناظرات علم الكلام وهو ما يسمى بعلم النظر (الاستدلال) وهو عند التهناوي علم يقدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج و دفع الشبه، بالإضافة إلى المناظرات الفقهية، وهو موجود في القرآن، كما تجتهد كتب علوم القرآن في استخراجها تحت عنوان جدل القرآن والمذهب الكلامي في القرآن أو الاحتجاج النظري في القرآن.

والحجاج الخطابي: فمن خصائصه انه موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة تتجاوز التأثير النظري العقلي إلى التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات⁽¹⁹⁾.

إن هذا النوع من التمييز بين النمطين مغلوطة، ووجه الغلط الأول يتمثل في الفصل بين العقل والهوى وهذا ربما يعود إلى أفلاطون في تصويره لقوى النفس. والثاني يتمثل في نزع كل تبرير عقلي عن العمل المبني على الاختيار.

وهذا الطرح يجنح إلى أن الحجاج غايته إحداث التأثير العملي الذي يمهده له التأثير الذهني (الجمع بين جدل أرسطو وخطابته) وحرك هذا الموقف رأيان فلسفيان: ففي مقولة ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود) فقد جعل ديكارت مجال هذا التفكير الصادق لا المحتمل، الذي هو مجال الجدل وخاصة الخطابة فالجدل والخطابة لا يكونان إلا حيث اختلاف الأحكام و تعددها، وهو ما يتماشى مع العقلانية المعاصرة التي قامت على أنقاض العقلانية الديكارتية.

والرأي الثاني مرتبط بالأول في بعض الوجوه فالحجاج -كما يرى بيرلمان- جعل بالإمكان الحديث عن فلسفة بدون أسس ميتافيزيقية (الربط بين الفكر والعمل) فالحقيقة لا يمكن أن تضعها الأنا الديكارتية؛ بل يشترك فيها المتكلم والسامع فالحقيقة تقع خارج الذات، وضامن الصحة فيها الواقع والعمل.

وفيما بعد تم جمع شتات الخطابة التي توزعت أجزاءه وتناثرت بين الفلسفة الجدل والأدب، فقد يكون التأثير في الذهن بواسطة الوسائل الخطابية وأهم نوع من أنواع الخطابة يحدث فيه هذا الضرب من⁽²⁰⁾. التأثير الخطب الأفوديقية (من أفوديقى معناه الإيضاح) الخطب المشوري يشير بما هو نافع وأفضل، الخطب المشاجري يدافع عما هو عدل، فإن نوع الخطب الأفوديقى البرهاني مداره على المدح والذم فيهتم بالقبح

أو الجميل. فقد جعل الحجاج حملا على الإقناع، جمعا بين الأفودقي المشاوري والمشاري. فبعث بذلك الخطابة في ثوب جديد هو الحجاج، فنظرية الحجاج أرب الى الخطابة منها ألى اللى الديالكتيكا أو الجدل⁽²¹⁾؛ فالحجاج أوسع من الجدل؛ إذ إن كل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل فهو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة⁽²²⁾.

ونجمع أشتات الاختلاف بين الجدل والخطابة: أن الجدل مداره النظر المحض في حين الخطابة همها الفعل الذي يمارسه الخطاب في الجمهور كما أن الجدل يتعلق بالأراء في عدة خصوصياته (أراء غير شخصية) في حين أن الخطابة مخصصة على الدوام، فلا خطابة بدون مقام وجمهور (حمل على الإذعان دائما) بعد هذه المقاربة بين الحجاج والخطابة تطرح إشكالية مهمة فهل الحجاج هو الخطابة؟ ولا بد من طرح هذه الإشكالية، ذلك أن من فرط مقاربة الحجاج بالخطابة يخشى من التضييل ويظن القارئ (المتلقي) أن الحجاج هو عتبة الخطابة .

الحجاج يختلف عن الخطابة من زاويتين:

أنّ الخطابة تحتاج إلى خطيب ومكان معين وجمهور معين، بينما جمهور الحجاج يمكن أن يكون عاما حاضرا أو غائبا ويمكن أن الحجاج بين شخصين متحاورين أو بين المرء ونفسه.

الثانية من جهة الخطاب:

إذ الخطابة تحصر الخطاب في ماهو شفوي، لكن الخطاب الحجاجي عند المؤلفين يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، وفي أثناء عملية الكتابة، فإن المؤلف (الكاتب) يستحضر الجمهور. والنتيجة هي بعث الخطابة في ثوب جديد أسموها الحجاج⁽²³⁾.

وهكذا تم تصحيح مصطلح مادة خطب وتقريبه من أغراض سيمانطيقا الخطاب وتداولية والانتقال إلى مرحلة سيادة الفكر اللساني المعاصر، وذلك من خلال الانتقال من الخطابة الكلاسيكية كما هي متداولة في الوقت الحاضر هو الخروج من الفكر الجدلي أو الخطابي الذي يرمي إلى القناع والدخول في فكر تداولي يهدف إلى انجاز الفعل⁽²⁴⁾.

فيكاد "بيرلمان" ينفرد بالتوجه البلاغي في دراسة الخطاب، إذ أعطى دورا أساسيا للمستمع: ودراسة الخطاب انطلاقا منه، لقد تمكن من إعادة الاعتبار للبلاغة الأرسطية وتجاوز التصور الذي اختزلها في البعد الجمالي، وحاول تخليصها من الهيمنة الصورية لجعلها إمبراطورية، إنها بلاغة تأخذ بعين الاعتبار المقام والمتكلم والمخاطب وظروفهم، وكذا ظروف إنتاج الخطاب وبذلك تصبح البلاغة في الإقناع والإمتاع في الوقت نفسه، كما بحث مع "تيتكا" في مختلف التفاعلات الحجاجية اعتمادا على المبادئ.

التي تؤسس منطلقا للقيم كما قام بتحديد نظرة خاصة للعلاقات القائمة بين ما هو مصرح به وما هو ضمني مقرا بضرورة قراءة البلاغة ضمن تصور توسعي يستحضر المنطق والشعر والفلسفة.

ويكون بذلك قد عاد إلى تصورات أرسطو كما وردت في كتابي "الجدل والخطابة"، بهدف وضع تصور يسميه "البلاغة الجديدة"، إنها نوع من الاقتران بين البعد العقلاني والبعد الاجتماعي، أي نظرية جديدة للحجاج ترد ضمن تصور بلاغي جديد يعيد الاعتبار للمقومات لحظة التأثير والإقناع، إذ يحتل السامع الدور المركزي في كل تحليلاته التي تسع إلى تدبر الخطاب الإقناعي، (سواء شخص واحد أو أكثر) وبذلك يكون قد وسع الحيز الذي رسمه أرسطو ليشمل كل مستمع، يستنتج أنّ الهدف الأسمى هو البحث عن نظرية للخطاب الإقناعي لكل مستمع متخيل (كل من تتوجه إليه بخطاب إقناعي)⁽²⁵⁾.

يتزامن ذكر الخطاب الإقناعي كمفهوم ذكر عناصر أخرى تتوارد معه أشهرها: الحجاج الخطابية الاتصال اللغوي، إشكالية أزمة التواصل مثل دور الخطيب طبيعة الخطب أشكالها... من جانب آخر يجب التمييز بين النص الخطابي الإقناعي والنص الشعري أو أي نص إنشائي آخر، لأن هذا يجافي الروح المنهجية التي تقتضي أخذ طبيعة الموضوع بعين الاعتبار عند تحديد منهج دراسته.

ومن أجل ذلك فصل أرسطو الخطابة عن الشعر؛ لأن النص الشعري يهدف إلى التخيل (ترويح عن النفس) وطبيعة الخطابة الهادفة إلى الإقناع الذي يستوجب التصديق والقيام بالفعل حسب الأحوال والاحتمال⁽²⁶⁾.

وقد استقر البعد الحجّي في الخطاب في الواجهة ليشكل الحقل المحوري للبحث لدى العديد من المهتمين مما دفع بالعديد من المناطقة إلى وجوب خلق أنساق منطقية تراعي مستلزمات الخطاب الطبيعي، أي أنساق تربط بالتداوليات المنطقية، وبالأبعاد الحوارية والحجاجية بشكل عام، وهكذا إلأن تشكل الوصل بين المنطق والحجاج مبحثاً للعديد من الحقول المعرفية منها: المنطق الطبيعي - فلسفة اللغة العادية، التداوليات المنطقية.. وهلم جرا.

وفي ظل هذا التعدد للأبعاد الدلالية والتداولية للخطاب اكتشف مجموعة من الفلاسفة هذا الطرح- تبنى أنساق منطقية طبيعية- وكانت المحاولات الأولى لتحليل الخطاب في بعده التواصلي والحواري مع "فنغشتاين" Wittgenstein ، ليأخذ هذا التصور أبعاداً أخرى متعددة المطالب ومتنوعة المسالك فيما يسمى: فلسفة اللغة العادية مع "أستين" Austin" وسيرل " Searl" وبول غرايس "Paul Grice"، وقد انضمت مدارس أخرى منطقية ولسانية وفلسفية وخصوصاً مع أصحاب المنطق الطبيعي ونظرية الحجاج، وفلسفة التواصل... غيرها من التوجهات (27).

الهوامش:

- 1- حسان الباهي: منهجية الحوار في التفكير النقدي، أفريقيا الشرق المغرب(الدار البيضاء) ط2، 2013، ص71-72.
- 2- ينظر، صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري (القاهرة) 2004، ص96.
- 3- ينظر، هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سمائي لتحليل النص، أفريقيا الشرق (المغرب) ط1، 1999، ص22
- 4- المرجع نفسه، ص24.
- 5- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، ط1، 2013، ص83.
- 6- المرجع نفسه، ص84-85.
- 7- حسن بدوح: المحاورّة مقاربية تداولية، عالم الكتب الحديث ط1، 2012 ص151.
- 8- أبو بكر الغزاوي: اللغة والحجاج، العمدة للطبع (المغرب) ط1، 2006، ص14.
- 9- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع، ص95.

- 10- ينظر، أبو بكر الغزاوي: المرجع السابق، ص14-15.
- 11- المرجع نفسه، ص15.
- 12- حسن بدوج، الحاورة مقارنة تداولية، ص132.
- 13- طه عبد الرحمان: أصول الحوار وتجديد الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب (الدار البيضاء)، ط2، 2000، ص65-66
- 14- ينظر، عليوي أبا السيد: الحجاج والتفكير النقدي مقارنة تداولية منطقية معرفية نقدية، دار نشر المعرفة '(الرباط)'، ص 44.
- 15- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت (لبنان) ط2، 2007، ص8-9
- 16- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات مسكلياني للنشر والتوزيع (تونس) ط1، 2011، ص16-17.
- 17- المرجع نفسه، ص17.
- 18- أرسطو: الخطابة، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق المغرب (الدار البيضاء) ط1، 2008.
- 19- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الاسلوبية، ص18.
- 20- ينظر، عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، ص18-19.
- 21- ينظر، المرجع نفسه ص19-21.
- 22- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 17.
- 23- ينظر، عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، ص 21-22.
- 24- أرسطو: الخطابة، تر عبد القادر قنيني، ص5.
- 25- حسان الباهي: الحوار ومنهجية التفكير النقدي: ص75.
- 26- ينظر عمارية حاكم: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، دار العصماء سورية (دمشق) ط1، 2014. ص7
- 27- حسان الباهي : الحوار ومنهجية التفكير النقدي ص73.

الرؤية السردية في مقدمات الهمداني (358-398هـ)

د. آمال كبير

جامعة تبسة - الجزائر

الملخص:

ليس الأدب مقولة تاريخية، وإن كان يجسد بعض مادية الواقع المفروض من خلال المتعاليات التي يوظفها ليمنح السؤال حقه المشروع في التنقيب عن الموهوم والمخفي والمعلن، دون الاهتمام بإساءة التأويل الذي يفتح المجال لمزيد من الأسئلة؛ وفي الأسئلة إثراء للنص وحياة للأدب.

يطرح نص المقامات رؤية مختلفة عن حدود ما تراها الشخصية الفاعلة داخل الحدث السرد القصصي أو ما تقوم به، حيث يمكن أن نعتبرها جسرا تمر من خلاله رؤية فنية وإنسانية يقصدها الهمداني بالتحديد، غير أن السؤال الذي يلح علينا عند قراءة المقامات فهو: هل كانت المقامات أنموذجا لغويا فنيا لواقع فعلي، أم أنها تصور لغوي لمرحلة فكرية ممكنة تقود إليها تاريخانية التطور الحضاري للمجتمع العربي العباسي؟

Résumé:

La littérature n'est pas de l'argument historique, même s'il possède une réalité physique imposée par transcendance textuelles qui employait pour poser la question dans l'exploration au sens illusion ou sens caché ou sens déclaré, sans prêter attention à l'abus d'interprétation qui ouvre la voie à

d'autres questions, et dans ses questions en trouve la richesse du texte et la vie de la littérature.

Le texte classique arabe "El makamet" pose une différente Vision pour ce que voyez la personnage actif dans la fiction narrative de l'événement ou ce que elle faite, où on peut envisager qu'elle possède un pont passer à travers la vision artistique et humanitaire qui propose vraiment "El hamadhani", mais la question qui insiste sur nous après lecture de "makamet" "El hamadhani" c'est: est-ce que "les makamets" été un modèle linguistique proposé pour une situation réelle, Ou s'agit-il d'une visualisation linguistique d'une possible étape intellectuelle dirigé par le développement de la société arabe abbasside?

1- بناء الرؤية في مقامات الهمذاني:

إن الهمذاني في مقاماته ينطلق بفعل القول قاصداً إلى تبيان رؤية معينة تجاه علاقته بالمجتمع العباسي، وما آل إليه من تحولات وتقمصات، لأنماط من السلوك المندرج تحت دائرة الانحراف القيمي أو الأخلاقي أو الثقافي "... أما التصنيفات التي يقدمها النقاد للرؤية في السرد فإنها تعتمد على تحديد موقع السرد ودرجة معرفته بالنسبة إلى الشخصية. فالسارد قد يعرف أكثر أو أقل أو مثل معرفة الشخصية. ولكن هذا التقسيم يمكن إثراؤها بمقارنة ما سبق مع درجة معرفة متلقي النص. نرى مصداق هذا في تصريح السارد بإخفائه بعض الحقائق عن القارئ، فهو هنا يحدد موقعه من خلال علاقته بالمتلقي... إننا أمام شخصية يمكن رؤيتها من الداخل أو الخارج، ويشترك أو لا يشترك في رصد الشخصية نفسها والسارد والشخصيات الأخرى والمتلقي... وإذا كنا ندرس السارد بناء على درجة إحاطته بما يروى له وما يخفى عنه، وما يفترض أنه يعرفه...¹⁶³ غير أن الكاتب يتوقف عن السرد في أوقات معينة لإدراكه أمرين، أولهما: أن المتلقي المقصود بالقول يكون قد فهم ما ألقى

¹⁶³ - سعيد الوكيل، تحليل النص السردى معارج ابن عربي نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1998، ص 68.

إليه، وثانيهما: أن المتلقي غير الجدير بالفهم يكون غير مقصود تماما أو مغيب قصدا عن فعل القول الأنف الذكر.

تبدو المقامات في ظاهرها صورة للتجربة والمعرفة التي يودّ التاريخ والأدب على السواء تقديمها للقارئ تفاديا لسوء التأويل الذي ألمحنا إليه سابقا "... فلا ريب في أن ذلك راجع إلى أن المقولات المستعملة لوصف الخطاب السردى قائمة في الواقع على ما يمكننا أن نسميه على سبيل التبسيط نموذجا للعالم الواقعي، فالأحداث، تبعا لهذا النموذج تقع بالضرورة بترتيب خاص وفي عدد من الأزمنة قابل للتحديد. ويتوفر المتكلم على أنواع معينة من المعلومات عن الأحداث وتوزع أنواع أخرى. وهو إما جربها أو لم يجربها، ويكون عموما في علاقة معينة بالأحداث التي يرويها. ومهما يمكن أن يكون هذا النموذج صحيحا، فلا شيء يمنع الحكايات من خرقه وإنتاج نصوص تتضمن تأليفات مستحيلة... تؤكد تأليفا بين المعرفة والجهل قد يكون أبعد احتمالا في العالم... وكثيرا ما يجوز أن تبدو الحكايات شاذة في غالب الأحوال، لأن نماذج من الإجراءات السردية تقوم دائما على نماذج من الواقع"¹⁶⁴ غير أن المعرفة في الأدب تضع لنفسها شروطا أبعد من المعرفة التاريخية، ولهذا لا نستطيع تقبل إحاطة الحدث السردى في المقامات بمفروض مسبق أو بمتوقع لاحق "حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذني عينه وتدعني. فقال: إن تصدق الطير فأنتم غرباء. فقلنا: كذلك: فقال: من القوم لله أبوكم. فقلت: أنا عيسى بن هشام وهذا أبو داود المتكلم. فقال: العسكري. فقلت: نعم. فقال: شأهت الوجوه وأهلها إن الخير لله لا لعبده. والأمور بيد الله لا بيده. وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبرا. وتموتون صبرا. وتساقون إلى المقدور قهرا. ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعكم. أفلا تتصفون... فليحزكم أن القرآن بغيضكم... إنما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث. ثم مرقت فأنتم خبث الخبيث. يا مخانيث الخوارج. ترون رأيهم في القتال. وأنت يا أبا هشام تؤمن

¹⁶⁴ - جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأردى، عمر حلى، ط 02، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص 28.

ببعض وتكفر ببعض... فبقيت وبقي أبو داود لا نحير جوابا ورجعنا عنه بشرّ وإنّي لأعرف في أبي داود انكسارا حتى أردنا الافتراق... قال: ما هذا والله إلا شيطان. في أشطان... فقال: لعلكما آثرتما أن تعرفا من أمري ما أنكرتما...

أنا ينبوع العجائب في احتيالي ذو المراتب
أنا في الحق سنام أنا في الباطل غارب
أنا إسكندر داري في بلاد الله سارب
أغتدي في الدير قسيسا وفي المسجد راهب " 165

وتبني المقامة هنا على فكرة الرؤية الفنية، وقدرتها على تقديم التجربة والمعرفة بشكل مختلف عن المباشرة والتسطيح، إلا أن الاحتيال يأخذ دروبا غير متوقّعه في شقها الواقعي مما يلّمح إلى إمكانية تحميل الخيال القدرة على النفاذ إلى عمق الخبر، وتقديم الواقعة مشيدة على بنية مصلحية لا تدعي قدرتها على استيعاب العالم، ولكنها تظل قادرة على استيعاب مختلف التصورات التي يقوم عليها المجتمع، مضمنا فكره خلاصة من التجارب المتعارضة الرؤية والتوجه (المجوس)، (الخوارج)... " وإذا كان الخبر المفرد قد وجّه، في معظم الأحيان، وجهة تفسيرية جراء ارتباطه المباشر بواقعه التاريخية، فإن اشتغال هذا الخبر ضمن (منظومة) يمنحه فرصة للحركة والتحول من (الإخبار) إلى (التمثيل) و (التخييل)، وإذا كان الإخبار قد مثل القاسم المشترك بين مجمل أنواع السرد العربية، فإن الأخيرين يكونان مسؤولين بدرجة واضحة عن انتظام مميزات النصوص، فالمساحة الصياغية التي يشغلها كل من (التمثيل) و (التخييل) تبدو أوسع، بالضرورة، من مساحة (الإخبار) بما يؤمن لها مجالا دلاليا يمكّنها من تقديم وصف أنثولوجي لمكوناتها الثقافية، ويؤمن لها حوارا أعمق مع أنساق إنتاجها؛ هذه الأنساق التي شهدت خلال مراحل مختلفة من حياة السرد العربي مظهرا نزاعيا تجسّد، على نحو واضح، في الصياغات النهائية للأخبار وقد خضعت لأكثر من طبيعة ثقافية عملت كل منها على توجيهها وجهة خاصة

¹⁶⁵ - بديع الزمان الهمذاني، المقامات، ط 01، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص 147، 150، 151، 152.

تناسب معطياتها وتتسجم مع أهدافها، مما يمكننا من إعادة قراءة بعض المنظومات الخبرية وهي تكثف مراحل إنتاجها وتسهم بإعادة قراءة وقائعها لتغدو تدوينا أيديولوجيا للعصر، تعيد القراءة، بشكل ما، تشكيلها عبر إعادة رصد منظومات أخبارها...¹⁶⁶ فعلى الرغم من أن المقامة في ظاهرة تبدو قائمة على تصورات ذاتية واهمة، إلا أن الاستمرار في استقبال الموضوع يجعله ينتصر على تلك التصورات، ليصنع لنفسه محلا في التاريخ الإنساني استنادا إلى أبعاد معرفية لا تتعلق هذه المرة بالذات فحسب، بل تشغل محلا في سياق التطور التاريخي للموضوع بكل ما يتداخل في جوانبه من تفاصيل سواء أعلقت بالمعرفة أم بالجهل.

2- الرؤية الفنية و إمكانية صنع التاريخ:

المقامة القريضية: إن الرؤية التي ينطلق منها بديع الزمان الهمداني في صياغة جوانب الموقف الذي يتعرض إليه البطل والراوي في كل مرة، تنتج من الارتكاز على تفاعل ثقافي عميق مع مكونات التراث الفكري العربي القديم، مقابل تناقضات العصر العباسي الذي ينتمي إليه "... فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله، وتلقاؤنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال: قد أصبتم عذيقه..."¹⁶⁷ فالقول هنا يدل على مدى استيعاب البطل لتلك الثقافة؛ ذلك أنه بعد التوغل في الشرح وبسط القول فيه، يتضح أنه عارف أيضا بما طرأ عليها من جديد وما صارت إليه من محدث " المتقدمون أشرف لفظا، وأكثر من المعاني حظا، والمتأخرون أطف صنعا، وأرق نسجا..."¹⁶⁸. وبعد المقامة القريضية هي الأولى؛ فإن البداية بالحديث عن الفكر العربي ممثلا بالشعر القديم يدل على أن تفاعل الكاتب مع روح العصر يبدأ من اللحظة التي يبتدى فيها فعل القول - أو الكتابة على حد سواء - " الكتابة التي ينطلق فيها شعاع الوعي من الذات إلى البنية الطبيعية والعكس، أي أن الكتابة تكون

¹⁶⁶- لؤي حمزة عباس، بلاغة التزوير، فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم، ط 01، الدار

العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 12.

¹⁶⁷- بديع الزمان الهمداني، المقامات، ص 04.

¹⁶⁸- م ن، ص 06.

بمثابة عملية اختراق مزدوجة للبنية وللمخيلة في آن واحد. فتحدث الكتابة بالمعنى المرئي وهي ليست إلا الكتابة المؤدية إلى المعرفة الدلالية، الإرادية والواعية "169 فالتأليف الأدبي على طريقة الهمذاني هنا، إنما هو صورة لمدى تفاعل الكاتب مع مكونات العصر ومستجدات الثقافة، ما طغى منها وما انحسر.

والمقامة القريضية وفق ما تضمنته من معرفة أدبية، تؤسس لواقع لا يدل على نفسه من خلال البناء الفني للمقامة فحسب، إنما يدل عليه وجود واقع سابق انبنى في هذه القصة على الذكرى (نتذاكر)، ليشيد الكاتب بتلك الذكرى طلالاً ثقافياً، يقف عليه في سيرورة حياته وانتقاله من حال إلى حال، أسوة برحلة الشاعر العربي من موطن إلى آخر، وهنا تتقدم المعرفة وفق بنية مسطحة يتألف القول فيها مع مرتكز الذكرى، لكنه بالمقابل يشكل إطاراً لواقع يعلن من خلال التفاضل لا من خلال التساوي؛ لأنه لا يقوم هنا على ما هو حاضر ومستقر بل على ما هو غائب ومتحول (امرؤ القيس، النابغة...)، ويثبت بالقول الفاصل الذي غالباً ما يمثل بؤرة داخلية في الحكاية:

ويحك هذا الزمان زرو فلا يعزتك الغرور
بِروقي ومخرق وكل وأطرق واسرق وطلبق لمن تزور
لا تلتزم حـالة ولكن در بالليالي كما تدور¹⁷⁰

فالحكاية هنا لم تقل الواقع دفعة واحدة، إنما سمح المؤلف بمروره عبر استجابات مختلفة لعدة تجليات، بدايتها الإصغاء والصمت ونهايتها الرأي والموعظة " وتعمل الأنساق الثقافية كموضوع للمعرفة ضمن نطاق الواقع الذي يحياه... يضيف معنى ما مختلفاً على النسق الذي يتبعه، وتفاعل البنية الذهنية للمبدع مع النسق الثقافي، يشير إلى أن تحولا ما سوف يطرأ على علاقة الثقافي بالخطابي، وأن

¹⁶⁹ - عمر مهيبيل، من النسق إلى الذات، ط 01، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 79.

¹⁷⁰ - بديع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 9، 10، 11، 12، 13.

الأنساق الثقافية باتت خاضعة لقواعد تكون جديدة داخل الخطابات¹⁷¹ الأمر الذي مهّد إلى إمكانية صنع تاريخ أدبي جديد، يستمد مادته الإبداعية من الواقع ويشكلها عبر تجديد لغة الخطاب، لتتسج فكرا مستحدثا يقوم على عناصر التمثيل اللغوي المبتكر تماشيا مع النسق الثقافي السائد أو المختلف عن الموروث، وهذا ما حدث بالفعل من خلال ابتكار قواعد التكوّن الجديدة في المقامات، والبارزة في المقامة البلخية مثلا: "حدثنا عيسى بن هشام قال: نهضت بي إلى بلخ تجارة البزّ فوردتها وأنا بعذرة الشباب وبال فراغ وحلية الثروة، لا يهمني إلا مهرة فكر أستقيدها أو شرود من الكلم أصيدها. فما استأذن على سمعي مسافة مُقامي أفصح من كلامي... وقلت أين منبت هذا الفضل فقال نمنتي قريش ومهد لي الشرف في بطائرها. فقال بعض من حضر ألسّت بأبي الفتح الإسكندري. ألم أرك بالعراق. تطوف في الأسواق. مكديا بالأوراق. فأنشأ يقول: *إن لله عبيدا أخذوا العمر خليطا*

فهم يمسون أعرأ با ويضحون نبيطا ¹⁷²

من خلال إشارتين، وردت إحدهما في بداية الكلام على لسان عيسى بن هشام في قوله: "فما استأذن على سمعي مسافة مقامي أفصح من كلامي"، والثانية في أبيات الشعر الواردة على لسان الإسكندري، والتي يبين فيها اختلاط الجنس العربي بغيره من الأجناس، مما حوله إلى مجتمع هجين في قيمه ومظهره ولسانه، مستعيدا مقولة ابن هشام الواردة في بداية المقامة ومقرا إياها بلفظ أصيل، وهذا إنما يدل على استعارة الهمذاني القول المقصود من الواقع العيني الذي آلت إليه الحاضرة العباسية في القرن الرابع على الخصوص، دون أن يترك سلطة التأويل تقلت من حدود النص المقترح بالإشارة إلى الكدية اللغوية بالدرجة الأولى، والتي تشكلت من خلال إشارات لفظية محددة بين مقصد الراوي (بلخ)؛ وهي بلد غير عربي إلى منبت البطل (الإسكندري) والذي لم يمنعه أصله القرشي - الذي يدعيه هنا - من التقلب في تصنع ألوان من العيش وألوان من القول لا تليق بالعرب، مما يجعل "... القارئ

¹⁷¹ - عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ط 01، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 144.

¹⁷² - بدیع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 19، 22، 23.

يعرف أن كل جملة وكل شخصية تخفي دلالات متعددة الأشكال يتحتم عليه اكتشافها، وهو يختار حسب حالته الذهنية المفتاح الأفضل بالنسبة إليه، ويستخدم الأثر بشكل يمكن أن يكون مختلفاً عن الشكل المتبع أثناء قراءة سابقة¹⁷³ إذ يلمح الإسكندري إلى حال العرب عموماً، أي الحال التي صاروا عليها بعدما صار العراق محل خلافتهم ومستوطن تمازجهم وتشاكلهم الإنساني والثقافي والفكري، مما أفقر عقولهم وأذهب تراثهم فصاروا يتكّدون إنسانيتهم وأصولهم في أسواق العراق بعدما كانوا أسيادا في الجزيرة العربية، وبهذا ندرك بأن الكاتب ينحو في مقاماته منحى يسعى من خلاله للمطابقة بين الواقع والنص.

3- التأثير الأدبي للمقامة:

اختلفت التأثيرات الفكرية للموروث الأدبي العربي على الفكر باختلاف الأزمنة التي تعاقبت على تاريخ العرب " والحق أننا منذ بداية العصر العباسي وجدنا أنفسنا أمام أدب لا يمكن أن يكون عربياً محضاً، ولكنه عربي فارسي، أو هو مزاج من هذين معاً. وأعجب من ذلك أن الأدب الفارسي الذي ظهر على استحياء في نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية هو الذي أخذ يقوى شأنه بعد ذلك بسرعة البرق. وبقي على هذه الدرجة من القوة وعظم الشأن حتى كان القرن الرابع الهجري...¹⁷⁴ أين بدأت القيم الأدبية تنتحي جانباً من الاختلاف غير المعهود، مما دفع بالإبداع إلى حواف الانهيار المقصود حيناً والمرفوض أحياناً.

ففي المقامة الأسودية يبدو الاهتمام بجانب اللغة مجسدة في الشعر مما يقيم مقابلة بين اللغة كمثال واقعي عربي وبين التجسيد المتطرف لعناصر البديع المبتكرة في المقامات.

وفي المقامة الأذربيجانية " قال عيسى بن هشام: فناجيت نفسي بأن هذا الرجل أفصح من إسكندريتنا أبي الفتح والتفتُ لفتة فإذا والله هو أبو الفتح، فقلت: يا أبا الفتح بلغ هذه الأرض كيدك. وانتهى إلى هذا الشعب صيدك. فأنشأ يقول:

¹⁷³ - أمبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، ط 02، دار الحوار للنشر والتوزيع،

سوريا، 2001، ص 18، 19.

¹⁷⁴ - عبد اللطيف حمزة، ابن المقفع، ط 02، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ص 10، 11.

أنا جوّالة البلا د وجوابة الأفق

أنا خذروفة الزما ن وعقارة الطرق

لا تلمني لك الرّشا د على كديتي ونق¹⁷⁵

يبدو جليا ما يمكن أن تحمل المقامات من أساليب التأثير الفني على المجتمع الذي يساويها مكانة وجدة وابتكارا واختلافا، فالهمذاني يبث المقامات "خصوصية طرحه، ونضاله من أجل اكتساب حقّه في الاحتجاج على الوعي الجمالي السائد وما يتضمنه هذا من جدل يقوم على نقض الوعي الاجتماعي بعد استيعابه في مستوياته المتشابكة، سياسية واجتماعية، اقتصادية، دينية، ثقافية وفنية مثلما تكمن أهميته في لحظته الآتية وما يطرحه منها أو يطرحه عليها"¹⁷⁶

والأمر نفسه يعود ليظهر في المقامة الأصفهانية؛ إذ تكون اللغة سبيلا إلى الكسب "... قال عيسى بن هشام: فلقد انتالت عليه الدراهم حتى حيرته وخرج فتبعته متعجبا من حذقه برزقه وتمحلّ رزقه. وهمت بمسألته عن حاله فأمسكت. وبمكالمته فسكت. وتأمّلت فصاحته في وقاحته. وملاحظته في استماحته. وربطه الناس بحيلته. وأخذته المال بوسيلته. ونظرت فإذا هو أبو الفتح الإسكندري. فقلت: كيف اهتديت إلى هذه الحيلة. فتبسّم وأنشأ يقول:

الناس حمر فجوّز وبرز عليهم وبّز

حتى إذا نلت منهم ما تشتهيهِ ففوّز¹⁷⁷

4- استغلال طاقات الوصف:

إن القدرة الاستعراضية التي يتميز بها الهمذاني في فن الوصف، في المقامات عموما والمقامة المضيرية خصوصا، إنما تخرج اللغة من كونها تعبيراً مباشراً عن الحالة أو وصف لحادثة أو واقعة إلى كونها رؤية " حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعني أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة يدعوا فتجيبه.

¹⁷⁵- بديع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 59، 60.

¹⁷⁶- علي محمد المومني، الحداثة والتجريب، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2009، ص 28.

¹⁷⁷- بديع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 70، 71.

والبلاغة يأمرها فتطيعه. وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت إلينا مضيرة تنثي على الحضارة وتترجج في الغضارة... ولكننا ساعدناه على هجرها وسألناه عن أمرها. فقال: قصتي معها أطول من مصيبتني فيها. ولو حدتكم بها لم آمن من المقت وإضاعة الوقت. قلنا: هات. قال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمني ملازمة الغريم. والكلب لأصحاب الرقيم. إلى أن أجبته إليها وقمنا فجعل طول الطريق يثني على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها في صنعها. وتأنقها في طبخها ويقول: يا مولاي لو رأيتها. وهي تدور في الدور من التتور إلى القدور. ومن القدور إلى التتور. تتفخ فيها النار. وتدق بيديها الأبزار. ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل... وصدعني بصفات زوجته حتى انتهينا إلى محلته. ثم قال: يا مولاي ترى هذه المحلة. هي أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار في نزولها... يتمنى الضيف أن يأكل فيه. فقلت: كل أنت من هذا الجراب. لم يكن الكنيف في الحساب. وخرجت نحو الباب. وأسرعت في الذهاب. وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا الفتح المضيرة. وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر فلقي رجل بعمامته. فغاص في هامته. فأخذت من النعال ما قدم وحدث، ومن الصفع ما طاب وخبث. وحشرت إلى الحبس. فأقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت ألا أكل مضيرة ما عشت. فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم. قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره. ونذرنا نذره. وقلنا قديما جنت المضيرة على الأحرار. وقدمت الأراذل على الأخيار¹⁷⁸ والقصتان هنا تتفاوتان من حيث الواقع والخيال؛ فإذا كانت القصة الأولى واقعية فإن القصة الثانية يمكن أن تكون خيالية تنبني في مجملها على استيعاب القدرة البالغة على الوصف والقدرة العظيمة على استخدام اللغة، وهذا ما يشير إليه عيسى بن هشام في تقديمه لأبي الفتح في بداية المقامة، ولو... أننا لو نظرنا في القصتين معا، لوجدنا كليهما تدوران حول وليمتي غداء، كما أن كلا منهما في الواقع تعكس صورة الأخرى. فعلى الرغم من أن القصة التي تشكل إطارا عاما تقع أحداثها في مدينة البصرة والأخرى تدور من خلالها في بغداد، إلا أن

¹⁷⁸ - بديع الزمان الهمداني، المقامات، ص 127، 128، 129، 130، 141.

كلاهما تتضمنان دعوة موجهة من "بعض التجار". أكثر من هذا أن القصتين تتركزان حول عدم استهلاك المضيرة، وإن كان هناك اختلاف أساسي بينهما؛ نفي القصة العامة، يتم تقديم المضيرة ثم يتم إبعادها والعيون تتبعها في اشتياق ولوعة، في حين أنه في القصة الداخلية، لم تقدم المضيرة أبداً ومع ذلك، فقد كان الاشتياق لها مازال موجوداً عند أبي الفتح. إذن فمن الواضح أن القصة الأولى استخدمت كإطار عام لكي يمكن وضع القصة الثانية التي تدخل في نطاقها وتفسيرها¹⁷⁹ إلا أن الاختلاف يكمن في كيفية تصوير أبي الفتح نفسه في موقف الضحية لا في موقف المحتال، ومع ذلك فهو لا يعدم أن يكون محتالاً إذ يتسبب في حرمان أصحابه من الأكل وهم مشتاقون إلى ذلك، وهو يرى ويعلم اشتياقهم بل ويشاركهم فيه، هنا يبدو أن قصة المضيرة إنما جاءت - فقط - من أجل الإلمام اللغوي باللغة الواصفة من جهة، وتقديم جانب من جوانب الحياة وأنماط من السلوك ومن التعامل في البيئة العربية ببغداد من جهة ثانية، وذلك من خلال الإشارة إلى حال التجار في محال رزقهم أو بيوتهم وغيرها، مما يمكن أن يكون صورة مقابلة تناظر شكلاً من أشكال الحياة الواقعية في شقها الاجتماعي والإنساني وفق ما يراه الهمذاني فيها.

5- التكرار الثقافي وإمكانية إعادة الإنتاج:

وفي المقامة الجاحظية " حدثنا عيسى بن هشام قال: أثارني ورفقة وليمة فأجبت إليها للحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: لو دعيت إلى كراع لأجبت. ولو أهدي إلي ذراع لقبلت... ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان. وتسفر بين الألوان... ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته. ووصف ابن المقفع وذرايته... ووافق أول الحديث آخر الخوان... فقال الرجل: أين أنتم في الحديث الذي كنتم فيه. فأخذنا في وصف الجاحظ ولسنه. وحسن سننه في الفصاحة. فيما عرفناه. فقال: يا قوم لكل عمل رجال. ولكل مقام مقال. ولكل دار سكان. ولكل زمان جاحظ... إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر

¹⁷⁹ - فدوى مالطي دوجلاس، بناء النص التراثي، دراسات في الأدب والتراجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985، ص 109، 110.

يقف "180 وهكذا إلى آخر المقامة حيث يحاول الإسكندري أن يثبت صحة مذهبه في تحامله على الجاحظ، وهو نقد لم تستسغه الجماعة إلا أنه استلهم من قدرته على قرص الشعر ما جعله في النهاية يحظى ببعض المال بعد أن حظي بوافر الطعام، وكأننا بالهمذاني هنا يحاول صنع تاريخ أدبي جديد يتوافق مع معطيات العصر حيث يؤسس للحظة تاريخية تنقلب فيها أسس النقد الفني إلى ما يتلاءم مع طبيعة العصر، وهذا ما يجعلنا نعتبر لحظة التحول الثقافي المقصودة في هذه المقامة لحظة تاريخية تحمل حقيقتها وواقعها كاملة؛ ف" ليس من قبيل المصادفة سرعة تأثر السياقات الثقافية والجمالية بظروف الحياة، فهذا قانون تخضع له السياقات برمتها كلما أطبق زمان جديد فغير تضاريس المكان فصارا جديدين كليهما. والخبرة في السياقات الثقافية والجمالية تتجرّ عن الخبرة في الحياة بما يحيط بها من ظروف مادية واجتماعية. والثقافة دائما تَصْمِنُ بعدي الزمان والمكان المتدفقين ضرورة من مجرى مشترك تمتزج فيه الأشياء وتأملها ثقافيا وجماليا "181 وهي اللحظة نفسها التي تنتج القصة وتصنع لها إطارها الواقعي، وهي كذلك تلك التي تصنع تاريخا جديدا في المقامة، لا يقوم على عناصر الموروث الثقافي السابقة أو حتى السائدة فحسب، بل هي التي تصنع انعكاسا بين الأدب والواقع وبين اللغة والسلطة بحيث يكون دمجها مجالا لتوسع فجوة فكرية لا تنتهي تتسج هذا بخيوط ذاك، فالنص في المقامات إذا "... يقوم على مبدأ المغايرة الكلية وبدا، فإنه يضع نفسه في المأزق الصعب، لأنه لا ينهض على سياق قبلي مهده نصوص سابقة، وهذا يعني إنه يؤسس سياقاً خاصاً، أي ذائقة متفردة، وعليه، لا يمكن أن ينتزع خارج سياقه الخاص، ويعامل على وفق سياقات نصوص أخرى، بل، يجب التعامل معه من خلال تكوينه الخاص وبنيته الخاصة فهو، لا يذهب إلى التاريخ، إنما يستحضره فيه ويتضمنه، وينتخب لحظة للبدء بالمحاورة مع التاريخ، فهي من ناحية أخرى لحظة انعطاف تاريخي تقترن بزمن محدد

180- الهمذاني، المقامات، ص 87، 88، 89.

181- حسن ناظم، النص والحياة، ط01، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 2008، ص

182» فالهمذاني يلجأ إلى وعيه الفني أو الاجتماعي ليختار من القصص ما يشبه الواقعة، أو ما يحمل الدلالة على الإقرار - تأويلا - بوقوعها إن كان وقوعا عينيا أو ذهنيا، فلحظة الوعي لديه يمكنها أن تنال من المتخيل غرضها، فتصنع الرؤية المرجوة بما يمكن أن يكون حدثا أولا أو أصيلا في بدايته، ثم ما يلبث أن يتحول تدريجيا إلى حدث ثان أو ثالث وفق إعادة إنتاجه عبر الوعي الفني من جديد، وإن لم يبد لنا التوالد في قصصه شبيها بما وُجد عند ابن المقفع، أو بما هو موجود في قصص ألف ليلة وليلة، أو حتى لدى الجاحظ في البخلاء أحيانا، إلا أن هنالك ما يمكن تسميته بالتوالد الرؤيوي؛ بمعنى حصار الرؤية في زاوية معينة، بما يسمح لها بإعادة إنتاج نفسها تلقائيا، فإن لم تكرر ثقافة مفروضة عليها من الخارج فهي تكرر نفسها بالتأكيد.

أما الخيال هنا فهو يعمل عمل المراقب للتاريخ دون الخوض في تحليله تحليلا مباشرا، وتلك مناطق ظلت مبهمة في تشكيل المقامات، التي يعتقد نقديا أنها أداة للتسلية وانحطاط باللغة، أو هي نموذج لفن نثري دخيل لم تعرفه الثقافة العربية - والبدائيات تكون ناقصة وغير ناضجة دائما - على هذا يجب التماس ذائقة فنية مخالفة للذائقة النقدية القديمة حتى نجلي من خلالها أثر الخيال في بلورة زاوية الرؤية الفنية المناهضة للمجتمع العباسي، وما آل إليه من انهيارات من خلال المقامات.

6- أبعاد الفضاء الاجتماعي بين التعدد والتخندق:

يتراوح الفضاء الاجتماعي في المقامات بين كونه فضاء إنسانيا عاما أو فضاء ثقافيا خاصا، وكلاهما يعبر عن رؤية معينة للعالم وللناس وللتحولات المختلفة التي تطرأ عليهم، ففي المقامة الأهوازية التي يحتويها السوق بداية، ثم تتحول إلى مكان مجهول غير مسمى - مع ملاحظة تغير سريع للفضاء الفكري من النقيض إلى النقيض على مسافة قريبة من الوعي المؤسس لتشكيل صورة نابضة بالحياة الإنسانية كما كانت بالفعل - يقول: " حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالأهواز في رفقة متي

182- عبد الله إبراهيم، المتخيل السري، مقاربات نقدية في التقاص والرؤى والدلالة، ط 01، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص 35.

ما ترقّ العين فيهم تسهل... فأفضنا في العشرة كيف نضع قواعدها... فقال أحدنا: عليّ البيت والنّزل وقال آخر عليّ الشراب والنّقل وقال بعضنا عليّ السّماع. والجماع. وقمنا نجرّ أذيال الفسوق. حتى انسلخنا من السّوق. فاستقبلنا رجل في طمرين في يمينه عكّازة وعلى كتفه جنازة. فتطيرنا لما رأينا الجنازة وأعرضنا عنها صفحا وطوينا دونها كشحا... قلنا فما حاجتك، قال: أطول من أن تحدّ وأكثر من أن تعدّ. قلنا: فسانح الوقت. قال: ردّ فانت العمر. ودفع نازل الأمر. فقلنا: ليس ذلك إلينا ولكن ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها. قال: لا حاجة لي فيها وإنما حاجتي بعد هذا أن تخدوا أكثر من أن تغوا¹⁸³ وهنا نلاحظ انقلاب الفضاء الحكائي من حالة الفسوق إلى حالة الوعظ، كما نلاحظ اختلافا مفاده اختفاء شخصية الإسكندري والذي كان يتوقع في بداية الحكاية أن يكون هو العجوز الحامل الجنازة، وأن الوعظ سينتهي إلى حصوله على المال ثمنا لكلامه عن الموت والآخرة وغيرها مما ورد في هذه المقامة من نصائح، غير أن المقامة تنتهي دون التلميح إلى ذكره أو وجوده فيها، ولربما يطرح هذا اختلافا مقصودا يفيد إلى انتصار العفة على الطمع، فتحقق المقامة رؤية الكاتب من وجهة نظر مخالفة للتصريح المتعود عليه؛ بحيث تمنح القارئ فسحة لاستكمال جوانب أخرى من طبيعة الحياة العربية الواقعية في الحاضرة العباسية وإن كانت مبنية على تفعيل الخيال الأدبي والمخاتلة اللفظية، ويبدو أن تغيب المكان الوعظي هنا وجعله مفتوحا على كل الاحتمالات - ولكن بلا اسم - هو ما سوغ انفلات الشخصية الطبيعية في المقامات ونسبة الوعظ إلى شخصية ذات ملامح عامة، قد تكون أبا الفتح وقد لا تكون، ولكنها تكون موجودة بالضرورة كتمثيل لمكوّن اجتماعي بديل عن مكوّن التكدّي العارم التي انطبع به جو المقامات.

بينما يمكن فنيا أن يتحول المكان العام إلى مكان ثقافي (المقامة الجاحظية) لسبب من الأسباب التي تقتضيها الحكاية، فالفضاء الاجتماعي في المقامات كان متعددًا على مستوى الواقع، بيد أنه كان محدودًا ومتخذًا على المستوى الفني، لأسباب تتعلق برؤية الهمداني وكيفية تعامله مع كل مقام لغرض أصيل في نفسه "

¹⁸³ - بديع الزمان الهمداني، المقامات، 73، 74، 76.

كتوضيح للكينونة في العالم التي أبرزها النص. ما يجب أن يؤول في النص، هو افتراض عالم، مشروع عالم بوسعي أن أقيم فيه وأن أقصد فيه أخصّ ممكناتي. وبعودتنا إلى مبدأ المباعدة المشار إليه سابقاً، يمكن لنا أن نقول إن النص... لا يقصر على أن يجعل المعنى على مبعدة من نية المؤلف، لكنه يجعل، فوق ذلك، مرجعية النص على مبعدة من العالم المبين بالكلام اليومي، بهذه الطريقة، يتحول العالم بوساطة ما...¹⁸⁴ خيالية في أغلب تجلياتها، إلى ما يشبه الواقع مشكلاً باللغة أو متشكلاً فيها.

إن الوعي الفني في نصوص المقامات لا يكمن داخل النص بل خارجه، ولهذا فإن الذات متعالية في قصدية الطرح الواقعي للمتغيرات الإنسانية، التي تداخلت في تكوين المجتمع العباسي مذ سمح لنفسه أن يركز على تلك المتغيرات، لصنع عالم جديد لم يكن دائماً على مقاسه، ف "الكتابة هي هذا الحياد، وهذا المركّب، وهذا الانحراف الذي تهرب فيه ذواتنا. الكتابة، هي السواد والبياض، الذي تتيه فيه كل هوية...¹⁸⁵ محتملة أو مقصودة، غير أن التشكيل الواقعي فيها يجعل من المستحيل على المتلقي أن يفهم مضمراتها من اللحظة الأولى، خاصة وأنه واقع أقل من المتعود عليه في الصناعة الفنية، التي غالباً ما تقوم على المثالي لا على المبتذل كما هو الشأن في المقامة الموصلية: " حدثنا عيسى بن هشام قال: لما قلنا من الموصل. وهمنا بالمنزل. وملكت علينا القافلة وأخذ منا الرّجل والراحلة. جرت بي الحشاشة إلى بعض قراها ومعى الإسكندري أبو الفتح. فقلت: أين نحن من الحيلة. فقال: يكفي الله. ودفعنا إلى دار قد مات صاحبها وقامت نوادبها. واحتقلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم. وشقت الفجيرة جيوبهم... فقال الإسكندري: لنا في هذا السواد نخلة وفي هذا القطيع سخلة... وقام الإسكندري إلى الميت فنزع ثيابه ثم شدّ له العمائم وعلّق عليه التمام... وطنّ الإسكندري بفيه. وقال: هو ميت كيف أحياه. فأخذهُ الجُفّ. وملكته الأُكفّ..."

¹⁸⁴ - بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، ط 01، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2001، ص 42.

¹⁸⁵ - رولان بارت، نقد وحقيقة، تر: منذر عياشي، ط 01، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، سوريا، 1994، ص 15.

فانسللنا هاربيين حتى أتينا قرية على شفير وادٍ السيل يطرقها والماء يتحيفها... فقال الإسكندري: يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعرته. وأردّ عن هذه القرية مضرته. فأطيعوني ولا تيرموا أمرا دوني... ثم عاد إلى السجدة الثانية وأوماً إليّ فأخذنا الوادي وتركنا القوم ساجدين لا نعلم ما صنع الدهر بهم...¹⁸⁶ فالعالم الذي قصد إليه الهمذاني في مقاماته عالم محاصر بالمعطيات الواقعية الأولية التي تجعل الدخول إلى موضوع النص متعدد الجهات، وهذا ما يجعله موجها بشكل نسبي إلى اكتشاف إرهابات السقوط المتفشية في عمق المجتمع، والتنبية إلى استبحال الداء الذي يبدو ظاهريا مجرد انفلات قيمي فكري يمكن السيطرة عليه لاحقا أو يمكن تجاوزه بعد حين من الزمن، إذا فنحن "... أمام عالم منته وفي نفس الوقت غير محدد فكل حدث وكل كلمة يمكن أو توضع في علاقة مع كل الأحداث والكلمات، والتأويل الدلالي لأي كلمة ينعكس على المجموع"¹⁸⁷ ليتحقق تركيب شامل لرؤية متكاملة المرجعية والتوجّه بالنسبة إلى الهمذاني أولا وإلى المتلقي ثانيا.

إن المقامة " تنتمي على مستوى الكتابة إلى زمن حدائني كوني"¹⁸⁸ يحزّر فيه المتخيل الوعي من حدوده المباشرة وإمكاناته الضيقة ويجعله أكثر اتساعا، بل وأكثر عمقا في التاريخ، لأن القيمة التي تنتفض تحت ربح الواقع السلبي الذي نجده في المقامة لا يمكن أن تصنف ضمن متطلبات التسلية الفكرية واللغوية، التي طبعت نصوص المقامات، بل إن جوهر الفن هنا يقوم على إثبات سيرونة منققة مع المكان العربي الذي تحتله السلطة العباسية ظاهرا، غير أنها لا تملك من شأنه شيئا، ولا تهيمن فيه إلا على الفراغ، ولهذا لا تعترف المقامة بالواجب ولا تميل إلى الحق، لأنها ناشئة عن طبيعة فكرية تكرر ذاتها في أشكال من الشعوبية الطاغية التي لا تقف عند حدّ، والتي تنتج بالمقابل أشكالا من عدم القدرة على الاستمرار السلطوي في شخص العرب الحاكمين، وذلك ما¹ أنتج خلفاء مكررين يبدؤون البدايات

¹⁸⁶ - بديع الزمان الهمذاني، المقامات، ص 121، 122، 124، 125، 126.

¹⁸⁷ - أميرتو إيكو، الأثر المفتوح، ص 10.

¹⁸⁸ - فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية، ط 01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2004، ص 36.

الفاشلة نفسها وينتهون النهايات الشنيعة نفسها، فلا يتمكنون من صنع المستقبل أو تغيير الحاضر أو الحفاظ على الماضي؛ فهم مكدّون يتوسلون الحياة في الأسواق ويطلبون استمرارها، أينما حل بهم المقام وفي أي الأقسام كانوا، هؤلاء في شخصية أبي الفتح هم العرب، ولذلك نجد أنموذج المقامة يتكرر تاركا جمالية النظام السردى بين يدي الأهواء والمصادفات التي يبدعها الإسكندري، ويبالغ في استمرارها وامتداد أثرها خارج النص الواحد.

التناص القرآني في ديوان (تغريبة جعفر الطيار) ليوسف وجليسي

د. رابح بن خوية
جامعة برج بوعريريج
يونس عبو طالب دكتوراه جامعة برج بوعريريج

الملخص:

تهدف الدراسة الراهنة إلى الكشف عن ظاهرة التناص القرآني في شعر يوسف وجليسي من خلال ديوانه (تغريبة جعفر الطيار) كأ نموذج، بوصفه ظاهرة لها دلالاتها البعيدة في شعره وفي الشعر الجزائري المعاصر. وهي إذ تهدف إلى ذلك تتعرّف إلى تجليات هذا النوع من التناص وكيفيات استحضاره في سياقات الديوان. كما تحاول الوقوف على الدوافع الفنية والفكرية التي دعت الشاعر إلى توظيف هذه التقنية اللغوية النصية بوعي فني معاصر، وعلى مدى إسهامها في الخروج من إطار النص والانفتاح على النصوص المختلفة الغائبة.

Résumé :

Cette étude vise à détecter le phénomène de intertextualité le Coran, comme un phénomène caractérisé par poète algérien contemporain, pris dans la religion du poète youssef wagliissi «aliénation Jafar le pilote" modèle, et d'essayer de se tenir debout sur le concept d'intertextualité comme un terme contemporain, puis se tenir debout sur apparence et comment présent à la Cour, et regarder de plus près les motifs qui a fait le poète utilise cette technologie, et l'étendue de sa contribution à l'ouverture du texte poétique sur de nombreux textes absents et surveiller les implications.

مقدمة:

يعدّ ديوان (تغريبة جعفر الطيار) ليوسف وغيلسي واحدا من أبرز الدواوين الشعرية الجزائرية المعاصرة اللافتة للنظر، في لغته وموضوعه وطريقة بنائه ونسيجه المعماري التخيلي، واستلهامه للنصوص التراثية والثقافية والدينية عبر تقنية التناص، وذلك ما يميزه كنص منفتح الآفاق.

وقد شكل التناص مع القرآن الكريم خصيصة من أبرز خصائصه الديوان الفنية؛ التي تعكس ما للقرآن الكريم من أثر كبير وبالغ في تكوين الشاعر اللغوي والفكري والأدبي والنقسي، وقد ساعد التناص كمدخل وصفي وتحليلي في مقارنة الديوان والخطاب الشعري (الوغيلسي) بصفة أعمّ ملاحظا الدور الجمالي والدلالي الذي ينهض به حضور النص القرآني كمكوّن مهم في خطاب وغيلسي الشعري.

إنّ الاستناد إلى التناص وتبنيه كوسيلة إجرائية مهد لرصد النصوص الحاضرة الغائبة المتماهية في نسيج التغريبة اللغوي. مما يحتم تقديمه للقارئ ليكون على دراية به اصطلاحا ودلالة.

أولاً- التناص في اللغة والاصطلاح:

1- في اللغة:

يرجع مفهوم التناص في المعاجم اللغوية إلى أصل مادة " نصص"، وإذا تتبعنا معناه نجده يدل على معان عديدة في اللغة، فقد ورد في لسان العرب بمعنى الرفع والإظهار « النص: رفعك الشيء. نصّ الحديث ينصه نصّاً: رفعه، وكل ما أظهر فقد نُصّ»⁽¹⁾، وبالمعنى نفسه ورد في معجم اللغة العربية المعاصرة: « نصّ الحديث: رفعه وأسندته إلى محدثه. ونص على الشيء: حدده وعينه بموجب نص. ونصص الجملة: حددها وعينها بنص، وضعها بين علامتي تنصيص»⁽²⁾ وجاء في كتاب العين: «نصصت الحديث إلى فلان نصّاً، أي رفعته. ونصصت ناقتي: رفعتها في السير. ونصصت: الشيء حركته. ونصصت الرجل: استقصيت مسأله عن الشيء، يقال: نصّ ما عنده أي استقصاه»⁽³⁾ والنص أو التناص في اللغة يعني البلوغ والاكتمال في الغاية⁽⁴⁾.

ولم يرد التناص بهذا اللفظ إلا في المعجم الوسيط وجاء بمعنى الازدحام «(تناص) القوم: ازدحموا»⁽⁵⁾، وهذا المعنى الأخير قريب من مفهوم التناص بصيغته

الحديثة؛ فهذا الأخير تعريب للمصطلح الفرنسي (*Intertexte*) حيث تعني كلمة (*Inter*) في الفرنسية: التبادل، بينما تعني كلمة (*Texte*) النص؛ وأصلها مشتق من الفعل اللاتيني (*Tex tus*) الذي يعني نسج أو حبك، وبهذا يصبح معنى (*Intertexte*) التبادل النصي وقد ترجم إلى العربية بالتناسل الذي يعني تعالق النصوص ببعضها البعض⁽⁶⁾ فتبادل النصوص وتعالقها قريب جدا من ازدحامها في نص ما.

2- في الاصطلاح:

إن مصطلح التناسل مصطلح أجنبي خالص، وفد من الغرب إلى العالم العربي، اتخذ مفاهيم عدة قبل أن يصبح مصطلحا قائما بذاته؛ حيث شغل فيما بعد اهتمام كثير من النقاد والباحثين، ويعود ظهوره في المجال الاصطلاحي النقدي إلى الباحثة (جوليا كريستيفا/ *J.Kristeva*) التي ترى أن التناسل هو « التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى، أو هو العلاقة بين خطاب الأنا وخطاب الآخر»⁽⁷⁾ مما يجعل النص متعدد المسارب والدلالة « ... فهو التفاعل بين أمس مضى ويوم أتى وبين الآخر الغائب والأنا الحاضر. بين نص انتهى ونص بصدد الولادة»⁽⁸⁾.

وقد استخلص "محمد مفتاح" مقومات التناسل من عدة تعاريف لأن أي واحد منها لم يصغ تعريفا جامعاً مانعاً، وخرج بنتيجة هي أن التناسل:

«- فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة.

- ممتص لها يجعلها من عندياته بتصويرها منسجمة مع فضاء بنائه ومقاصده.

- محول لها بتمطيطها أو تكثيفها بقصد مناقضة خصائصها ودلالاتها أو بهدف تعضيدها.

ومعنى هذا، أن التناسل هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»⁽⁹⁾ ونفهم من هذا أن «التناسل يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ليشكل نص جديد واحد متكامل»⁽¹⁰⁾ ومن هذا المنطلق فالتناسل «ليس مجرد خيار نصي، أو لغوي، أو تقنية

تضاف إلى مجموع التقنيات الأدبية، إنما هو أيضا ضرورة نفسية، ثقافية، تاريخية وحضارية، تعبر عن لحظة التفاعل الحضاري التي يعيشها الكاتب المعاصر ومن ثمّ فالنص المعاصر مضطر إلى تبني هذه الفلسفة الجديدة للكتابة ليضمن لنفسه الفعالية والحضور التاريخيين»⁽¹¹⁾.

في حين نجد "سعيد يقطين" يحبذ استعمال مصطلح التفاعل النصي بدل التناص الذي يرى بأنه «يتعلق بالصلات التي تربط نصا بآخر، وبالعلاقات أو التفاعلات الحاصلة بين النصوص مباشرة عن قصد أو عن غير قصد»⁽¹²⁾؛ فالتناص عنده مرتبط بالعلاقات التي تربط بين نص وآخر سواء كان هذا الارتباط واعيا أو غير واع، وبهذا أيضا قال "عبدالله الغدامي": «هو نص يتسرب إلى داخل نص آخر، يجسد المدلولات سواء وعى الكاتب بذلك أم لم يع»⁽¹³⁾.

كما عرّف "جابر عصفور" التناص - في ملحق كتبه لترجمة كتاب عصر النبوية - قائلا: «يشير المصطلح إلى الفاعلية المتبادلة بين النصوص، فيؤكد مفهوم عدم انغلاق النص على نفسه، وانفتاحه على غيره من النصوص»⁽¹⁴⁾؛ وهنا نلمس نظرة مغايرة لما جاءت به النبوية عن انغلاق النص على ذاته؛ فجابر عصفور يرى أن النص منفتح على غيره من النصوص الأخرى يقوم بتحويلها وتحويلها بما يتناسب معه.

أما "محمد عزام" فهو يرى أن التناص «هو تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي تمحي الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها. وغاب (الأصل) فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران»⁽¹⁵⁾، وهذه إشارة إلى صعوبة الفصل بين النص الغائب والنص الحاضر نتيجة لكثافة التشكيل النصي التي تصل إلى درجة الامتصاص والذوبان.

ويمكن القول أن التناص كمصطلح حديث يشكل عنصرا أساسيا في الدراسات الأدبية والنقدية، ويلعب دورا فاعلا في قراءة النصوص وتحليلها، ويؤدي إلى تفاعل الأفكار والحوار بينها في شتى المجالات الفكرية والأدبية والفنية، لأن التأثير والتأثر أمر لا مفرّ منه ولا يمكن إنكاره.

ثانياً-التناص القرآني في (التغريبة):

يعد القرآن الكريم مصدراً هاماً وغنياً من مصادر الشعر العربي المعاصر، ورافداً ثرياً من روافد التجربة الشعرية لفرادته وقوة إعجازه من جهة، ولقدرته على إعطاء الشاعر بطاقات إبداعية لا يجدها في غيره من المصادر من جهة أخرى. ونقصد بالتناص القرآني «استحضار الشاعر بعض الآيات القرآنية أو الإشارة إليها، وتوظيفها في سياقات القصيدة، تعميقاً وإثراءً لرؤية فكرية/ فنية يراها، بشكل ينسجم مع النص»⁽¹⁶⁾.

وقد لفت القرآن الكريم انتباه الشاعر يوسف وغليسي على نطاق واسع في "التغريبة"، وحاول أن يستلهم ما يهمه من النصوص والقصص القرآنية تعبيراً عن القضايا السياسية والاجتماعية التي عاصرها، مثل قصيدة (تجليات نبي سقط من الموت سهواً...) التي نسجها الشاعر على تقنية القناع حين تقنع بشخصيات من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وكان حضور التناص القرآني في متن التغريبة على مستويين؛ مستوى القصة القرآنية ومستوى الآية القرآنية:

1- تناص القصة القرآنية:

لجأ الشاعر في كثير من الأحيان إلى القصة القرآنية في ديوانه لخلق عالم شعري مشحون بالدلالات الفنية، وبلورة الحاضر من خلال تجارب الماضي، وقد كانت شخصيات الأنبياء وقصصهم أكثر حضوراً من غيرها؛ لثرائها الدلالي، وقدرتها على حمل أبعاد التجارب المعاصرة، وكان حضور هذه القصص في القصيدة الأولى من الديوان (تجليات نبي سقط من الموت سهواً...):

1-1- قصة صالح عليه السلام:

استثمر يوسف وغليسي قصة النبي صالح عليه السلام ووظفها في ثنايا التغريبة في مقطعين، الأول:

حلمي الأزلّي احتراف النبوة ،،

مذ عقروا "ناقة الله" ،، مذ شردو " صالحا "

أشهروا في وجوه اليتامى سيوف البطولة... (17)

والثاني:

يسألونك عن " صالح " .. عن " ثمود " الجديدة..
عن " ناقة الله " يعقرها سيد الجاهلين... (18)

فالنص الغائب هو قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها﴾ (19) والشاعر هنا استدعى مضمون القصة القرآنية وحاور شكلها، فكانت ألفاظ (صالح، ثمود، ناقة الله، يعقرها) دوال مستحضرة من النص الغائب محتظة بمضمونها، لتشابه المواقف بين ثمود الجديدة (جزائر العشرية السوداء) وما أصاب ثمود صالح من خسران وهلاك (20)، والشاعر هنا أعاد بناء النص الغائب وفق رؤيته المعاصرة للتعبير عن أفكاره وقضايا وطنه المعاصرة.

1-2- قصة يوسف عليه السلام:

يستحضر الشاعر قصة سيدنا يوسف مع إخوته حين ألقوه في الجب قائلاً:

هزؤوا برؤاي وما سألوا..

ورموني في الجب وارتلوا

كنت في الجب وحدي ،،

على حافة الموت أهذي..

فيرتد صوتي إليّ.. (21)

يتعلق نص الشاعر مع قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ (22) والشاعر في هذا المقطع يحور البناء العام للنص القرآني؛ عن طريق تقنية القناع التي يتحدث فيها الشاعر على لسان النبي يوسف عليه السلام، تعبيراً عن معاناته الشخصية (كنت في الجب وحدي)، والشاعر هنا أخذ على عاتقه تطوير النص القرآني وفق المتطلبات التي يريدها؛ وبهذا يصبح النص الشعري ذا أبعاد فنية إيحائية رؤيوية.

وفي السياق نفسه يستحضر وغيلسي شخصية النبي يعقوب وقضية تفسير

الأحلام:

قالت الريح:

" يعقوب " مات، فأى فؤاد سيرحم هذا الفتى؟

أي عين ستبيض حزنا عليه غداة ترى ما أرى؟

من يعيد لها البصرا؟

من ترى يستعيد رؤاه؟

من يفسر تلك الكواكب .. تلك الطلسم ..

من يذكر الشمس والقمر؟⁽²³⁾

يعيدنا هذا المقطع إلى آيتين من سورة يوسف، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾⁽²⁴⁾ والثانية هي: ﴿لا إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾⁽²⁵⁾، لكن الشاعر يقلب الموازين والأحداث في النص الشعري، من خلال بناء فني قائم على استبدال الحقائق اليقينية في النص القرآني، بالأساليب الاستهامية المعبرة عن الحيرة والضياع، وهذا التعبير يجعلنا نلمس تداخلا جزئيا بين النصين الشعري والقرآني، إلا أن النص الشعري جاء في سياق مغايرة مع النص القرآني؛ ليجسد أحداثا وهموما معاصرة، والنص الشعري مفتوح على عديد التأويلات والقراءات بسبب عدم معرفة حيرة وضياع الشاعر في هذا المقطع، أهي نابعة من معاناة شخصية؟ أم من معاناة قومية؟ أم منهما معا؟

1-3- قصة يونس عليه السلام:

يتعلق المتن الشعري الوغليسي مع قصة سيدنا يونس عليه السلام حين

التقمه الحوت ولبث في بطنه مدة من الزمن:

فأبقت إلى الفلك أبحث عن مرفأ للعزاء

يتعاورني اليأس برا وبحرا ..

تدثرت بالأمنيات ،،، تزلت بالمعجزات ،،،

ولا عاصم من عناء ..

كنت وحدي أساهم .. وحدي أرد الأعادي

وحين ترديت، كان لي الحوت منفى ومقبرة ..

كنت في بطنه غارقا في التساييح ؛

سبحت باسم دم الشهداء ،،

باسم ما في دمي من هوى لتراب بلادي ،،

للرمل والنخل ،، سبّحت .. سبّحت ..

ناديت كل ولي من الخالدين، وكلّ

الصحابة والأنبياء:

إنني هاهنا لا بثُ ..

مدحضٌ ومليمٌ ، فأَي رِيح ستحملني للسماء ؟

أَي موج - أيا أيُّها الرِيح- ينبذني بالعراء ؟... (26)

اعتمد الشاعر في هذا المقطع على طريقة الامتصاص «الذي يعتمد فيه الشاعر الاستمداد الإشاري والدلالي، مع القيام بتحوير بسيط قصد الإشارة والإيحاء وإنتاج الدلالة التي يهدف إليها الشاعر»⁽²⁷⁾؛ حيث عاد إلى النص القرآني ووظفه توظيفا فنيا لتقارب الواقع بين الموقفين؛ موقف سيدنا يونس المذكور في القرآن ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَمَمَهُ الْحَوْتَ وَهُوَ مَلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾⁽²⁸⁾ وبين موقف الشاعر وواقعه، بين تكذيب قوم يونس ليونس عليه السلام ومغادرته لهم غاضبا لأنهم كذبوه، وبين يوسف وغليسي اليائس الساخط على ما آل إليه أمر وطنه (يتعاورني اليأس برا وبحرا..)، وحتى يجسد الشاعر هذه المشاعر ويعبر عن رفضه وعدم تقبله لهذا الواقع المعاش استحضّر النص القرآني وحاوّر بناءه، وبهذا فالشاعر قد وظف المقدس الديني لي طرح من خلاله رؤيته دون تقريرية تفقد النص الشعري قيمته الجمالية⁽²⁹⁾؛ أي أنه انتقل بالنص الشعري إلى آفاق دينية أكثر رحابة بغية تعجير طاقات النص، وإضفاء جانب من القداسة الدينية لتوليد دلالات جديدة.

1-4- قصة هجرة النبي:

من القصص التي وظفها الشاعر يوسف وغليسي في التغريبة قصة هجرة النبي ﷺ ومكوته في الغار، قصد استغلالها وإسقاط بعض ملامحها على تجربته، وفي هذا الصدد يقول:

ألجأ الآن وحدي إلى "الغار" ..

لا أهل .. لا صحب .. إلا الحمامة والعنكبوت

غربتتي الديار التي لا أحب ديارا سواها

ولكنني متعب .. متعب من هواها ،،

فيا أيها الحب إسحبْ خلّياك من دمي

- التّوّ - إسحب .. ودعني أموت...⁽³⁰⁾

والملاحظ أن الشاعر حين استحضاره لهذه القصة في نسيج متنه الشعري لم يستحضرها كاملة، بل اقتطع منها جزءاً، ثم صهرها في ثنايا خطابه الشعري، وترك ما يدل على مرجعيتها(الغار، الحمامة والعنكبوت)، ولكن جاء في النص القرآني: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾⁽³¹⁾ أما في النص الشعري(ألجأ وحدي إلى " الغار" ..)، وهنا نلمس غربة الشاعر وإحساسه بالوحدة في ديار ما أحب ديارا سواها، ولعل الداعي من توظيف هذه القصة هو التقاء مشاعر حب الوطن والبلاذ في نفسي النبي صلى الله عليه وسلم والشاعر، فكما كانت مكة أحب البلاذ إلى النبي كانت الجزائر أحب البلاذ إلى الشاعر .

1-5- قصة عيسى عليه السلام:

يتفاعل النص الوغليسي مع قصة صلب المسيح عليه السلام ورفعته إلى السماوات:

يسألونك عني ..

قل إني ما قتلوني ، وما صلبوني ، ولكن

سقطت من الموت سهواً ..

رُفعت إلى حضرة الخلد ..

إني تلاشيت سكراناً ..

إني تشظيت في وهج الوجد ..

غيببت في آبد الأبدين⁽³²⁾

يرجعنا المقطع الشعري إلى قوله تعالى: ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن

مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه

ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما⁽³³⁾

والشاعر في هذا المقطع يتحدث على لسان النبي عيسى عليه السلام موظفا تقنية القناع، نافيا عن نفسه القتل والصلب، كما نفى الله ذلك عن نبيه، وبهذا يتوحد الماضي بالحاضر، وتتعمق التجربة الشعرية ليتخذ رمز المسيح عليه السلام أبعادا ودلالات جديدة معبرة عن واقع الشاعر وحالته النفسية التي تتوق إلى عالم المثل (رفعت إلى حضرة الخلد)، وهذه التقنية تمنح النص الشعري سمات الانفتاح والامتداد، حين يُدخِل الرمز القارئ في عوالم جديدة لا حدود لها ويدفعه إلى التعمق والغوص في مضمون النص.

ومن هنا يمكن القول أن هذه القصيدة (تجليات نبي سقط من الموت سهوا ..) التي تغطي مساحة كبيرة من الديوان، تؤكد الامتزاج بين الذات الشاعرة والمقدس الديني والواقع العام؛ حيث انعكست صورة هذا الواقع في النص الشعري بطريقة فنية هي استحضار الرموز والقصص القرآنية لنفي التقريرية عن الإبداع الشعري، فالتحام هذه الرموز وكثافتها واجتماعها في قصيدة واحدة يغنيها ويضفي عليها صبغة الحداثة وفق الرؤية المعاصرة.

2- تناص الآية القرآنية:

حضرت الآية القرآنية في الخطاب الشعري ليوسف وغليسي بشكل أقل كثافة من حضور القصة القرآنية، إلا أن حضورها أضفى قوة وجزالة على النص الشعري؛ من خلال أساليبه وطريقة صياغته.

ومن توظيف الآيات القرآنية قول الشاعر:

نقشوا لـ " تهودة " في البال أيقونة ،

ثم خروا لها ساجدين وناموا على طيفها ،

بعدهما ناصبوني العداء.⁽³⁴⁾

تحيل عبارة (ثم خروا لها ساجدين) إلى آيات كثيرة من سور القرآن:

﴿خروا سجدا وبكيا﴾⁽³⁵⁾ ، ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا

وسبجوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾⁽³⁶⁾ ، ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له

سجدا⁽³⁷⁾، وقد اعتمد الشاعر في هذا المقطع على التناص الاجتراري الذي يعيد فيه الشاعر كتابة النص الغائب بشكل جامد لا حياة فيه⁽³⁸⁾، ووظف لفظة (خروا) لأنها تدل على سجود التعظيم، معبرا عن فئة اتخذت من (تهودة) - الموقعة التي استشهد فيها عقبة ابن نافع سنة 64 هـ - منبرا للتعظيم، وضريحا للعبادة.

ويواصل الشاعر تعالقه مع النص القرآني حين يقول:

"وطني امرأة وشحت روحها بالعفاف ..

وأنا الملك الأدمي الذي يشتهي

أن يموت على صدرها المرمرى

خاشعا يتصدع من خشية الوجد والانخطاف"⁽³⁹⁾

إن السطر الأخير من المقطع امتصاص لقوله تعالى: ﴿لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾⁽⁴⁰⁾ حيث غير الشاعر تركيب هذه الآية؛ فاستبدل اسم المفعول (متصدعا) بالفعل المضارع (يتصدع)، واستبدل لفظ الجلالة (الله) بلفظتي (الوجد والانخطاف) تطويعا للنص وإعادة صياغته وفق متطلبات النص الحاضر. وفي المقطع نفسه يضيف الشاعر قائلا:

ويحكم كلكم غارق في الدموع؛

فمن سيدل الخطيب على سارق المصحف؟

أو نذبح " صفراء فاقعة اللون " كي نهتدي...⁽⁴¹⁾

وهنا استدعاء لقوله تعالى: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾⁽⁴²⁾، واستحضر الشاعر هنا قصة موسى مع قومه في شأن قتلهم لنفس منهم، ليقابلها بحادثة معاصرة لزمان الشاعر هي سرقة الوطن من قبل أبنائه الذي عبّر عنه بـ(المصحف)، وفي هذا استحضار لإطار القصة القرآنية بمحاورة بنية نصها الغائب⁽⁴³⁾.

وفي هذا الصدد أيضا يقول:

سأعود غداة تزلزل تلك الممالك زلزالها

و " جبال الزبربر " تخرج أثقالها

ويعود الحمام إلى شرفات البيوت ...⁽⁴⁴⁾

يتفاعل هذا النص مع قول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾⁽⁴⁵⁾ فحذف مفردات وأضاف مكانها أخرى، فعوضاً عن الأرض وضع (الممالك) في السطر الأول، و(جبال الزبير) في السطر الثاني؛ لينسج على منوال الآية الكريمة، مؤكداً سقوط الممالك (الحكومة) الطاغية، ويعم السلام والأمن ربوع الوطن من جديد (ويعود الحمام إلى شرفات البيوت...) وهذه نظرة استشرافية مستقبلية لشاعر احترف النبوة وحاول تحقيقها في مخيله الشعري.

ومما جاء في التغرية أيضاً من تناس مع آيات القرآن قول الشاعر:

ما التين؟ ما الزيتون؟ ما البلد الأمي - من؟ وما الحياة؟ ومن أنا؟ لولاك⁽⁴⁶⁾

هذا البيت يشير إلى قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين﴾⁽⁴⁷⁾، والملاحظ أن الشاعر قد حاور الآيات وغير من صيغة الخطاب في النص الغائب من القسم الرباني إلى أسلوب الاستفهام المشحون بالحيرة في النص الشعري، عن طريق التناس الإحالي الذي لا يعلن فيه الشاعر عن ملفوظ مأخوذ من نص آخر، وإنما يشير إليه، ويحيل الذاكرة القرائية عليه، عن طريق وجود دال من دواله⁽⁴⁸⁾.

ومن توظيف التناس القرآني في النص الشعري عند يوسف وغليسي ما

أورده الشاعر في قوله:

تساءل أبناء أمي حيارى

غداة رأونا ندافع عن عرضها ...

ولما تساءلت عن سر امرأة

من بلادي ،،

على الآخرين توزع فتنتها ...

قيل لي:

" لكم دينكم ولها دينها " ⁽⁴⁹⁾

فالسطر الأخير من المقطوعة يتناس مع قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينُ﴾⁽⁵⁰⁾

والشاعر هنا أخذ النص القرآني ووظفه توظيفا واضحا وحرفيا، ووضع بين علامات تنصيص، إلا أنه غير الضمير الذي يعود عليه القصد من ضمير المفرد

المتكلم الذي يعود على النبي ﷺ في الآية القرآنية، إلى ضمير المفرد المؤنث الغائب الذي يعود على المرأة في النص الشعري، معبرا عن واقع المرأة في زمنه وبلاده. وقد تعامل الشاعر يوسف وغليسي مع النص القرآني تعاملًا واضحًا؛ حيث تعالقت نصوصه الشعرية مع الآيات القرآنية، وتراوح تفاعله بين الاجترار والامتصاص، وعن طريق تقنية التناص استطاع الشاعر إثراء مضمون نصه بدلالات جديدة.

وخلاصة ما تقدم، أن القرآن الكريم كان مصدرا خصبا من مصادر الشاعر يوسف وغليسي؛ استلهم منه صورا ومواقفا للتعبير عن مقاصد تجربته الشعرية؛ حيث كانت تلك الدلالات المستحضرة عن طريق التناص صورا ناطقة بما كان يعانيه الشاعر من غربة روحية وانكسارات نفسية، فتوظيف النص القرآني جاء بما يخدم المعنى الشعري ويقوي من دلالاته، ليزيد من الثقل الفني للإبداع الشعري.

الهوامش:

- (1) ابن منظور، لسان العرب، مج 6، مادة نصص، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص 4441.
- (2) أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 3، عالم الكتاب الحديث، القاهرة، ط 1، 2008، ص 2221.
- (3) الخليل ابن أحمد الفراهيدي، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هندأوي، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، 2003، ص 228.
- (4) مصطفى السعدني، التناص الشعري قراءة أخرى لقضية السرقات، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ط، 1991، ص 73.
- (5) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2004، ص 226.
- (6) أحمد ناهم، التناص في شعر الرواد، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2007، ص 19.
- (7) تيزفيتان تودوروف وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد (مفهوم التناص في الخطاب النقدي)، تر: أحمد المدني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د ط، 1987، ص 103.

(8) عبد الجليل مرتاض، التناص، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 2012، ص 10.

(9) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 1، د ت، ص 121.

(10) أحمد الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2000، ص 11.

(11) أمانة بلعلی، عولمة التناص ونص الهوية، مجلة الخطاب، دورة أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، ع 1، ماي 2006.

(12) سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2006، ص 17.

(13) عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، د ط، 1985، ص 320.

(14) حسين خمري، فضاء المتخيل (مقاربات في الرواية)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2002، ص 100.

(15) محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، د ط، 2002، ص 29.

(16) نبيل علي حسنين، التناص دراسة تطبيقية في شعر النقااض جرير والفرزدق والأخطل، دار كنوز المعرفة بدعم من وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط 1، 2010، ص 216.

(17) يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط 2، 2003، ص 27.

(18) المصدر نفسه، ص 62، 63.

(19) سورة الشمس، الآية 11 - 15.

(20) ينظر: محمد العربي الأسد، بنيات الأسلوب في ديوان " تغريبة جعفر الطيار " ليوسف وغليسي، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير، (مخطوط)، إشراف: د/ العيد جلولي،

جامعة قاصدي مرياح ورقلة، 2009-2010، ص 123.

(21) الديوان، ص 28، 29.

- (22) سورة يوسف، الآية 15.
- (23) الديوان، ص 29.
- (24) سورة يوسف، الآية 84.
- (25) سورة يوسف، الآية 04.
- (26) الديوان، ص 31، 32.
- (27) جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر العربي المعاصر، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، دط، دت، ص 173.
- (28) سورة الصافات، الآية 139-144.
- (29) ينظر: أحمد زكي كنون، المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر من النكبة إلى النكسة، أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2006، ص 97.
- (30) الديوان، ص 38.
- (31) سورة التوبة، الآية 40.
- (32) الديوان، ص 40.
- (33) سورة النساء، الآية 157، 158.
- (34) الديوان، ص 30.
- (35) سورة مريم، الآية 58.
- (36) سورة السجدة، الآية 15.
- (37) سورة يوسف، الآية 100.
- (38) ينظر: محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 1985، ص 253.
- (39) الديوان، ص 34، 35.
- (40) سورة الحشر، الآية 21.
- (41) الديوان، ص 35.
- (42) سورة البقرة، الآية 69.
- (43) ينظر: محمد العربي الأسد، بنيات الأسلوب في ديوان " تغريبة جعفر الطيار " ليوسف وغليسي، ص 122.
- (44) الديوان، ص 41.
- (45) سورة الزلزلة، الآية 01، 02.

(46) الديوان، ص 61.

(47) سورة التين، الآية 01-03.

(48) ينظر: عصام حفظ الله حسين واصل، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر -

أحمد العواضي أنموذجاً - ، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2011، ص 95.

(49) الديوان، ص 68.

(50) سورة الكافرون، الآية 06.

صورة المدينة الصحراوية الجزائرية من خلال الكتابات الرحلية الفرنسية د. أحسن دواس - جامعة سكيكدة

الملخص:

رسم الرحالة الفرنسيون في القرن التاسع عشر صورة للجزائر في عديد مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها ولم يهملوا الناحية العمرانية فوصفوا المدن والقرى ورسدوا خصوصياتها العمرانية والاجتماعية وخصائص سكانها وعاداتهم وتقاليدهم.

ستركز هذه الورقة على رصد صورة ثلاثة مدن صحراوية جزائرية بعيون فرنسية هي الوادو بسكرة وبوسعادة .

Résumé

Les écrivains voyageurs français ont essayé de tracer une image de l'Algérie dans de différents domaines, culturel, social et religieux, sans omettre le domaine architectural, et ils ont décrit les villes et les villages, enreprésentant leur caractéristiques architecturales et sociales et les traits de leur habitants, leur coutumes et leur us. Dans cet article on va se concentrer sur l'image de trois villes Sahariennes algériennes: Eloued, Biskra, et Bousaada

الجزائر واحدة من ثلاثة بلدان في حوض البحر الأبيض المتوسط التي تشترك في هذا البحر الهائل من الرمال المعروف بالصحراء الكبرى. ومع أنّ الوصول إليها لم يعد صعباً، فما يزال للصحراء الكبرى سحرها وغموضها الخاص. ووجود المطارات والطرق البرية الجيدة والفنادق المريحة يتيح المجال لرؤية جمال طبيعتها، على الأقل في قسمها الشمالي.

وقد وصف الرحالة الفرنسيون الصحراء الجزائرية أوصافا مختلفة فهذا ريني بوتيري René Potier يقول بأن الصحراء كما يطلق عليها إداريا بالإقليم الجنوبي وهو لفظ يطلق على منطقة شاسعة جدا وهي جغرافيا المنطقة المتصحرة التي تحزم الكرة الأرضية، ولها حدودها الطبيعية من الأطلنطي في الغرب، دعامة الأطلس والبحر الأبيض المتوسط في الشمال، البحر الأحمر في الشرق.

فالصحراء ليست تلك المنطقة المتصحرة التي تستحيل فيها الحياة إلا على البدو الرحل، وهي ليست بلادا مجدبة ولكنها بلاد جافة بحيث أنه يكفي أن تمطر غيمة على منطقة انعدمت بها النباتات لتزهر الأرض وتكتسي حلة بهية من الأزهار والورود في خلال أيام معدودات. وبرغم الرمال وزوابعها فإن الصحراء يقول بوتيري ليست هي تلك الصورة التي في أذهان الأوروبيين التي توارثوها من خلال بعض الجغرافيين القدامى على أن الصحراء؛ رقعة ممتدة من الرمال وبعض النخيل.

وللصحراء أربعة مظاهر مختلفة:

-الجبل في الشمال والوسط ودعامة الهضاب العليا والهقار والطاسيلي
-الحمادة سهول صخرية منخفضة ولكن السطح تغير بسبب الزلازل التي أعطت للصحراء تضاريسها

-الرق: رقعة منخفضة أخرى تتوزع فيها الصخور

-العرق: تراكم للغبار ومواد أخرى من مناطق أخرى نقلتها الرياح ثم أوقفها حواجز لتشكل كثباناً تتوزع هنا وهناك على مساحة الصحراء، وأشهر مجموعتين هما العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير. (1)

أما الرحالة ألفرد بارودون Alfred، BARAUDON فيقول: "الصحراء بحصر المعنى هي ذلك الإقليم الشاسع الممتد من الجزائر وليبيا إلى السودان ومن الأطلنطي إلى مصر، ربع إفريقيا. ونعني بالصحراء الجزائرية تلك القطعة الممتدة من توات وسهول تادميت وتينقيرت من الجنوب،

في الخلف تقف جبال الأهقار على علو ثلاثة آلاف متر بقممها المتوجة بالثلوج، موطن الطوارق.

في الصحراء نجد كل شيء؛ سهول شاسعة رتيبة كتلك التي تمتد من بسكرة إلى ورقلة، هضاب مفصولة بوديان كشبكة الميزاب وكثبان رملية موحشة متعذر عبورها. (2)

وعما تمنحه الصحراء للناظر يقول لومبال: "تمنح الصحراء للناظر سلسلة من السهوب، أو الأراضي القاحلة التي لا تصلح للزراعة، وتنقسم كالتل إلى منطقتين متوازيتين؛ تتكون الأولى من سهل براح ينتج النجيليات والنباتات العطرية، غير أننا لا نجد بها لا غابات ولا أراض زراعية. أما المنطقة الثانية وباستثناء زراعة النخيل ونباتات الواحات فإنها تمثل وجه الجفاف. كل هذه المناطق المختلفة مفصولة بثلاث سلاسل جبلية هي الأطلس الصغير، الأطلس المتوسط والأطلس الكبير والتي ترتفع بدرجات متفاوتة عن مستوى سطح البحر". (3)

مسارات الصحراء

حين تزمع الرحيل خاصة للمرة الأولى إلى الصحراء الجزائرية تجد نفسك أمام ثلاث طرق متوازية مؤدية إلى هذه الرقعة الغامرة بالجمال وهي طريق الجنوب الوهراني، طريق الجنوب الجزائري وطريق الجنوب القسنطيني يقول ريني: بالنسبة لي لا مجال للتردد فأحسن مسار للتوغل في الصحراء هو مسار الجنوب القسنطيني لأنه المسار الوحيد الذي يدخلك عمق الصحراء أما المساران الآخران فقد تجانب الصحراء وتخسر التمتع بالواحات التي ستصادفها في طريقك إذا كان المسار من الجنوب القسنطيني. (4)

- البعد العمراني

العمران صورة المجتمع ومرآته الحضارية فمن خلال النمط العمراني نستطيع معرفة الكثير من الخصائص التي يتميز بها مجتمع ما. والمدن الصحراوية فضاءات ساحرة، تطرق الرحالة الفرنسيون بالوصف إلى الكثير من هذه المدن التي كانت تشكل نموجا متميزا وجديدا في نظرهم. وسأطرق إلى ثلاثة مدن منها؛ هي مدينة الوادي، مدينة بسكرة ومدينة بوسعادة.

أ- الوادي

مدينة الوادي عاصمة الصّوف في الجنوب هي مدينة الألف قبة بسبب وجود قبة على كل سطح من سطوح منازلها لكي تُعكس أشعة الشّمس الحارقة، وتزيد من مساحة السطح، لتخفيف وطأة الحرارة أيضًا.

والأمر الآخر المُدهش والذي يُمكن أيضًا رؤيته من مئذنة جامع سيدي سالم أو من سطح الفندق، هو وجود الكثبان الرّمليّة الكثيرة التي تلفّ مدينة الوادي. كذلك تمّ حفر خنادق عميقةً طويلةً، ورُزعت حوالي نصف مليون شجرة نخيل في القعر لكي تتمكن جذور هذه الأشجار من الوصول إلى المياه الجوفيّة. وكانت النتيجة أنّ تمورها من أفضل التّمور في الجزائر.

إضافةً إلى ذلك، فلقد استُعمل سُعف النّخيل الجافّ كحواجز لصدّ الرّمال الصّحراوية واتّساع الرّقعة الصّحراوية الرّاحفة نحو المدينة وما حولها. تُشيد منازل منطقة الميزاب الصّحراوية بطريقةً فريدةٍ من ناحية مواد البناء المُستخدمة والأسوار وموقعها تحت الأرض، بحيث تتكوّن من طبقةٍ عازلةٍ للمنازل وما حولها. وحتىّ المساجد ومنازل الأغنياء تُبنى على الطّريقة نفسها.

وحول تسمية وادي سوف فإنه قد اختلف حول مصدرها فهناك من يحيلها إلى كلمة صوف العربية، وذلك أن المنطقة اشتهرت بنسيجها للصوف، وكان النسيج أهم مصادر الرزق⁽⁵⁾. آخرون يقولون بان كلمة سوف أصلها "سيوف" جمع سيف والتي تعني الكثبان ذات القمم الناتئة وقد تحورت بعض الشيء لتصبح سيوف أي المدينة ذات الكثبان.

وهناك قصة أخرى حول تسمية سوف ومفادها أنه في عهد المسيحيين كان نهر يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب يسمى وادي إزوف أي النهر الذي يرقرق، لكن المسيحيين أُجبروا على التراجع أمام الفتح الإسلامي المظفر فعمدوا إلى إغراق النهر في عمق الرمال وفروا، ثم تحولت وادي إزوف إلى وادي سوف، ونجد كلمة سوف في لغة الطوارق وتعني النهر الأبيض.⁽⁶⁾، تمتد المدينة على مساحة تقدر بـ 82.800 كلم² بين خطي طول 30° و 34° درجة شمالا. ويصف مارتنيز كثبان الرمال المتحركة بمنطقة الوادي ملتقطا لها صورة فوتوغرافية جميلة لهذه الظاهرة

الطبيعية الفريدة التي تتميز بها المنطقة مقارنا بين صحراء الوادى والصحارى الأخرى، "إذا كانت صحراء الهضاب بحرا ثابتا في أوقات الهدوء، فإن صحراء الرمال تشكل لنا بحرا متحجرا خلال عاصفة هوجاء، كثبان تشبه الأمواج ترتفع الواحدة خلف الأخرى على مدى الأفق... ثم تتحول إلى قمم حادة، تتسل في شكل أهرامات وتتكور في شكل قباب أسطوانية. الرمل في حالة تغير مستمر جراء الرياح التي تحمله . على السطح يمكن أن نرى طبقة متحركة من الغبار تجري وتصعد منحدرات الكثبان، فتتوج القمم وتسقط على شكل طبقات في الجهة الأخرى." (7)

أما روبر جورج فيقدم لنا وصفا جغرافيا لموقع الوادى والمدن والقرى المحيطة به فيقول: تقع وادى سوف بين وادى ريغ وتونس، وهي بلد جاف به رمال متحركة، يبلغ عدد السكان به خمسا وعشرين ألف نسمة، موزعة على سبعة قصور؛ وفي الوادى المدينة الرئيسية ثمانية آلاف نسمة، أما المناطق الأخرى فكثافتها السكانية قليلة وهي: كوينين، تارزوت، إيغوم، البهيمه، الدبيلة وسيدي روم. وهناك بين الوادى وتقرت حوالى ثمانين كيلومترا يمكن قطعها خلال ثلاثة أيام عبر الكثبان الرملية. (8)

ومن الرحالة الذين عشقوا هذا البلد، واستوطنوه، نجد الرحالة إيزابيل إبرهاردت Isabelle Eberhardt التي كتبت الكثير عن هذه المنطقة وأهلها، تقول إيزابيل: " لقد وهبتي رؤيتي الأولى للوادى حالة من التجلي المطلق، وانطباعا نهائيا عن هذا البلد، الشرس والرائع والذي هو سوف، من خلال جماله الغريب، وكأبته الكبيرة كذلك" (9) ، ثم تصف في مقام آخر الوادى مقدمة لها صورة منظورية كاملة:

"هنا وهناك ركائز آبار بدائية، عارضة كبيرة متجهة صوب السماء، وقد انحنت بواسطة جبل كأنها صنارة صياد عملاقة. وهناك، مهيمن على الكل في قمة الهضبة برج مربع ذو بياض ناصع يطوق الشفافية المحيطة بالمكان. يتلأأ وسط النهار الساطع، محتفظ في المساء بآخر الأشعة الحمراء للغروب: إنه منارة زاوية سيدي سالم.

في الضواحي المحبوبة بالكثبان، قرى معزولة، حزينه وقديمة، والتي كانت أسماؤها ذات وقع موسيقي غريب: البياضة، فم السحوم، أولاد علاندة، بير عراير...

كان الإحساس الأول الموجه حد الشجن لجاك هو إحساسه بالسجن بين كل هذا الرمل، جراء عزلته الكلية والتي قضاها على مدار ثمانية أيام، والتي اعتقد أنه أدرك فحواها، وقد بدأ يتعلق بها...

وها الآن، كل هذا الفضاء الذي يفصله عن بسكرة، أين ترك آخر المناظر المعروفة، و المؤلف إلى حد ما لديه. كان يبدو له كل ذلك ساحرا، مستبدا، عدائيا حد اليأس تقريبا... " (10)

وسحر سوف لا يتجلى إلا في هذا المقطع الشعري الجميل لإيزابيل إبرهاردت وهي تصف الوادي مساء:

تحت سماء الربيع الرحبة، الصافية والمضيئة، تحت ضنى الصيف الثقيل، تمتد كثبان سوف متموجة، لازوردية في الأمواج البعيدة... أحب جاك أن يغادر المدينة التي أحب، في الوقت الذي أحب، عند غروب الشمس. وللمرة الأخيرة كان جاك يشاهد كل ذلكم الديكور الذي لن يره أبدا، وانقبض قلبه. للمرة الأخيرة، كان مشهد الفتاة الكبرى للمساءات المشرقة يمر أمام عينيه الطافحتين بالحنين ...

عندما مر على كتيب سي عمر الكبير، وتوارى الوادي خلف الجدار الشاهق للرمل القرمزي، أحس جاك باستسلام حزين يبعث السكينة في قلبه... إنه هادئ الآن وهو يشاهد الضيعات الصغيرة الحزينة، والزرائب الصغيرة المبنية من سعف النخيل، المنازل ذات القباب، تتمدد بإفراط الظلال الضاربة للون البنفسجي لجوادي الفارسين وقد احمر في ضوء المساء الأحمر. (11)

ب- بسكرة

مدينة بسكرة الواقعة على مسافة 245 كلم جنوبي قسنطينة قاطعة جبال الأوراس، هي واحة صحراوية بكل معنى الكلمة، مع ملايين أشجار النخيل. كما تُعرف بواديهما الذي يمر في وسطها والجامع وقبته ومئذنته ومناخها المتوسط والمناطق الزراعية المحيطة بها. وتعدّ بسكرة أكبر مدينة صحراوية وفيها ضريح عقبة بن نافع الذي قُتل على أيدي البربر سنة 62 للهجرة، خارج المدينة. ويُعدّ ضريحه أقدم مزار إسلامي في الجزائر، ويزوره الحجاج منذ ذلك الحين.

بسكرة ملكة الزيبان كما يسميها أوغست بيسي Auguste BESSET ، إنها الصحراء ذلك البراح ، ذلك المحيط الشاحب، الموشى بالبقع الداكنة، إنها واحات الزيبان. (12)

ويقول بارودان بأن بسكرة تعني في بالثماله، وإنما فعلا ثماله سمائها الزرقاء دوما، وشمسها الملكية، وأزهارها ذات الأريج الفواح، وحياتها اللامبالية والحسية، كل هذه الأشياء هي التي أضفت عليها هذا الاسم. بمدخل الصحراء، بشساعتها المغربية، وواحيتها العذبة، كما جنة ساحرة. (13)

والمدينة من بسكرة إلى تقرت عبارة عن شريطٍ من الواحات المليئة بأشجار النخيل بمحاذاة نهر وادي رهير .

يناجي بول بورد مدينة بسكرة، مشيدا بسحرها وروعها، أرضا وسماء، ربيعا وشتاء، واصفا شمسها وماءها، هواءها وعطرها؛ وكيف أنها ستكون قبلة كل السواح، حين يهجرن المدن الأوروبية ليلتحقوا برملها فيقول:

"يا بسكرة ! من ذا الذي يستطيع أن ينسأك من بعد ما رآك... سحرك المستبد سيأسر تلك التخيلات المقرفة... وسيهجرن نيس وإيطاليا والجزائر العاصمة من أجل ظل نخيلك... فيك الشتاء خريف وربيع إذ آنذاك تنضج تمورك ويصفو عسلك، وتتحني أشجار الرمان والبرتقال تحت ثقل فواكهها. شمسك دوما دافئة، وهوأوك دوما خفيف عليل... الحياة والنسغ لا يتوقفان أبدا في حدائقك، والماء من ينابيعك يتمتم باستمرار خضرة سرمدية." (14)

و يسميها ريني بوتيني ملكة الزيبان... بسكرة الجميلة هذه المدينة التي تتسيك أنك على مشارف بلاد صعبة مليئة بالفخاخ والأغوار بفنادقها الفاخرة وكازينوهاتها.. ومسجدها سيدي عقبة. والبسكريون قوم تعودوا على المسافرين الأجانب إذ أنهم يتحدثون أكثر من لغة وهم أهل مكر وحيلة وخداع فمثلا سعر النزهة على ظهر جمل يكون في البداية سعرا رمزيا للغاية حتى تستغرب من ذلك السعر ولكن بعد انتهاء النزهة يكون النزول من على الجمل بمائة فرنك. (15)

أما هنري دي فريلوز فيشير إلى خصوصيات هذه الواحة وكيف أنها مختلفة عن الواحات الأخرى: "هذه الواحة مختلفة قليلا عن الواحات التي سنراها فيما بعد؛

فهي مقسمة على مجموعة من الحدائق، المقسمة بدورها بواسطة أسوار من الطوب، وبآلاف القنوات الصغيرة، ولا يزرع بهذه البساتين إلا النخيل وبعض أشجار التين والزيتون. (16)

واسم بسكرة مأخوذ من السكر والثمالة، وفعلا هي ثمالة سمائها الصافية دوما، وشمسها الملكية، وازهارها ذات الأريج الفواح، وحياتها اللامبالية والحسية كل هذه الصفات هي التي أعطتها هذا الاسم.

بمدخل الصحراء، بشساعتها الخلابية، تقع واحتها العذبة كجنة ساحرة. تهب نفسها للصحراويين ولرجال الشمال الذين يقفون مع أنفسهم بها قبل التوغل في المناطق المجهولة من الصحراء. بسكرة الساحرة تهزأ من كل المعاناة والآلام. على ترابها الرطب، بسبب كثرة أنهارها الجوفية ينبت النخيل خصبا شهيا، وبنادير فتيات أولاد نايل التي يتردد صداها في المنازل المغلقة. على سفح جبال الأوراس التي تقيها من رياح الشمال، تتمدد بسكرة كملكة متيقظة لكل تناغم الفضاءات المهترزة، وقد تسرّلت بأشعة الفجر الذهبية.

تنقسم المدينة إلى قسمين بسكرة القديمة وبسكرة الجديدة، فالجديدة يقول بارودون أنها قرية كبيرة يرجع تاريخ تأسيسها إلى 1844، شوارعها الكبيرة المنتظمة محاطة ببنائيات ذات طابق واحد مبنية بالطوب المطلي بالجير ومسقفة بالقرميد، تقع في وسط المدينة، ساحة جميلة ذات أشجار عديدة نزل الصحراء مقابل للكنيسة الجديدة ذات الطراز العمراني الروماني، وكل المنازل مزينة بأقواس يلجأ إلى ظلها عند اشتداد الحرارة.

أما بسكرة القديمة فإنها تقع بعيدا باتجاه جنوب شرق، وتمتد على مسافة خمس أو ست كيلومترات بمحاذاة الوادي. وهي مقسمة إلى أحياء غير منتظمة في الشكل، غير أنها متشابهة في المظهر، تحمل أسماء القبائل التي تسكنها. إنها الواحة بأرضيتها الصفراء المرملة، حيث حفرت قنوات تجري بها مياه السيول والآبار الارتوازية. وبين هذه القنوات تمتد أشجار النخيل المحاطة بأسوار من الطين لتشكل بذلك بساتين وحدائق.

ج- بوسعادة

"تنام بوسعادة، الملكة الضارية متسريلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية ؛ لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية. وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح... وأريجها الذكي يخلق في دفاء الجو الرطب نائرا كأبة مبهمة فاتنة..."⁽¹⁷⁾

بهذا الاستهلال تبتدئ الكاتبة قصتها نحيب اللوز، راسمة طبيعة بوسعادة هذه المدينة التي تدهش زائرها وتملا قلبه وجوانحه سعادة - أوليست بوسعادة - جالبة الفرح، مثيرة الحبور في النفوس بمناظرها الطبيعية الخلابة ، وسحر رمالها ونقاوة هوائها وطيبة أهلها؛ إنها مكان السعادة، وحول تسميتها بهذا الاسم يورد الدكتور لافيغري في مجلة حول العالم المختصة في الرحلة والاستكشافات الجغرافية أسطورة تعود إلى القرن السادس عشر ، تاريخ بناء مدينة بوسعادة.

"تقول الأسطورة : في القرن السادس للهجرة، قدم رجل شريف يدعى سليمان بن ربيع ليستقر بسفح جبل مسعد. بعدها بقليل التحق به رجل دين فاضل يدعى سي ثامر ، الذي درس العلوم بزوايا ومدارس فاس. أعجب سي ثامر بجمال الوادي وصفاء النبع، فطرد الذئاب التي كانت تسكن المكان بمساعدة رجال سي سليمان، وشيد بيتا هناك ليستقر به ويتفرغ للتأمل ودراسة الكتب . وقدم بعض البدو من أولاد ماضي وأولاد نايل لزيارة الرجل الصالح، بعد أن ذاع صيته وعلمه وعدله بالمنطقة ليصل إلى المسيلة ويتعدها. ليلتحق بالشيخ طلاب العلم للنهل من دروسه وعلمه الغزير، ويبتوا منازل لهم بجواره ، ليضعوا بذلك النواة الأولى لمدينة جديدة. بعدها بني مسجد هناك وبعد الانتهاء من بنائه، اجتمع الشيخ سي سليمان والشيخ سي ثامر لإطلاق اسم على المدينة الجديدة وبينما هم كذلك غير مستقرين على اسم محدد، سمعوا زنجية تتادي كلبتها : سعادة ! سعادة! فراقهما الفأل الحسن ، وتيمنا به أطلقا اسم بوسعادة على الواحة التي شيدت بها تلك المدينة."⁽¹⁸⁾

ومن الرحالة الفرنسيين الذين قدموا إلى بوسعادة وكتبوا عنها نجد دو بواروجي وقد روى هذا الأخير نفس القصة حول أسطورة تسمية بوسعادة، ثم يقول بأنها مبنية على شكل مدرجات.

ثم يضيف حول الحصن الموجود بها "الحصن وهو المكان الذي يلجا إليه الجنود أو الجيش في حالة الغزو من طرف الأعداء. في الساحة الكبيرة والحي الذي يمتد تحت الحصن ترتفع بعض البنايات الأوروبية (كنيسة، مدرسة ومحكمة). وبالساحة أيضا المبنى العسكري ببستانه المزروع بالنخيل وأشجار الرمان والورد... أما باقي المدينة فلها المظهر الصحراوي تماما؛ شوارع حجرية صغيرة محاطة ببيوت طينية رمادية اللون.

تنقسم بوسعادة إلى أحياء: المحامين، أولاد حميدة، شرفاء عشاشة، أولاد الحلاق.

يقطع وادي بوسعادة بساتين النخيل والأشجار المثمرة، ليقسمها إلى قسمين؛ قسم ملاصق للمدينة وآخر يبتدىء عند النهر. ويصل تعداد سكان بوسعادة إلى ستة آلاف نسمة.⁽¹⁹⁾

أما الكاتب الفرنسي الكبير غي دي موباسان (1850-1893) فيؤكد ان "واحة بوسعادة هي الأكثر حسنا في الجزائر، يمكننا أن نصطاد الغزلان الموجودة بكثرة بضواحيها... تتواجد بهذا القصر تجارة مهمة نظرا لوجوده تقريبا في طريق الميزاب"²⁰

ومهما يكن من الصورة التي رسمها الكتاب الفرنسيون للمدينة الصحراوية الجزائرية التي كثيرا ما كانت تجانب الصواب وبخاصة حين يتعلق الامر برصد العادات والتقاليد والمحمولات الثقافية فإن هذه الصورة تعد وثيقة مهمة يمكن الاعتماد عليها في تريميم الذاكرة التاريخية والثقافية والحضارية الجزائرية بالرغم من بعض الشطط الذي وقع فيه هؤلاء الرحالة.
هوامش:

- 1-POTTIER, René: **Le Sahara**, B.Arthaud, France, 1950, p8
- 2-BARAUDON, Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris librairie Plon 1893 p 190
- 3-Le conte de Lombelle **Illustrations d' Afrique**. Tour Alfred name et fils editeurs.p10
- 4-POTTIER, René: Sahara, B.Arthaud, France, 1950, p 30

- 5-ESCARD: **Etude sur le pays de Souf**, BonneBulletin de l'académie d'Hippone – n° 24,1890, p 24
- 6-VOISIN, André-Roger: **Le Souf Monographie**, El- Walid, Algérie,2004, p15
- 7-VOISIN, André-Roger: **Le Souf Monographie**, El- Walid, Algérie, 2004, p 13
- MARTINS, Charles: *Tableau Physique du Sahara Occidental . Revue des Deux Mondes*1864.
- 8-Robert, George: **Voyage à travers l'Algerie**, Paris,1891, p382.
- 9-VOISIN, André-Roger: **Le Souf Monographie**, El- Walid, Algérie, 2004, p 13
- EBERHARDT, Isabelle:**Dans l'ombre chaude de l'Islam**,Edition Fasquelle, Paris1906,
- 10-EBERHARDT, Isabelle **Le Major** , document électronique
- 11-Ibid, document électronique
- 12-BESSET, Auguste : **A Travers l'Algérie d'Aujourd'hui**, Imprimerie Roy frères, Chagny,1896, p 178
- 13-BARAUDON, Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris, librairie Plon 1893, p 169
- 14-BOURDE, Paul: **A Travers l'Algérie**,G. CHARPENTIER, ÉDITEUR, PARIS,1880p133 et 134.
- 15-POTTIER, René: **Sahara**, B.Arthaud, France,1950, p 32 et 33
- 16-DE FRILEUZE, Henri: **Impressions de Voyage, Algérie et Tunisie**. Alencon 1900. p 19
- 17-EBERHARDT, Isabelle: **Pleurs d'amendiers**, document électronique
- 18-Docteur A. Lavigerie: L'Oasis de Boussada In:**Tour du Monde** 18/ 2 Mai1902, p205
- 19-DE BOISROGER. A :**Le Sahara Algérien Illustré, Souvenirs de Voyage 1886- 1887**, Paris, p 8
- 20- نقلًا عن: بوداود، عمير، موباسان ويهود الجزائر، جريدة الخبر، عددالخميس 16 جوان 2005

دور السياق في تحديد معاني الألفاظ في التراث اللغوي العربي

صالح دريسي جامعة- برج بوعريرج

الملخص:

تحمل الكلمات دلالات كثيرة، وتوظف في الجمل لتؤدي معانيها ويحصل الفهم لدى المتلقي كما أراده المتكلم، ذلك أن المفردة وحدها معزولة لا يفهم معناها إلا بوجودها داخل سياق معين ومناسب لها، أي يتحكم عنصر السياق في تحديد معاني الألفاظ وفق ما يقتضيه حال المتخاطبين، والظروف المحيطة بهم، فالحدث الكلامي يتطلب أطرافاً وظروفاً لا بد أن يكون لها دور في توجيه المعنى، بعد التفريق طبعاً بين نوعين من السياق أحدهما لغوي والآخر غير لغوي، مع الاتفاق على أن معنى الكلمة يستمد من استعمالها، وبهذا تتجاوز الدلالات المعجمية لتلتقي بمختلف الظروف والملابسات وتكتسب دلالاتها الحقيقية المقصودة، مع مراعاة قواعد النظم والانتقاء في التراكيب لتستقيم المعاني.

الكلمات المفتاحية: دور، السياق، معاني، التراث.

Sammaury

The words have many meanings, which adopt it in the sentences to do the meanings, helping the recipient to understand all what the speaker want to say, because the individual word can't lead to the meaning only in the context either specific or appropriate one.

The context determines the meaning of words and what around them, the speech event requires many conditions helping to direct the meaning, of course after the differentiation between two kinds of context, the first one linguistic and the second one non-linguistic with the agreement that the meaning of the word has derived from their use. thus they exceed the lexicological

connotation to meet with the different conditions leading to the acquisition of the real meaning and lexicology , taking into account the rules of the structures to correct the meaning.

Key words

Role , context , meaning , heritage.

تمهيد:

نظرا إلى الأهمية الكبيرة التي يكتسبها السياق والدور البارز الذي يؤديه في تحديد معاني الكلمات، فقد أولاه علماء اللغة عناية فائقة ودراسة معمقة قديما وحديثا، من أجل الوقوف عند نقطة تحكم السياق في المعاني، ولم يخل مجال من المجالات من الاهتمام بهذا العنصر في تراثنا العربي، سواء أكان في الدرس النحوي أم البلاغي أم حتى الديني من منظور علماء الأصول والتفسير. وقبل التطرق إلى دراسة العلاقة بين السياق ومعاني الألفاظ لا بد من الوقوف على مفهوم السياق من الناحية اللغوية والاصطلاحية.

1- مفهوم السياق:

إذا بحثنا في المعاجم العربية نجد أن مادة "سياق" هي (س وق) وهي تظهر في معجم مقاييس اللغة لابن فارس ويتبين معناها في قوله: « السين والواو والقاف أصل وهو حدود الشيء، يقال ساق يسوق والسيقة ما سيق من الدواب ويقال سقت امرأتي أي صداقها وأسقته، والسوق مشتقة من هذا كما يساق إليها مذكر شيء والجمع أسواق. وساق للإنسان وغيره والجمع سوق وإنما سميت بذلك لأن الماشي يساق عليها»¹. نلاحظ أن صاحب هذا التعريف لم يصرح مباشرة بمعنى السياق أو دلالاته المشتركة بين مختلف معانيه اللغوية، لكننا نجد هذا الأصل (س و

¹ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ط 1، دار الفكر، المجلد: 3، 1979، ص 117. مادة (س و ق).

ق) أكثر وبشكل أدق في قول الفيروزآبادي: « والسباق كتاب: المهر، والمنساق:

التابع والقريب، وتساوقت الإبل تتابعت وتقاودت، والغنم تزاومت في السير»¹.
من خلال هذا التعريف لصاحب المحيط يتبين لنا المعنى العام الذي تجتمع عليه مختلف معاني هذا الجذر وهو التابع، فإذا تساوقت الإبل أو الغنم تتابعت وفي تتابعها يتصل بعضها ببعض، كذلك السوق مثلا فهي مكان للبيع والشراء وفيها معنى الاتصال والتتابع.

ومن الملاحظ أن في اللغة تتعدد معاني الكلمة الواحدة وتختلف وإن كانت تصب في معنى عام واحد، وهذا يؤدي بنا إلى الاتفاق على أن ما يحدد للكلمة معناها الصحيح والوظيفي هو استعمالها في سياق مناسب، ذلك أن « تعدد المعنى المعجمي لتلك الكلمة يرجع إلى صلاحيتها للدخول في أكثر من سياق»².

ولعل هذا ما يتفق مع نظرة النمساوي فيلغشتاين الذي يرى أن ما يحكم الكلمة ليس معناها أو مدلولها وإنما كيفية استعمالها في الكلام والسياق الذي ترد فيه، فالكلمة الواحدة تدل على معنى في سياق معين فإذا تغير السياق تغير معناها، وفي هذا الشأن يقول فيلغشتاين: « وليس للكلمة دلالة بل استعمالات ليس إلا»³.

فلما نقول: "استعمال الكلمة " لا نعني به توظيفها في كلامنا لنندل بها على معناها فحسب، بل نراعي في استعمالها كل الظروف الخارجية والداخلية التي تحيط بالحدث الكلام لنجعل الكلمة مناسبة للسياق وإلا كان هناك خلل ولبس في الفهم وتقدير الأمور.

¹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت،

لبنان، 2005، ص ص 335، 336.

² تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص 323.

³ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ط 2، دار القصبه للنشر والتوزيع، حيدرة،

الجزائر، 2006، ص 20.

غير أن هذا يقودنا مباشرة إلى مفهوم آخر كثيرا ما يتداخل مع مفهوم السياق وهو المقام، ما دمنا تحدثنا عما يحيط بالكلمات من ظروف وملابسات، وبشكل أدق نتجه إلى التفريق بين نوعين من السياق هما: السياق اللغوي والسياق غير اللغوي. أما السياق اللغوي فهو ينشأ على أساس مراعاة قواعد وقوانين نظم الكلمات بعضها بجوار البعض في تركيب معين، بحيث يتحدد معنى كل كلمة بالنظر إلى موقعها ودورها وفق انتظامها وتشكلها في جملة معينة أما السياق غير اللغوي أو ما يقال له سياق الموقف فيتعلق بما يحيط بالحدث اللغوي من عناصر غير لغوية.¹ وبهذا فإن استعمال الكلمة وتموقعها في الكلام هو الذي يحسم مدلولها والمقصود بها - كما ذكرنا سابقا - مع الالتفات إلى مختلف المؤثرات والعوامل والخلفيات التي تصاحب هذا الاستعمال اللغوي. وعليه فهذان النوعان: السياق اللغوي وغير اللغوي مجتمعين يحددان دلالة كلمة ما في تركيب أو نظم لغوي ما، فالكلمة نفسها تتجاوز معناها المعجمي لتكتسب معاني أخرى يحددها السياق وتتغير بتغيره.

وأما المقام فهو الوعاء الذي يحوي العملية الكلامية بمختلف عناصرها من متكلم ومستقبل (مستمع) وحالة كل منهما والظروف المحيطة بهما كالظروف الاجتماعية والنفسية، فالسياق غير اللغوي « هو سياق الموقف يحدد الخلفية غير اللغوية المحيطة بالعملية اللغوية ».²

من هنا تنشأ علاقة المعنى بطرفي الفعل التخاطبي كونهما أساس انتظام الكلام من الناحية اللغوية وتحديد مقاصده ومدلولاته من الناحية المقامية، وقد تظن علماء البلاغة لهذا الجانب واهتموا به أيما اهتمام، فعُرف السياق في علم البلاغة على أنه « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، أي أن التعبير الأدبي لا بد أن يحوي معنى يناسب السامع... ولن يكون المعنى مناسباً لمقتضى الحال إلا إذا

¹ ينظر: هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ط 1، دار الأمل للنشر والتوزيع،

الأردن، ص ص 163، 164.

² المصدر السابق، ص ص 163، 164.

جاء التعبير مصورا لأبعاد هذا المعنى، تلك الأبعاد التي تتولد في أثناء السياق تبعا لدرجات الانفعال، ولا شك أن مناسبة التعبير للسياق تقتضي طريقة تشكيل معينة¹.

فالكلام الموجه إلى شخص ما مثلا في موقف فرح غير الكلام في موقف حزن، لذا اتسع استعمال العبارة الشهيرة لكل مقام مقال؛ وهنا نستنتج عاملا يتدخل في تحديد المعنى داخل السياق وهو عامل الاختيار، أو انتقاء الألفاظ المناسبة للسياق والمقام المناسب، حتى يحسن الوقوع على المعنى ويُتقضى الغموض وسوء استعمال اللغة.

2- دور السياق في تحديد معاني الألفاظ:

من المعروف أن علماء العرب القدماء كانت لهم جهود جلييلة في كل مجال من مجالات العلم واللغة والأدب، وإذا كانت نظرية السياق قد تبلورت واكتملت ودرست أسسها حديثا فإن جذورها وأصولها تمتد إلى التراث العربي، بفضل ما كان يتوصل إليه النحاة والبلاغيون من نتائج وقواعد في مختلف جوانب الدرس اللغوي.

فإذا اتجهنا إلى ظاهرة التقديم والتأخير في اللغة العربية وجدناها مرتبطة بمقاصد المتكلم وما أراد إيصاله إلى السامع، وفي هذا يضرب سيبويه مثلا: "ضرب عبدُ الله زيدًا" فيقول: « فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك ضرب زيدًا عبدُ الله لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما... فمن كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربي جيد كثير كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم»².

من خلال هذا المثال يعتمد سيبويه أولا على العلامة الإعرابية في تحديد وظائف الكلمات داخل التراكيب فالمرفوع فاعل والمنصوب مفعول به وإن غيرا

¹ محمود محمد عيسى، السياق الأدبي، دراسة نقدية تطبيقية، مصر، 2004، ص ص 7، 8.

² سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ج 1، ص

موقعيهما في الجملة، ثم يركّز على خلفية تأخير الفاعل وتقديم المفعول به وهي مرتبطة بقصد المتكلم وما يريده، ويصرح بأن المقدم أهم فالمتكلم يقدم الأهم والذي يعتني به أكثر، وبهذا يتبع النظم اللغوي للألفاظ القصد النفسي للمتكلم. ومن الظواهر المعروفة في اللغة العربية أيضا نجد ظاهرة الحذف ودلالة السياق على المحذوف، وبهذا يعتبر قرينة تدل على اللفظ المحذوف وقيامه مقام المذكور في الكلام أو التركيب، ومثال ذلك يشرحه ابن جني في قوله: « من ذلك أن ترى رجلا قد سدّد سهما نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، فأصاب الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد في اللفظ غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ»¹.

ففي هذا القول لابن جني يذكر كلمة "الحال" للدلالة على السياق، فما دام الرجل بصدد التسديد فهو يهدف إلى الإصابة، لذلك إذا لم تذكر الكلمة ووجد ما يدل عليها يستقيم المعنى وتقوم دلالتها ويكتمل معنى الجملة.

ولعل مما أشار إليه ابن جني ولو ضمنا هو دور العلامة الإعرابية في تحديد معنى وموقع الكلمة شأنه في ذلك شأن سيبويه، ويتضح هذا من خلال نصب كلمة "القرطاس" على أنها مفعول به للفعل المحذوف الذي تقديره "أصاب". ويمكن هنا أن نضرب مثلا آخر نيين من خلاله تحكم السياق في تحديد معنى ووظيفة الكلمة في جملة معينة، فإذا قلنا: ما أجود الشعر العربي، كان الجواب مثلا: الجاهلي، لأن السياق هنا استفهامي ويتطلب جوابا. أما إذا قلنا ما أجود الشعر العربي لم نحتج جوابا لأن الجملة تدل على مجرد التعجب، بالتالي "ما" في السياق الأول استفهامية وفي السياق الثاني تعجبية، وكلمة أجود جاءت مرفوعة ثم منصوبة وفي كل حالة دلت على معنى مختلف.

فلو طلب منا تحديد معنى كلمة "ما" معزولة عن سياقاتها التي يمكن أن ترد فيها لتعذر علينا الأمر، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني ودرسه في نظريته

¹ ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط 3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1416هـ، ج 1، ص 285.

المعروفة بنظرية النظم التي تركز على توحي معاني النحو في التراكيب، يقول: «اعلم أن ها هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد وهذا علم شريف وأصل عظيم»¹.

من خلال هذا القول وإضافة إلى إشارته إلى الجانب التركيبي النحوي نجد عبد القاهر الجرجاني يشير أيضاً إلى الجانب المعجمي فكل لفظة تدل على معاني معجمية متعددة يفصل السياق في منحها المعنى المقصود والمراد؛ ويدخل هذا في باب المشترك اللفظي. ويؤكد هذا بقوله: « فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»².

ففي هذا القول يبين الجرجاني دور الاستعمال في إعطاء الألفاظ معانيها وقيمها في التراكيب، كما يشير إلى عامل مهم وهو الملاءمة، وهنا يمكن أن نجمل القول في مبدأ الاستعمال المناسب للكلمات في الجمل، مع مراعاة الصحة النحوية والمقاصد الكلامية بين المتخاطبين.

وما يؤيد دور السياق في تحديد مدلولات ومعاني الكلمات والألفاظ، هو ما ذكره ابن رشيق القيرواني عن مواقف الكلام وأطراف الحدث الكلامي، واختلاف المضمون باختلاف المخاطب أو المتلقي إذ يقول: «وشعره للأمير والقائد غير

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 415.

² المصدر نفسه، ص 364.

شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع»¹.

واضح أن هذا القول يعود بنا إلى فكرة الانتقاء وتخير الألفاظ، فما يليق بشخص ما في مقام ما لا يليق بالآخر في مقام آخر كذلك، وهذا ما بينه ذكره للأمثلة كالأمير والقائد والوزير والكاتب... فكل سياق وكل موقف له ما يناسبه من كلمات تنتظم لتؤدي رسالة المتكلم إلى السامع بالمعنى المقصود والمستهدف والذي تسهم الظروف والأحوال في تشكيله.

ونجد في باب حروف المعاني مثلاً مجالاً واسعاً للحديث عن تدخل السياق في تحديد معانيها، فالحرف يحمل معاني متعددة وكثيرة لكن يستحيل أن يؤديها في آن واحد، وإنما كل معنى يفرضه السياق الذي استخدم فيه ذلك الحرف بحيث يكون مناسباً له، ولأن الحرف يملك معنى في غيره لا في ذاته وجب انتظامه في التركيب إلى جانب ألفاظ أخرى، وبهذا لا يكون للحروف معاني إلا مع غيرها من الكلمات «فهي منفصلة بأنفسها مما بعدها وقبلها إلا أن الكلام بها منفردة محال»².

لذا فهي تسمى حروف المعاني؛ فالجملة التي تدخل عليها تكتسب معاني هذه الحروف «ألا ترى أنك إذا قلت: "كأن" يقتضي مشبهاً ومشبهاً به، كقولك: كأن زيدا الأسد، وكذلك إذا قلت "لو" و"لولا" وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جواباً للأولى»³.

فالجملة الاسمية (زيد الأسد) تنتقل من معنى الإخبار إلى معنى التشبيه بمجرد دخول الحرف المشبه بالفعل عليها "كأن". ومن الأمثلة كذلك على تعدد معاني

¹ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، 1383هـ، ج1، ص 199، 200.

² الميرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، ط 3، القاهرة، 1994، ج 1، ص 177.

³ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ش من المدخل.

الحرف الواحد نجد "قد" الذي يستخدمه المتكلم مع فعل ماضٍ للتحقيق ومع فعل مضارع للشك.¹

وكذلك الحرف "لا" الذي يستخدم للنفي والنهي والدعاء، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّنا لا تَوَاخِذنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾.² الحرف "لا" يفيد النهي لكن السياق الذي ورد فيه يمنع وروده بهذا المعنى لأن الكلام صادر من الأدنى إلى الأعلى منزلة فأدى معنى الدعاء.

وفي المقابل يؤدى المعنى الواحد بحرفين أو أكثر يختار المتكلم منها ما يراه مناسباً للسياق الذي أوردها فيه، نظراً إلى أنها حروف تشترك في أداء معنى واحد.³

ومنه فإن واقع اللغة واستعمالاتها يثبت أن الأفعال والأسماء تختلف معانيها باختلاف السياقات التي ترد فيها، والأمر نفسه نجده فيما يتعلق بالحروف والأدوات؛ إذ تكون «الواحدة منها لعدد من المعاني مثل "ما" تكون وصولاً ونافية وكافة ومصدرية ظرفية واستفهامية وتعجبية وشرطية، ومثل "إن" تكون شرطية ونافية وزائدة ومخففة من الثقيلة المؤكدة».⁴

والأمثلة كثيرة في هذا الشأن خاصة إذا اتجهنا إلى حروف العطف والجر، فالواو مثلاً نجد لها عدة معانٍ والفاء كذلك والأمر نفسه بالنسبة إلى من والباء... إلخ.

إن هذا التنوع الكبير والاتساع في استعمال كلمات اللغة العربية سواء أكانت أفعالاً أم أسماءً أم حروفاً، يُثبت ثراء هذه اللغة ويؤكد سعتها وقابلية تفرعها

¹ فخر الدين قباوة، التحليل النحوي أصوله وأدلته، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، مصر، 2002، ص 266.

² سورة: البقرة، الآية: 286.

³ محمود أحمد الصغير، الأدوات النحوية في كتب التفسير، ط 1، دار الفكر، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، 2001، ص 37.

⁴ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 164.

من خلال أداء العنصر الواحد لعدة مدلولات يتحكم في تحديدها عامل السياق الذي يكتسي أهمية بالغة في منح المفردة معناها المقصود والمراد.

ويعد هذه الدراسة التي سلطت الضوء على السياق ودوره في تحديد معاني الألفاظ، نخرج بمجموعة من النتائج أهمها:

- وردت كلمة سياق في مختلف المعاجم العربية بمعانيها المتعددة غير أنها تتفق في دلالتها على معنى عام معين وهو: التابع.
- المفهوم الاصطلاحي للسياق لا يخرج عن كونه استعمال الكلمة بما يناسب وجودها في تركيب معين ومراعاة الظروف المحيطة بها.
- لا يخلو الدرس اللغوي في تراثنا العربي من التطرق إلى السياق وبيان أهميته في تحديد معاني الكلمات.
- هناك علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة "سياق" فإذا كانت تعني في اللغة بصفة عامة التابع، ففي الاصطلاح وواقع الاستعمال نجد أن هذا الاستعمال، تابع لما يحيط بالحدث الكلامي من ملاسبات وظروف خارجية أو داخلية نفسية تتعلق بقصد المتكلم وغرضه من الكلام.
- هذه التبعية يدعمها ويرتبط بها عنصر آخر هو من الأهمية بمكان لتؤدي الكلمة معناها في سياقها المناسب وهو عنصر الاختيار أو انتقاء المفردات المناسبة للسياقات التي ترد فيها، والتي تضم طرفي الكلام: المتكلم والمتلقي (المخاطب والمخاطب) وهو ما عبر عنه علماء البلاغة بمقتضى الحال.
- أسهم العلماء العرب القدماء ببحوثهم الجادة ونتائجهم القوية فيما يتعلق بالسياق، مع إعطائهم أمثلة حية تدعم آراءهم ومواقفهم.
- كانت لعبد القاهر الجرجاني نتائج رائدة في هذا المجال خاصة من خلال نظرية النظم، كما استثمر سيبويه الدرس النحوي والعلامات الإعرابية في بيان أهمية ودور السياق في ضبط المعاني والدلالات.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم

المعاجم:

- 1- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط 1، دار الفكر، المجلد: 3، 1979. مادة (س و ق).
- 2- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005.

الكتب:

- 1- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط 3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1416هـ.
- 2- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، 1383هـ.
- 3- المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ط 3، القاهرة، 1994.
- 4- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
- 5- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ط 2، دار القصبية للنشر والتوزيع، حيدرة، الجزائر، 2006.
- 6- سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- 7- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 8- فخر الدين قباوة، التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، مصر، 2002.
- 9- محمود أحمد الصغير، الأدوات الحوية في كتب التفسير، ط 1، دار الفكر، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، 2001.

- 10- محمود محمد عيسى، السياق الأدبي، دراسة نقدية تطبيقية، مصر، 2004.
- 11- هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ط 1، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، 2007.

من أسرار التنكير والتعريف في القرآن الكريم جزء الأحقاف أنموذجاً

عنتر مخناش طالب دكتوراه جامعة باتنة1

المخلص:

يحاول هذا المقال تسليط الضوء على جانب مهم من جوانب الكلمة القرآنية؛ ألا وهو جانب التنكير والتعريف، محاولاً بذلك الكشف عن بعض أسرار التعبير بالنكرة والمعرفة ودورهما في تجلية المعنى، وهذا من خلال سور جزء الأحقاف (الأحقاف - مجد - الفتح - الحجرات - ق - الذاريات)، وقد صدر عنوان المقال بـ "من" التبعية لأنّ المقام لا يتسع لتتبع جميع النكرات والمعارف الواردة في الجزء.

Resume:

Cette article essaie de mettre en lumière sur un aspect très important parmi les aspects de la parole coranique..qui est l'aspect d'annonciation et de définition. tentant ainsi de divulguer des secrets d'expression avec la Nudité et la connaissance et leur rôle à la révélation du sens à travers les sourates : (al ahkaf..mouhamed...el fath...el hudjurat... kaf... dhariyatt.)

مقدمة:

القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، هدى الله به القلوب، وأنزله في أوجز لفظ، وأعذب أسلوب فأعيت بلاغته البلغاء، وأسكتت فصاحته الفصحاء، وأبهرت حكمته الحكماء، وأذهلت روعته الخطباء، فهو الحجّة البالغة، والدلالة الدامغة،

والنعممة الباقية، والعصمة الواقية، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل فيما أحكم وتشابهه من الأمور.

والقرآن الكريم ورد مورود تتناصر إليه العزائم على كَرّ الحقب، وتترافد إليه الهمم على مرّ السنين بغية اكتناه أسرار بيانه، واستجلاء أسباب إعجازه، فهو الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ. وهو كتاب العربيّة الأول، صلته بها وثيقة؛ إذ هو معيار فصاحتها، ومصدر قوتها وبقائها، وفيه انصهرت لهجاتها، وتوحدت في لسان مبين. ومنه استمدّت معظم علوم العربيّة أصولها، ومن أجله وضعت قوانينها.

والقرآن الكريم ينهج منهاجا فريدا في انتقاء الكلمة القرآنية مراعيًا في ذلك جميع أبعادها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. وتوظيف الكلمة منكرة أو معرفة إنما يخضع لمحددات السياق، وفنيات التوظيف الجمالي، وللوقوف على ذلك يحاول هذا المقال الكشف عن بعض أسرار البيان القرآني من خلال تسليط الضوء على ظاهرة التكرير والتعريف.

وقد بدأ المقال بالتكثير لأنه أصل والمعرفة فرع عنه، كما اقتصر على تناول جزء واحد من القرآن الكريم ألا وهو جزء الاحقاف بسوره الستة (الأحقاف - محمد - الفتح - الحجرات - ق - الذاريات) لأنّ المقام لا يتسع لتناول جميع الأجزاء.

أولاً: التكررات:

النكرة: ما يقبل "أل" وتؤثر فيه التعريف، أو يقع موقع ما يقبل "أل"¹. وهي "كلّ أمر شائع لا يُخصّ به واحد بعينه، أو كلّ اسم عمّ اثنين فصاعداً من جنسه دون تعيين لواحد بعلامة من علامات التّعريف"².

¹ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: بهاء الدين عبدالله بن عقيل، المكتبة العصرية، بيروت، ط2006، مج1 ص85

² - اللغة العربية الميسرة: محمود عكاشة، دار النشر للجامعات - القاهرة - دط، 2007، ص134.

وتعتبر النكرة أصلاً في كلِّ الأسماء على حدِّ قول سيبويه: "واعلم أنَّ النكرة أخف عليهم من المعرفة، وهي أشدُّ تمكناً، لأنَّ النكرة أول، ثم يدخل عليها ما تعرف به، فمن ثمَّ أكثر الكلام ينصرف في النكرة"¹.

والتعبير بالنكرة شائع في سور جزء الأحقاف لأنَّه يتناسب والمسائل العامة التي عرض لها القرآن في هذا الجزء، كذكر دلائل قدرة الله، ونعمه على خلقه، ووصف يوم القيامة. إلا أنَّ النكرة خرجت في بعض المواضع من معنى الشيوخ إلى معانٍ أخرى اكتسبتها من السياق، نذكر منها:

1- التعظيم:

- قال تعالى: **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرُوا فَمِنْ لَّدُنَّ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (الأحقاف - الآية 10)

وتتوين (شاهد) للتعظيم، وكذا وصفه بالجار والمجرور، أي شهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل². والشاهد في الآية هو عبدالله بن سلام، وقد روي في قصة إسلامه أنه "أتى رسول الله ﷺ - مَقْدَمَه إلى المدينة، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبيي: ما أول أشرطة الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟

فقال: "أخبرني بهنَّ جبريل أنفاً". قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: "أما أول أشرطة الساعة: فنار تخرج من المشرق، فتحشُر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الشبه: فإذا سبق ماء الرجل نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها". قال: أشهد أنك رسول الله.

وقال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بهت؛ وإنَّهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني، فأرسل إليهم، فسلهم عني.

¹ - الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجبل،

بيروت، ط1، ج1، ص6، ص7.

² - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمد بن عبد الله شهاب الدين الألوسي،

دار الفكر، بيروت مج14، ص19

فأرسل إليهم، فقال: "أي رجل ابن سلام فيكم ؟ قالوا: حبرنا، وابن حبرنا، وعالمنا، وابن عالمنا. قال: "أرايتم إن أسلم، تسلمون؟". قالوا: أعاده الله من ذلك. قال: فخرج عبدالله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. فقال: يا رسول الله، ألم أخبرك أنّهم قوم بُهت¹.

- قال تعالى: " وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ" (ق - الآية 4) فتتكبير "كتاب" للتعظيم، وهو "تعظيم النعم، أي عندنا كتاب كل شيء"².

- قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (ق- آية 37)

تتكبير (قلب) للتعظيم والكمال، والمعنى "المن كان له قلب ذكيّ واع يستخرج بذكائه، أو لمن ألقى السمع إلى المنذر فيتذكر"³.

- قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الذاريات- آية 15)

تتكبير (جَنّاتٍ) للتعظيم، إذ هي جنّات كثيرة مختلفة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

- قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (محمد- آية 12)

- قال تعالى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... (الفتح - آية 5)

تتكبير (جَنّاتٍ) للتعظيم كما تقدّم.

2- التقليل:

¹ - سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، اعتنى به: محمد بن عياد بن عبدالحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2003م، مج3، ص205.

² - التحرير والتتوير: محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (دط)، 1997، مج10، ج26، ص5.

³ - المرجع نفسه، ص324.

قال تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ (الاحقاف - آية 35)

تتكير الساعة للتقليل وفي هذا يقول ابن عاشور: "وصف الساعة وتخصيصها بهذا الوصف لأنّ ساعة النهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول إذ لا يجد الساهر شيئاً يشغله، فالتتكير للتقليل كما في حديث الجمعة قوله -ﷺ-: "وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء، وأشار بيده يقللها". والساعة جزء من الزّمن"¹.

3- التّبعض:

- قال تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد - آية 24) وفي تفسير الآية يقول الرّمخشري: "فإن قلت: لم نُكِّرت القلوب وأضيفت الأقفال لها؟ قلت: أمّا التتكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك، أو يراد على بعض القلوب، وهي قلوب المنافقين. وأمّا إضافة الأقفال؛ فلأنّه يراد الأقفال المختصّة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تتفتّح. وقرئ إقفالها، على المصدر"².

ويقول ابن عاشور: "وتتكير (قُلوِب) للتّنويع أو التّبعض، أي على أنواع من القلوب إقفالها. والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال... وإضافة (أقفال) إلى ضمير (قلوب) نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدلّ على أنّها قاسية"³.

4- الاستغراق والتعميم:

- قال تعالى: ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَارَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الاحقاف - آية 4)

¹ - المرجع نفسه، ص 68.

² - الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل: محمود بن عمر الرّمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1987، مج4، ص326.

³ - التحرير والتنوير، ص 114.

"والمراد بـ(بِكِتَابٍ) أي كتاب من الكتب المقروءة، وهذا قاطع لهم فإنهم لا يستطيعون ادعاء أنّ لأصنامهم في الكتب السابقة ذكرا غير الإبطال والتحذير من عبادتهم، فلا يوجد في الكتب إلاّ أحد أمرين: إمّا إبطال عبادة الأصنام كما في الكتب السماوية، وإمّا عدم ذكرها البتة، ويدلّ على أنّ المراد ذلك قوله بعده (أَوْ أَتَارَةَ مِّنْ عِلْمٍ)¹.

- قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " (الحجرات - آية 6)
يرى الزمخشري أنّ تنكير الفاسق والنّبأ: "شيع في الفساق والأنبياء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأيّ نبأ..."².

وهو ما ذهب إليه أيضا ابن عاشور في قوله: "وتنكير (فاسق) و(نبأ) في سياق الشرط يفيد العموم في الفساق بأيّ فسق اتّصفوا، وفي الأنبياء كيف كانت، كأنه قيل: أي فاسق جاءكم بأيّ نبأ فتوقفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشافه"³.
ثانيا: المعارف.

المعرفة ما وضع لشيء معيّن⁴، والمعارف هي: الضمير والعلم، واسم الإشارة والمعرف بأل، والاسم الموصول، والمضاف إلى معرفة، والمعرف بالنداء⁵.

1- الضمير:

يعين الضمير في اللّغة على الإيجاز والرّبط المحكم بين أجزاء الجملة، وله قيمة مورفيمية في تغيير المعاني النّحوية، يضاف إلى هذا خصائص أخرى تكسبه قيمة تعبيرية فنية بليغة، ومن هذه الخصائص ما يلي:

¹ - المرجع نفسه: ج26، ص10، ص11.

² - الكشّاف، ص360.

³ - التحرير والتتوير، ص231.

⁴ - شرح الكافية في النحو: رضيّ الدين محمد بن الحسن الاسترلابادي، تحقيق: محمد نور الحق، دار

الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1975م. مج2، ص163.

⁵ - ينظر الكتاب: ج1، ص219، ص220، ص269، ص311.

1-1 - حذف المعاد:

لابد للضمير المتصل في اللغة العربية من معاد يعود إليه "وذلك لأنك لا تضمير الاسم إلا بعد تقدم ذكره، ومعرفة المخاطب على من يعود ومن يعني، أو تفسير يقوم مقام الذكر، ولذلك استغنى عن الوصف"¹.

والقرآن الكريم كثيرا ما يعمد إلى حذف معاد الضمير لدلالة المقام عليه، ومن ذلك:

- قوله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ" (الأحقاف - آية 10)
 - قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ" (الأحقاف - آية 11)

- وقوله تعالى: "وَأِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُ قَدِيمٌ" (الأحقاف - آية 11)
 الضمير المستتر في (إن كان) و(كان) و(به) عائد إلى القرآن المعلوم والمفهوم من السياق.

- قوله تعالى: "بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ" (ق - الآية 2)

"ضمير (عَجِبُوا) عائد إلى غير مذكور، فمعاده معلوم من السياق أغنى افتتاح السورة بحرف التهجي الذي قصد منه تعجيزهم عن الاتيان بمثل القرآن، لأن عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنه مركب من حروف لغتهم يدلهم على أنه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله ﷺ - على لسان الملك، فإن المتحدّين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون وهم أيضا يعلمون أنهم المعنيون بالتحديّ بالإعجاز"². وكذلك ضمير (مَنْهُمْ) عائد إلى ما عاد إليه ضمير (عَجِبُوا)، "والمراد أنه من نوعهم أي من بني الإنسان"³.

¹ - شرح المفصل: موفق الدين أبو البقاء يعيـش بن علي يعيـش ت ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، (د ت) ، ج 3 ، ص 56 .

² - التحرير والتتوير ، ص 278 .

³ - المرجع نفسه ، ص 278 .

- قوله تعالى: "قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" (ق - آية 28-29)

"هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب الله تعالى للفريقين الذين اتبعوا والذين اتَّبَعُوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدلّ عليه قوله: " فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ " (ق - آية 22)¹.

- قوله تعالى: " فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ " (ق - آية 39)

ضمير (يقولون) عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواضع والنذر.

- قوله تعالى: " إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ " (الذاريات - آية 5)

الخطاب في (توعدون) للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم وكما يقتضيه تعقيبه بقوله: " إِنُّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (الذاريات - آية 8)

- الالتفات:

وهو "الانتقال من التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر، وذلك تطريزا للكلام وتفتنا في الأسلوب. قال البيضاوي رحمه الله: والكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظا له، كما تقرّر في علم المعاني.²"
ومن أمثله نذكر:

- قوله تعالى: " يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ " (ق - آية 30)

"...ولذلك استوت قراءة (يقول) بالياء، وهي لنافع، وأبي بكر عن عاصم جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله: " قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ "

(ق - آية 30) وقراءة الباقيين بالنون على الالتفات، بل هو التفات تابع لتبديل

طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر³.

- قوله تعالى: " ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا

مَزِيدٌ " (ق - آية 34-35)

¹ - المرجع نفسه، ص314.

² - الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، ص943.

³ - التحرير والتنوير، ص317.

في قوله: (لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا) إلتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، فبعد أن يقال للأتقياء الأبرار (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۗ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ) يعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، فبد أن يقال لهم (لكم ما تشاءون) يقال (لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا) .

- قوله تعالى: " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ " (محمد - آية 22)

الخطاب موجه للذين في قلوبهم مرض على الالتفات.

- قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۗ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفُرْ لِيَكْفُرًا عَظِيمًا " (الفتح - آية 10)

" قرأ نافع و ابن كثير ... (فسنؤتيه) بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم . وقرأه الباقون بياء الغيبة عائدا ضميره على اسم الجلالة"¹.

- قوله تعالى: " وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا " (الفتح - آية 17)

" قرأ نافع وابن عامر (ندخله) و(نعذبه) بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم . وقرأ الجمهور (يدخله) بالياء ... جريا على أسلوب الغيبة يعود الضمير إلى اسم الجلالة"².

- قوله تعالى: " لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " (الفتح-آية 25)

في قوله تعالى: (لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) إلتفات إذ عدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم

- الإظهار في موضع الإضمار:

¹ - المرجع نفسه، ص 160 .

² - المرجع نفسه، ص 173 .

ويحدث ذلك حين يراد الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً، فيعاد الاسم مرّة ثانية دون ضميره لإعادة تصوّره، والتأكيد عليه، وإقراره في النفس، سواء أطل الكلام أم قصر.

ومن أمثلة ما ورد من ذلك نذكر:

- قوله تعالى:

" وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ " (الأحقاف - آية 7) "وقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا) إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنه سبب قولهم ذلك. والحق هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات على إظهار لفظ الحقّ للتبنيه على أنها حقّ وأنّ رميها بالسحر بهتان عظيم".¹

والأمر ذاته في قوله تعالى: " وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ۗ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۗ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " (الأحقاف - آية 34)

إذ ذكر (الَّذِينَ كَفَرُوا) إظهار في مقام الإضمار.

- قوله تعالى: " بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ " (ق - آية 2)

"... وعبر عنهم بالاسم الظاهر في (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) دون فقالوا، لتوسيمهم بأنّ هذه المقالة من آثار الكفر وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين"².

- قوله تعالى: " فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ " (الذاريات - آية 23)

في إظهار اسمي السماء والأرض دون ذكر ضميرهما إدخال للمهابة في نفوس السامعين بعظمة الرّب سبحانه.³

¹ - التحرير والتنوير، ص13.

² - المرجع نفسه، ص279.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص355.

- قوله تعالى: "وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُم بِأَلْهَمِهِمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ" (محمد- آية 4، 5، 6)

"وذكر (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يضلَّ الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتوحيه بالصلة..¹.

- قوله تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا" (الفتح- آية 1، 2)

"وإنما أسند فعل (لِيُغْفِرَ) إلى اسم الجلالة العلم وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر قصدا للتوحيه بهذه المغفرة لأنَّ الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه. وذلك للاهتمام بالمسند و بمتعلقه لأنَّ هذا الخبر أنفا لم يكن للرسول - صلى الله عليه و سلم - علم به و لذلك لم يبرز الفاعل في (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ) لأنَّ إتمام الله عليه معلوم و هدايته معلومة و إنما أخبر بازديادهما " ².

- قوله تعالى: " وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا" (الفتح- آية 3)

"أظهر اسم الجلالة في قوله (وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ) ولم يكتف بالضمير اهتماما بهذا النصر وتشريعا له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر، والصراحة أدعى إلى السمع، والكلام مع الإظهار أعلق بالذهن " ³.

- قوله تعالى: " وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَانٌ وَرَبِّيَنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ؕ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " (الحجرات-آية 7) و ذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يُشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة

1-2- العلم:

¹ - المرجع نفسه: ص 83 .

² - التحرير والتوير، ص 148 .

³ - المرجع نفسه ، ص 149 .

ورد العلم في قوله تعالى: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۗ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ" (ق - آية 12، 12، 14)

المراد بفرعون في الآية قومه، لأنَّ المعطوف عليه قوم نوح، المعطوفات جماعات (كل)، فيجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم¹ وفي قوله تعالى: "مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ" (ق - آية 33) "وإيثار اسمه (الرَّحْمَنُ) في قوله (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) دون اسم الجلالة للإشارة إلى أن هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسمه الرحمان (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ)²."

- قوله تعالى: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ" (مُحَمَّد - آية 2) في قوله (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) " اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من بين ما يدب به الإيمان تعظيماً لشأنه وتعليماً، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به"³

1-3 - اسم الإشارة:

- قوله تعالى: " اِنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا " (الأحقاف - آية 4) "الإشارة في قوله (مِن قَبْلِ هَذَا) إلى القرآن لأنه حاضر في أذهان أصحاب المحاجة فإنه يقرأ عليهم معاودة"⁴.

- قوله تعالى "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (الأحقاف - آية 7)

¹ ينظر: الكشاف، ج 4، ص 382.

² - التحرير والتنوير، ص 320.

³ - الكشاف: ج 4، ص 314.

⁴ - التحرير والتنوير، ص 10.

- قوله تعالى: " وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا

عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ" (الأحقاف- آية 12)

الإشارة إلى القرآن لأنه حاضر بالذكر فهو كالحاضر بالذات.

- قوله تعالى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(الأحقاف- آية 13،14)

"واستحضارهم بطريق اسم الإشارة في قوله (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) للتبنيه على أنهم أحرىء بما يرد من الأخبار عنهم بما بعد الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة"¹.

- قوله تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا " (الأحقاف- آية 16)

جاء باسم الإشارة في هذه الآية أيضا للتبنيه على أنهم أحرىء بما يخبر عنهم.

- قوله تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ" (الأحقاف - آية 18)

"يجوز أن يكون اسم الإشارة مشيرا إلى الذي قال لوالديه هذه المقالة لما علمت أن المراد به فريق، فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق"².

- قوله تعالى: " فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۗ "

(الأحقاف - آية 24)

"وقولهم (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) يشير إلى أنهم كانوا في حاجة إلى المطر"³.

- قوله تعالى: " وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ

دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الأحقاف - آية 32)

"واسم الإشارة في (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) للتبنيه على أن من هذه حالهم جديرون

بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم لتسبب ما قبل الإشارة فيه كما في قوله (أُولَئِكَ

عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)"¹.

¹ - المرجع نفسه، مج10، ج26، ص27.

² - المرجع نفسه، ص39.

³ - المرجع نفسه، ص49.

- قوله تعالى: " ق ۞ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ " (ق - آية 2، 3)

"والإشارة بقولهم (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) على ما هو جار في مقام مقاتلتهم تلك من دعاء النبي ﷺ إياهم للإيمان بالرجع، أي البعث"².

- قوله تعالى: " كَذَلِكَ الْخُرُوجُ " (ق - آية 11)

اسم الإشارة (ذلك) أفاد تعظيم شأن المشار إليه.

- قوله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " (ق - آية 37)

"وقوله (فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) يجوز أن تكون الإشارة بذلك على إهلاك القرون الأشدّ بطشا ويجوز أن يكون جميع ما تقدّم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء"³.

- قوله تعالى: " يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۞ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ " (ق - آية 42)

اسم الإشارة في هذه الآية لتحويل أمر المشار إليه وهو (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۞) فأراد بذلك كمال عناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم. وكان مقتضى الظاهر أن يقال هو يوم الخروج⁴.

- قوله تعالى: " دُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ " (الذاريات - آية 14)

الإشارة في قوله (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) إلى الشيء الحاضر نصب أعينهم.

- قوله تعالى: " آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ " (الذاريات -

آية 16)

¹ - التحرير والتتوير ،ص62.

² - المرجع نفسه ،ص208.

³ - المرجع نفسه ،ص323.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص331.

"وفائدة الظرف في قوله (قَبْلَ ذَلِكَ) أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنات والعيون وما آتاهم ربهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه"¹.

- قوله تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ " (محمد-آية 3)

اسم الإشارة لتمييز المشار إليه.

- قوله تعالى: " ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ " (محمد - آية 4)

" ويفيد اسم الإشارة تقرير الحكم و رسوخه في النفوس"².

- قوله تعالى: " وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا " أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ " (محمد- آية 16)

يرى ابن عاشور أن الاتيان باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيرا بهم.

- قوله تعالى: " وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا " (الفتح - آية 5)

" الإشارة في قوله (وَكَانَ ذَلِكَ) إلى المذكور من إدخال الله إياهم الجنة و المراد بإدخالهم الجنة إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين وليس هو الإدخال الذي استحقوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخرى"³.

- قوله تعالى: " ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ " (الفتح - آية 29)

اسم الإشارة (ذَلِكَ) أشير به إلى المذكور من صفات الذين مع النبي - صلى الله عليه و سلم - لأن السابق في الذكر بمنزلة الحاضر فيشار إليه بهذا الاعتبار .

- قوله تعالى: " وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهْتُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ " أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " (الحجرات - آية 7)

¹ - المرجع نفسه ،ص348.

² - المرجع نفسه ،ص 82 .

³ - التحرير والتتوير، ص 152 .

والإشارة بـ(أُولَئِكَ) إلى ضمير المخاطبين في قوله (إِلَيْكُمْ) مرّتين وفي قوله (قُلُوبِكُمْ) أي الذين أحبوا الإيمان وتزينت قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي المستقيمون على الطريق الحق¹.

1-4- الاسم الموصول:

يستخدم القرآن الكريم الاسم الموصول في كثير من المواضع حين تكون صلته هي مناط الحكم وموضع الاهتمام، ومن هذه المواضع نذكر:

- قوله تعالى: "وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا " (الأحقاف- آية 17)

(وَالَّذِي) هنا اسم صادق على الفريق المتّصف بصلته، وهذا وصف لفئة من أبناء المشركين أسلم أبناؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضمّوا إلى الكفر بشنيع عقوق الوالدين...².

- قوله تعالى: "فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً" (الأحقاف- آية 28)

"والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبيه على الخطأ والغلط في عبادتهم الأصنام فلم تغن عنهم شيئاً"³.

- قوله تعالى: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَ أَعْمَالُهُمْ" (محمد- آية 1)

"وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمّنة كفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصددهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود"⁴.

- قوله تعالى: " فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخَنَّوهُمْ فَشْدُوا أَوْتَاقَ فِئَامًا مِّنَّا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد - آية 4)

¹ - المرجع نفسه، ص 237 .

² - المرجع نفسه، ص36، ص37.

³ - المرجع نفسه ، ص56.

⁴ - التحرير والتتوير، ص 73 .

فقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا) "عام في كل كافر، أي مشرك يشمل الرجال وهم المعروف حريهم، ويشمل من حارب معهم من النساء والصبيان والرهبان والأخبار"¹.

- قوله تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ" (مُحَمَّد - آية 16) جيء بالموصول وصلته لإفادة أن " هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمّموا على الكفر قد طبع الله على قلوبهم وأنهم متبوعون لأهوائهم، فأفادت أن هؤلاء المستمعين زمرة من ذلك الفريق"².

- قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ" (مُحَمَّد - آية 25)

يرى ابن عاشور أن "الإتيان بالموصول والصلة ليس إظهارا في مقام الإضمار لأن أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدّم"³.

- قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ" (مُحَمَّد - آية 34)

"واقترن خبر الموصول بالفاء إيحاء إلى أنه أشرف معنى الشرط فلا يراد به ذو صلة معين بل المراد كل من تحققت فيه ماهية الصلة وهي الكفر والموت على الكفر"⁴.

- قوله تعالى: "هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ" (الفتح - آية 25)

"والمقصود من الصلة هو جملة (وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وذكر (الَّذِينَ كَفَرُوا) إدماج للدعاء عليهم بوصف الكفر. ولهذا الإدماج نكتة أيضا، وهي أن وصف الذين كفروا بمنزلة الجنس صار الموصول في قوة المعرف بلام الجنس

¹ - المرجع نفسه ، ص 80.

² - المرجع نفسه ، ص 101.

³ - المرجع نفسه ، ص 115.

⁴ - المرجع السابق ، ص 129.

فتقييد جملة (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) قصر جنس الكفر على هذا الضمير لقصد المبالغة لكمالهم في الكفر بصدّهم المعتمرين عن المسجد الحرام وصد الهدي أن يبلغ محله¹.

1-5- المعرّف بأل:

"(أل) التي تفيد التعريف في العربية نوعان: عهدية وجنسية، والعهد في النوع الأول عهد ذكريّ أو ذهنيّ أو حضوريّ، والجنس في الثاني إمّا جنس شامل لكلّ الأفراد على الحقيقة بحيث يمكن أن يحلّ محله لفظ (كل)، وإمّا جنس شامل على سبيل المبالغة والادّعاء في صفة ظاهرة فيه، وإمّا جنس قصد به بيان الحقيقة أو الماهية².

ومن أمثلة استخدام القرآن للمعرّف بأل نذكر:

- قوله تعالى: " تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ " (الأحقاف - آية 2)

الكتاب هو المعهود وما تنزّل من القرآن إلى تلك الساعة.

- قوله تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۗ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (الأحقاف - آية 15)

"المراد بالإنسان الجنس، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب للقول في آخرها (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)³.

- قوله تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ " (الأحقاف - آية 18)

تعريف (الْقَوْلُ) تعريف العهد؛ إذ هو قول معهود عند المسلمين.

¹ - المرجع نفسه ، ص 187 .

² - النحو الوافي:عباس حسن، دار المعارف، ط3، 1974م، ج1،ص303 وما بعدها.

³ - التحرير والتنوير، ص24.

- قال تعالى: "قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ" (الأحقاف- آية 23)

فالتعريف في (العلم) للاستعراق العرفي، أي علم المغيبات، أو التعريف عوض عن المضاف إليه، أي وقت العذاب. وهذا الجواب يجري على جميع الاحتمالات في معنى قولهم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) لَأَنَّ جميعها يقتضي أنه عالم بوقته¹.

- قال تعالى: " فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ" (الأحقاف- آية 35)

"وتعريف(القوم) تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي كل القوم الفاسقين فيهم مشركي مكة الذين عناهم القرآن فكان لهذا التفرع معنى التذييل. وذلك أن يجعل تعريف العهد، أي القوم المتحدث عنهم في قوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ) الآية، فيكون إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى سبب إهلاكهم أنه الإشراك².

- قال تعالى: " أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؕ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ" (ق- آية 15)

تعرض الرازي³ لتعريف (الخلق الأول) وتكثير الخلق الثاني، وذكر أن ذلك يحمل دلالتين:

أ. عَرَفَ الاول لآئِهِ خَلَقَ عَرَفَهُ كَلَّ إِنْسَانٍ وَعَلِمَهُ لِنَفْسِهِ، وَنَكَرَ الثَّانِي لِآئِهِ خَلَقَ لَمْ يَعْرِفْ كَلَّ أَحَدٍ وَلَمْ يَعْلَمْ لِنَفْسِهِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهُ بَلْ كَانُوا مُنْكَرِينَ لَهُ.
ب- نَكَرَ الثَّانِي لِبَيَانِ إِنْكَارِهِمُ لِلْخَلْقِ الثَّانِي مِنْ كَلَّ وَجْهٍ، وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: أَيْكُونُ لَنَا خَلْقٌ؟ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ بِالْكَلِّيَّةِ.

¹ - المرجع نفسه، ص47.

² - المرجع نفسه ، ص69.

³ - ينظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن،

دار الفكر، بيروت، (دط)،

ج28، ص162.

وذكر ابن المنير¹ أن تعريف الأول للتعظيم ليجعله دليلاً على الخلق الجديد، وتكبير الثاني للتهوين، أو للتعظيم كأنه أمر أعظم من أن يرض الإنسان بكونه ملتبساً عليه.

- قال تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (ق-آية 16)

يرى ان عاشور أن " (الإنسان) يعم جميع الناس ولكن المقصود منهم أولاً المشركون لأنهم المسوق لهم هذا الخبر، وهو تعريض بالإندار².

- قال تعالى: " إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ " (ق-آية 17) "وتعريف (المتلقيان) تعريف العهد إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذكر فيها الحفظة، أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أن هذا الجنس مقسم اثنين اثنين... والتعريف في (اليمين) و(الشمال) تعريف العهد أو اللام عوض عن المضاف إليه أي عن يمين الإنسان وعن شماله"³.

- قال تعالى: " وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ " (ق-آية 36)

تعريف (البلاد) للجنس، أي في الأرض.

- قال تعالى: " وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ؕ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ " (ق-آية 41، 42)

" وتعريف (المنادي) تعريف الجنس... والتعريف في (المصير) إمّا تعريف الجنس، أي كل شيء صائر إلى ما قدرناه له وأكبر ذلك هو ناموس الفناء المكتوب على

¹ - ينظر: الانتصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال (ضمن حاشية الكشاف): ابن المنير

ناصر الدين بن محمد الاسكندري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص 386.

² - التحرير والتنوير، ص299.

³ - المرجع نفسه، ص301.

جميع الأحياء، وإما تعريف العهد، أي المصير المتحدّث عنه، وهو الموت لأنّ المصير بعد الموت إلى حكم الله¹.

- قوله تعالى: " فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْنْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۗ " (محمد - آية 4)
"وتعريف (الرِّقَابِ) و(الْوَتَاقِ) يجوز أن يكون للعهد الذهني، ويجوز أن يكون عوضاً عن المضاف إليه، أي فضرِب رِقَابَهُمْ وَشَدَّ وَتَاقَهُمْ"².

- قوله تعالى: " وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۗ " (محمد - آية 15)
"ومعنى (من كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أصناف من جميع أجناس الثمرات، فالتعريف في (الثمرات) للجنس، و(كل) مستعملة في حقيقتها وهو الإحاطة، أي جميع ما خلق الله من الثمرات مما علموه في الدنيا وما لم يعلموه مما خلقه الله في الجنة، و(من) تبعيضية"³.

- قوله تعالى: " فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ " (محمد - آية 21)
التعريف في (الأمر) تعريف العهد.

- قوله تعالى: " هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْ مَن يَبْخُلُ ۗ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۗ " (محمد - آية 38)

"والتعريف باللام في (الغنيّ) وفي (الفقراء) تعريف الجنس، وهو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبر عنه، ولما وقعا خبرين وهما معرفتان أفادا الحصر، أي قصر الصفة على الموصوف، أي قصر جنس الغنى على الله وقصر جنس الفقراء على المخاطبين بـ(أنتم) وهو قصر ادعائي فيهما مرتّب على دلالة (أل) على معنى كمال الجنس، فإنّ كمال الغنى لله لا محالة لعمومه ودوامه، وإن كان يثبت بعض

¹ - المرجع نفسه، ص 331.

² - التحرير والتنوير ، ص 80.

³ - المرجع نفسه ، ص 97.

جنس الغنى لغيره. وأما كمال الفقر للناس فبالنسبة إلى غنى الله تعالى وإن كانوا قد يغنون في بعض الأحوال لكن ذلك قليل وغير دائم"¹.

- قوله تعالى: " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُونًا أَن تَبِعْتُمْ " (الفتح - آية 15)

تعريف (المخلفون) تعريف العهد، أي المخلفون المذكورون.

- قوله تعالى: " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا " (الفتح - آية 18)

والتعريف في (الشجرة) تعريف العهد وهي: "الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي ﷺ - جالسا في ظلها وهي شجرة من شجر السمُر (يفتح السين المهملة وضم الميم) وهو شجر الطلح..."².

- قوله تعالى: " وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يجدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا " (الفتح - آية 22)

"و(ال) للعهد، أي أدبارهم، ولذلك يقول كثير من النحاة إن (ال) في مثله عوض عن المضاف إليه وهي تعويض معنوي"³.

- قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " (الحجرات - آية 4)

التعريف في (الحجرات) تعريف العهد، وهي حجرات النبي ﷺ - فلذلك لم تعرف بالإضافة.

- قوله تعالى: " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ " (الحجرات - آية 7)

¹ - المرجع نفسه ، ص 138.

² - المرجع السابق ، ص 174.

³ - التحرير والتتوير ، ص 183.

"والتعريف في الأمر تعريف الجنس شامل لجميع الأمور ولذلك جيء معه بلفظ (كثير من) أي أحداث كثيرة مما لكم رغبة في تحصيل شيء منها فيه مخالفة لما شرعه"¹.

- قوله تعالى: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۗ قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ " (الحجرات - آية 14)

وتعريف (الأعراب) تعريف العهد؛ إذ هم أعراب معيّنون وهم بنو أسد كما يرى كثير من المفسرين.

1-6- المُعرّف بالإضافة:

من أمثله نذكر:

- قوله تعالى: " وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ " (الأحقاف - آية 12)
 "عبر عن التوراة بـ (كِتَابُ مُوسَى) بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمّد -ﷺ- تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهة في جميع الأحوال"².

- قوله تعالى: " أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (الأحقاف- آية 14)

" (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أدلّ على الاختصاص بالجنة من أن يقال: أولئك في الجنة وأولئك لهم الجنة لما في(أصحاب) من معنى الاختصاص وما في الإضافة أيضا"³.

¹ - المرجع نفسه ، ص235.

² - المرجع نفسه ، ص24.

³ - المرجع السابق ، ص28.

- قوله تعالى: " وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الأحقاف- آية 21)

أخو عاد هو هود "وعبر عنه هنا بوصفه دون اسم العلم لأن المراد بالذكر هنا ذكر التمثيل والموعظة لقريش بأنهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول من أمتهم...."¹.

- قوله تعالى: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد- آية 1)

أضيف السبيل إلى الله " لأته الدين الذي ارتضاه الله لعباده (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) واستعير اسم السبيل للدين لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته."².

- قوله تعالى: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (محمد - آية 24)

إضافة (أقفال) إلى ضمير (قلوب) نظم بديع- كما يرى ابن عاشور- أشير به إلى اختصاص الأفعال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدل على أنها قاسية.³

- قوله تعالى: " إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " (الفتح- آية 26)

إضافة الحمية إلى الجاهلية " لقصد تحقيرها وتشنيعها فإنها من خلق أهل الجاهلية فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) وقوله (أَفْكَرُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ) ويعكس ذلك إضافة السكينة إلى

¹ - التحرير والتوير ، ص45.

² - المرجع نفسه ، ص73.

³ - ينظر: المرجع نفسه ، ص114.

ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأنّ السكينة من الأخلاق الفاضلة فهي موهبة إلهية¹.

"وإضافة (كلمة) إلى (التقوى) على هذا التفسير إضافة حقيقيّة، ومعنى إضافتها: أنّ كلمة الشهادة أصل التقوى فإنّ أساس التقوى اجتناب عبادة الأصنام، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى كلها"².

الخاتمة:

مما تقدّم يمكن الوقوف على جملة النتائج التالية:

- شيوع التعبير بالذكورة في سور الجزء، وخاصّة في السور المكية وذلك لما حوته من مسائل عامة كذكر دلائل قدرة الله ونعمه على خلقه، ووصف يوم القيامة وما يصاحبه من أحداث جسام. وما يحدث فيه من ثواب وعقاب إلى غير ذلك من الأمور التي يناسبها التعميم أكثر ممّا يناسبها التخصيص.

- لم يقتصر معنى الذكورة في سور الجزء على إفادة الشيوع فحسب، وإنّما أفاد معانٍ أخرى اكتسبها من المقام أو السياق الوارد فيه، ومن هذه المعاني نذكر: التعظيم، التقليل، الاستغراق، التعميم، التبويض.

- ورود جميع أصناف المعارف في سور الجزء.

- من أكثر المعارف وروداً - في سور الجزء - الضمير، ومن أقلّها ورود العلم.

- لم تقتصر وظيفة الضمير على الربط بين أجزاء الجملة فحسب وإنّما أضيفت له خصائص أخرى منها: حذف المعاد لدلالة المقام عليه، والاتّفات تطريزاً للكلام وتفنّناً في الأسلوب وتطرية لنشاط السامع، إضافة إلى الإظهار في موضع الإضمار.

- اسم الإشارة في (الأحقاف - ق - الذاريات) استخدم للتنبيه وتعظيم شأن المشار إليه، والتهويل. وفي المقابل استخدم في (محمد - الفتح - الحجرات) للتنويه بالمشار إليه، والتشهير، إضافة إلى تقرير الحكم ورسوخه في النفس.

¹ - المرجع نفسه ، ص194.

² - المرجع نفسه ، ص196.

- الاسم الموصول في (الأحقاف- ق- الذاريات) يرد حين تكون صلته هي مناط الحكم وموضع الاهتمام، إضافة إلى التنبية، وأما في (محمد- الفتح- الحجرات) فيستخدم للتشويق، والتعميم وإرادة الجنس.

- (أل) التعريف في مواضع تأتي للعهد وفي مواضع أخرى للجنس.

- المعرف بالإضافة في (الأحقاف- ق- الذاريات) استخدم للاختصاص، والتعميم، والتمثيل، والتهويل، والتعظيم. وفي المقابل استخدامه في (محمد- الفتح- الحجرات) كان للاختصاص، والتعميم ، والتحقير والتشنيع، والتشريف.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- الانتصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال (ضمن حاشية الكشاف): ابن المنير ناصر الدين بن محمد الاسكندري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2- التحرير والتتوير: محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (دط)، 1997.

3- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: الرازي فخر الدين، دار الفكر، بيروت، (دط).

4- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمد شهاب الدين الألوسي، دار الفكر، بيروت.

5- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، اعتنى به: محمد بن عياد بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2003م.

6- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: بهاء الدين عبد الله بن عقيل، المكتبة العصرية، بيروت، ط.2006، 2.

7- شرح الكافية في النحو: رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي .، تحقيق: محمد نور الحق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1975م.

8- شرح المفصل: موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي يعيش ت ،عالم الكتب ، بيروت، ط1، (د ت).

9- الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1.

10- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل: محمود بن

عمر الرّمخشريّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1987.

11- اللغة العربية الميسرة: محمود عكاشة، دار النشر للجامعات -القاهرة- دط ،

.2007

12- النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف، ط3، 1974م.

Consignes éditoriales

Pour les articles en langues étrangères (français, anglais), les auteurs sont appelés à se conformer aux consignes éditoriales qui suivent :

- Le texte doit être envoyé en fichier Word.
- Police de caractères : Time New Roman - Corps 12 - interligne 1,5.
- Nombre de pages : entre 11 et 16 pages (y compris les références).
- Titre de l'article : écrit en Times New Roman – 14 en style gras, centré, interligne 1,15 s'il est sur deux lignes. Les titres ne doivent être suivis d'aucun signe de ponctuation. (ni point, ni deux points).
- Les coordonnées de l'auteur (Prénom, NOM, université d'appartenance) doivent être rédigées et placées en haut et à gauche de la page. écrit en Times New Roman, taille de police 11.
- Sous-titres : Times New Roman – 12, en gras
- L'article doit être précédé d'un résumé condensé en français et en arabe, de 6-8 lignes maximum suivi de 4 ou 5 mots-clés chacun en petits caractères, sans majuscules initiales. Ce résumé ne doit, en aucun cas, être reproduit dans l'article.
- L'ensemble (titre, résumé, mots-clés) en français sera suivi de sa traduction en arabe.
- Les notes en bas de page sont utilisées pour des informations ou des commentaires et sont rédigées en Times New Roman, police 10, interligne simple. Dans le corps du texte, les renvois à la bibliographie se présenteront dans le corps de l'article : en fin de citation et entre parenthèses. Dans ce dernier cas, il faut indiquer l'auteur (suivi d'une virgule), la date (suivie de deux points), et le numéro de la page (Nom, date : p.). Si le nom de l'auteur est suivi d'une citation, la date et le numéro de la page sont situés à la fin de la citation, entre parenthèses.
- Pour les citations :
 - Toutes les citations seront saisies en italique.
 - Les citations courtes sont introduites directement dans le corps du texte et mises entre guillemets, sans changement de la taille d'écriture.

- Les citations de plus de trois lignes doivent être saisies en retrait par rapport au texte principal, introduites sans guillemets, interligne simple, taille de police 11.
- Références bibliographiques en fin d'article :
- La bibliographie est présentée par ordre alphabétique des noms d'auteurs. Dans le cas d'une œuvre anonyme, il faut tenir compte du titre de la publication. (le cas d'un manuel scolaire à titre d'exemple).
- Pour les références électroniques (l'adresse électronique n'est jamais placée dans le corps du texte mais toujours dans la bibliographie), les auteurs veilleront à adopter les normes indiquées pour les autres références pour citer les sources en ligne. Dans la bibliographie la mention du lien hypertexte (introduit par l'expression : disponible sur le site :...) et de l'indication, à la fin de la référence, de la date de consultation la plus récente (consulté le ...).

Seuls les articles conformes à la politique éditoriale et aux consignes rédactionnelles, seront publiés (après, bien sûr, évaluation anonyme du contenu par deux experts).

L'intégration des textes littéraires dans l'apprentissage de l'arabe LVE : une motivation pour la lecture ?

Hilda MOKH

Université de Rennes 2, France

الملخص:

على الرغم من أن القراءة تشكل مصدراً أساسياً لاكتساب المعارف وللمتعة في آن واحد، فإنها تعاني حالياً من تراجع لاسيما في العالم العربي. ومن البديهي أن يستحضر مفهوم القراءة مفهومي الأدب واللغة، لذلك يتمثل هدف هذا المقال في تقييم ما إذا كان استخدام النصوص الأدبية كمواد تعليمية في تدريس اللغات الأجنبية الحية وخاصة اللغة العربية يشكل حافزاً للمتعلمين يدفعهم للقراءة.

سنبحث في هذه المقال أهمية إدماج النصوص الأدبية في صفوف تدريس اللغات الأجنبية ووظائف قراءتها. كما سنقوم بالإشارة إلى أربع من بين الميزات التي تتمتع بها النصوص الأدبية، وهي: التوعية بالنواحي الثقافية والاستقلالية، والأصالة، والبعد الجمالي. حيث يمنح كل منها النص الأدبي بعداً قد يشجع المتعلمين على ممارسة القراءة، ثم سنعلق على هذه الميزات من خلال نص نتخذه كمثال، من الممكن استخدامه في درس من دروس اللغة العربية كلغة أجنبية وهو نص طوق الحمامة للماغوط.

ونعتقد أن إحداث تغيير في المنهج المعتمد في التعامل مع النصوص الأدبية وفي دور المعلم، قد يعزز استخدام النصوص الأدبية كمادة تعليمية في دروس اللغات الحية ويجعلها مصدراً غنياً للتحفيز على القراءة.

الكلمات المفتاحية: القراءة، النصوص الأدبية، تدريس اللغات الأجنبية، اللغة العربية كلغة أجنبية، الحافز للقراءة.

Résumé

Bien qu'à la fois source fondamentale d'instruction et de plaisir, la lecture est actuellement en déclin, notamment dans le monde arabe. La notion de lecture renvoie de manière évidente à celle de littérature et de langue. Le but du présent travail est d'évaluer si l'utilisation de textes littéraires comme support pédagogique en cours de langue vivante et étrangère, et plus particulièrement en arabe langue étrangère, peut susciter chez les apprenants une motivation pour la lecture. Nous examinons l'intérêt de l'intégration des textes littéraires en cours de langue et les fonctions de leur lecture. Nous dégagons quatre caractéristiques qui nous semblent parmi celles qui distinguent les textes littéraires et qui participent à leur intérêt : sensibilisation à la culture, autonomie, authenticité, dimension esthétique. Chacune de ces quatre caractéristiques fait que le texte littéraire pourra avoir une dimension motivante à la lecture pour l'apprenant. Ces quatre caractéristiques sont commentées à partir d'un texte exemple qui pourrait être utilisé dans un cours de langue arabe langue étrangère : "le collier de la colombe" de Mohamed al-Maghout. A notre avis, un changement d'approche et de rôle de l'enseignant pourrait faire que les textes littéraires utilisés comme support pédagogiques soient une source de motivation pour la lecture.

Les mots clés : Lecture, Textes littéraires, Enseignement des langues étrangères, Langue arabe langue étrangère, Motivation à la lecture.

Introduction

La lecture, dite littéraire, est un divertissement certes, mais c'est aussi un moyen précieux d'acquérir le savoir, de forger l'esprit critique et de s'ouvrir sur le monde. Elle nous fait voyager, rejoindre l'auteur dans sa démarche d'écriture, s'identifier à ses personnages, plonger dans un soi autre et s'y

abandonner. Par ailleurs, son apprentissage fait parti de la mission essentielle et indispensable de l'enseignement officiel.

Selon Dufays et al., « La lecture est un moyen privilégié de la connaissance et de l'ouverture au monde. » (1996, p 104). C'est même le moyen de s'instruire par excellence. Mais malgré l'importance reconnue et l'intérêt porté à son égard par les structures politiques et intellectuelles, la lecture est en déclin. Dufays et al. observent, tout de même, qu'elle fait l'objet d'un intérêt particulier pour la recherche : « La lecture n'a jamais fait l'objet d'autant de recherches qu'en cette époque où l'on déplore partout son déclin en tant que mode d'information dominant. Pour diverses raisons qui tiennent notamment à la mutation des moyens de communication et à l'explosion de la démographie scolaire, la galaxie Gutenberg est entrée dans l'ère du doute. » (2005, p 9).

Mais qu'entendons-nous par lecture ? Dans le contexte de cet article, nous traiterons de la lecture dans le sens de la compréhension et de la constitution de sens et non pas des aspects techniques de la lecture dont l'objectif est de déchiffrer les lettres et les mots. Nous nous intéresserons plus précisément à la lecture qui s'opère autour d'un document pédagogique où l'apprenant est censé déchiffrer le sens à partir des codes et des stéréotypes contenus dans le texte, tout en se basant sur ses connaissances préalables. Nous dirons avec Dufays et al. que « toute lecture est une construction de sens et de valeurs qui s'élabore au départ des codes et des stéréotypes assimilés au cours des lectures antérieures.» (1996, p 101).

Pour ce qui est de cette désaffection à l'égard de la lecture dans nos sociétés modernes, nous pouvons ajouter qu'elle est, malheureusement, particulièrement vraie dans le monde arabe. Les raisons de ce phénomène y sont complexes et mériteraient à elles seules une étude spécifique. Elles ne résultent pas uniquement des changements et des mutations provoqués par les nouveaux moyens de communication tels que cela semble être le cas dans les sociétés occidentales, mais elles relèvent aussi des domaines social, politique et économique. Ce phénomène de

désaffection démontre que lire aujourd'hui n'est plus une question si évidente. Cela a poussé les chercheurs à se mobiliser pour créer une « mine de réflexions inépuisable » concernant les multiples facettes de ce sujet (Dufays et al. 2005).

Ainsi, de nombreux experts, chercheurs en pédagogie et enseignants tentent d'identifier l'origine de ce phénomène de désaffection en vue de mettre en place une ou des stratégies bien définies pour motiver les apprenants à la lecture et les réconcilier avec le livre.

Nous aimerions souligner, à ce propos, que les recherches ont été bien plus poussées sur le plan théorique que sur le plan pratique. La didactique et la pédagogie de la lecture ont occupé une place importante dans ces recherches comme l'affirment Dufays et al. mais souvent sur le plan théorique (ibid.). Le travail sur le terrain et les questions pratiques qui touchent la classe n'ont pas été vraiment et suffisamment abordées et « les préoccupations didactiques des théoriciens de la lecture semblent [...] bien minces » (ibid.). Cela nous semble causer un manque dont nous reparlerons ultérieurement au niveau de l'approche ou des approches adoptées face aux textes littéraires en classe de langue.

Lecture, langue, littérature

Quand on évoque la lecture, on évoque impérativement la langue et la littérature, car la littérature a toujours occupé une place privilégiée dans l'enseignement des langues, surtout les langues maternelles. Cette place privilégiée s'explique par deux raisons essentielles : d'une part, la littérature offre un modèle langagier que l'on considère comme celui de « la belle langue » et d'autre part elle véhicule une culture et des valeurs que les structures d'enseignement sont censées transmettre aux apprenants. Par ailleurs, ce positionnement n'a généralement pas été remis en cause contrairement aux méthodologies, aux objectifs et aux types de supports qui ont témoigné d'une large évolution au fil des années et témoignent toujours de ce changement perpétuel, plus particulièrement, sur le plan théorique.

Dans ce cadre, la question que nous abordons dans le présent article concerne l'intégration des textes littéraires dans l'apprentissage des langues vivantes et étrangères en général, et plus particulièrement de l'arabe et la possibilité que cette intégration puisse représenter une motivation pour la lecture qu'elle soit en langue maternelle ou langue étrangère. Il est évident que la lecture forme une partie intégrante de l'apprentissage de la langue maternelle, de la langue seconde et de la langue étrangère. Ainsi, nous nous centrerons ici sur le choix du support pédagogique et nous nous demanderons si ce choix, et notamment lorsque ce choix se porte sur un texte littéraire, peut influencer la motivation de l'apprenant pour la lecture.

Nous présenterons tout d'abord un bref historique de l'utilisation des textes littéraires dans l'apprentissage des langues et nous aborderons la fonction de la lecture des textes littéraires. Puis, nous isolerons quatre caractéristiques qui nous semblent favoriser la vocation motivante de ce type de support pédagogiques. Nous tenterons par la suite de repérer ces quatre caractéristiques dans un texte exemple.

Les textes littéraires et leur place en didactique des langues

Que peut-on brièvement dire, d'un point de vue historique, sur l'exploitation des textes littéraires dans l'apprentissage des langues vivantes et étrangères ? Les travaux de Puren et de Germain nous guident pour repérer les périodes clefs dans cet historique.

Il y a un siècle l'enseignement des langues étrangères reposait principalement sur l'utilisation des textes littéraires. En effet, l'enseignement des langues comme le grec et le latin ne se faisait qu'à partir des œuvres littéraires des grands auteurs de ces langues. Cet enseignement visait l'apprentissage de la langue étrangère mais également, et de façon très importante, la formation intellectuelle de l'apprenant. C'est la méthodologie appelée « méthodologie traditionnelle » où le texte littéraire jouissait de « la place centrale ». (Albert et Souchon 2000, p 9).

Par la suite, avec l'arrivée des méthodologies directe, active et audio visuelle, les textes littéraires ont presque disparu des manuels de langues pendant plusieurs dizaines d'années. L'apparition de ces méthodologies correspond à l'influence de certaines approches théoriques (tel que le behaviorisme) et la présence de certaines nécessités pratiques (comme par exemple lors de la 2^{ème} guerre mondiale la nécessité d'apprentissage rapide de la langue japonaise par les soldats américains).

Enfin, depuis plusieurs années, avec l'apparition de l'approche communicative dans laquelle l'apprentissage des langues vivantes repose surtout sur la communication, et de l'approche actionnelle diffusée par le conseil de l'Europe, les textes littéraires réapparaissent dans l'enseignement des langues étrangères, du moins sur le plan théorique. Les travaux de didacticiens des langues étrangères tels que Peytard, Goldenstein ou encore Puren témoignent de cette tendance.

Aujourd'hui, l'usage des textes littéraires en classe de langue n'est plus en question selon D. Bourgain et E. Papo qui affirment même que « la littérature peut et doit être présente dans la classe de langue [...] Le texte littéraire est un laboratoire langagier, où la langue est si instamment sollicitée et travaillée, que c'est en lui qu'elle révèle et exhibe le plus précisément ses structures et ses fonctionnements. Littérature, non pas, non plus, comme « supplément » culturel, mais assise fondatrice de l'enseignement de la langue » (1989, p 8).

Jean Pierre Cuq affirme également que « la littérature et le texte littéraire devraient s'insérer davantage dans le champ de la didactique des langues pour gagner une place plus cohérente et des fonctions plus opératoires dans l'apprentissage d'une langue et d'une culture étrangère. » (Cuq 2003, p 158). Selon cet auteur, la littérature et le texte littéraire pourraient donc, lorsque bien employés, être plus que de simples supports. Ils deviendraient de réels acteurs ou, dit autrement, ils réaliseraient une réelle opération bénéfique sur l'apprentissage.

Bourgain et Papo soulèvent, néanmoins, que la question cruciale réside dans l'efficacité de l'approche adoptée face au texte

littéraire en classe de langue. Ainsi, ce qu'il faudrait revisiter, c'est l'approche, souvent traditionnelle voir archaïque, adoptée quand il s'agit du texte littéraire. Il faudrait innover de façon à amener les apprenants à apprécier ce support à sa juste valeur, or, pour arriver à cette fin, il semble qu'il faudrait adopter une approche axée sur un dialogue ouvert avec le texte littéraire, une approche visant à améliorer la sensibilité culturelle et langagière au fil de l'apprentissage de la langue étrangère et à donner l'autonomie aux apprenants pour qu'il arrivent à investir ce texte qui jouie d'une multiplicité de lectures et d'interprétations. Albert et Souchon (2000) présentent ce dialogue comme un moyen précieux pour la communication humaine. Ce type de communication avec et par le texte littéraire n'apporte pas seulement des connaissances mais elle est surtout une source du plaisir qui accompagne cet apprentissage de la langue étrangère. Dans cette communication littéraire, l'apprenant est aussi un lecteur qui est supposé vivre plaisir, satisfaction et créativité.

Nous voulons tenter ici d'examiner quelles sont les caractéristiques spécifiques d'un texte littéraire qui sont susceptibles de rendre cette communication si particulière ? Ces caractéristiques rendent-elles la communication littéraire et donc la lecture dite littéraire plus attrayante et plus motivante ?

Fonctions de la lecture des textes littéraires

La procédure visant à mettre en lumière les particularités des textes littéraires ne signifie en aucun cas, pour notre part, de suggérer un support pédagogique unique. « Nul ne conteste la nécessité de former les élèves à toutes les formes de lecture et à tous les types et les genres de textes » (Dufays et al. 2005, p 11). D'autant plus que « En le privilégiant (le texte littéraire) dans l'apprentissage de la lecture à l'école, on ne se coupe en rien des autres formes de lecture, au contraire, on se donne les moyens de les enrichir » (ibid., p 11).

En effet, la lecture des textes littéraires nécessite, de par sa nature, un développement maximal des compétences particulières qui peuvent intervenir ensuite dans l'exercice de la lecture en général. En d'autre terme, les textes littéraires sont

susceptibles de favoriser et de renforcer la pratique de la lecture en général. C'est pourquoi, le fait de négliger les autres types de documents pourrait même s'avérer contreproductif dans l'apprentissage linguistique et culturel d'une langue étrangère. En effet, pour acquérir la connaissance d'une langue et de sa culture les apprenants devraient être exposés à tout type de textes. De plus, Dufays, Ledur et Gemenne affirment que : « la plupart des textes qualifiés de littéraires permettent plus que les autres d'atteindre les différents enjeux rationnels et passionnels de la lecture, car le soin qui a été apporté à leur composition les a dotés de virtualités multiples » (1996, p 118). Ils permettent surtout des lectures multiples, ils « se distinguent généralement par la richesse des lectures qu'on peut en faire et des enjeux qu'on peut leur conférer » (ibid., p 118). Les textes littéraires sont donc à privilégier parmi les autres documents. « Elle (la littérature) devrait occuper une place prioritaire dans l'enseignement de la lecture » (ibid., p 118). Car ces textes littéraires apportent aux classes de langue, comme tous les autres types de documents pédagogique, diversité, créativité et plaisir, cependant, ils sont les seuls à permettre une réflexion plus poussée sur la langue cible et sa culture. Ainsi, « ils contribuent au même titre que d'autres pratiques à rendre la classe plus « créative » et à accroître la part de plaisir dans l'apprentissage d'une langue étrangère. Mais ils sont les seuls à permettre cela tout en suscitant une réflexion sur les modes de fonctionnement discursifs et textuels dont l'apprenant ne saurait faire l'économie pour s'approprier la langue et la culture étrangère.» (Albert et Souchon 2000, p 10).

Il est vrai que la lecture des textes littéraires permet « la maîtrise de la langue écrite, qu'il s'agisse du vocabulaire, des constructions grammaticales ou des subtilités des différents styles et registres d'écriture (notamment les pouvoirs de figuration et de polysémie propres à la fonction poétique du langage) » (Dufays et al. 1996, p 100). En cela, elle constitue à la fois pour les apprenants et les enseignants un excellent moyen pour améliorer les compétences d'expression écrite mais également orale. Sur le plan culturel, la lecture des textes

littéraires « assure la maîtrise des codes et des stéréotypes propres aux différents genres littéraires et non littéraires » (ibid., p 100). C'est une source précieuse des connaissances d'ordre culturel. Nous pouvons dire avec Dufays et al. que cette lecture « communique des informations, des systèmes de références et des valeurs qui permettent au lecteur d'enrichir et de diversifier ses connaissances et ses jugements sur le monde et sur lui-même. » (2005, p 128) et en cela elle constitue un moyen privilégié d'acquérir et d'améliorer la compétence interculturelle nécessaire à tout enseignement dans le monde actuellement.

Toujours selon ces auteurs, cette fonction de la lecture s'applique plus particulièrement sur les documents authentiques dont les textes « dits littéraires » font partie. La lecture littéraire permet aux apprenants de tirer de chaque texte un maximum d'enseignements tant au niveau de la forme que du fond. Elle constitue ainsi « le préalable nécessaire de tout apprentissage d'écriture. » (ibid., p 129).

Quatre particularités du texte littéraire en tant que support pédagogique

La littérature est un « Véritable laboratoire de langue » (Cuq 2003, p 159), c'est « un réservoir des possibles de la langue, un espace où la langue est travaillée et se travaille, à son contact l'apprenant peut-être sensibilisé à toutes les nuances et au pouvoir de la langue qui recrée le monde à l'infini. » (ibid., p 159). Elle est également « le lieu de croisement des cultures et l'espace privilégié de l'interculturalité. » (ibid., p 159). Nous précisons ici que la notion d'interculturalité renvoie à ce qui se joue entre des individus, des groupes ou même des institutions provenant de différentes cultures, lorsqu'il y a un échange réciproque et dans une perspective de sauvegarde d'une relative identité culturelle des partenaires en relation.

Nous nous limiterons à mettre ici en exergue quatre particularités des textes littéraires qui nous semblent les rendre plus attrayants et motivants pour la lecture.

Sensibilisation à la culture

Les textes littéraires peuvent offrir une sensibilisation à la culture car ils représentent des aspects et éléments essentiels de la réalité culturelle et sociale d'une langue. Ils sont des documents qui témoignent de l'histoire d'une communauté linguistique particulière, de ses traditions, de ses aspirations et de son imaginaire. Séoud nous explique que « l'organisation de l'espace, le rapport avec le temps, les comportements et les attitudes dans les relations familiales, dans la relation au travail, à l'égard du droit et du devoir, les rapports de génération, la sexualité, le corps, les objets, etc., sont autant d'éléments, et une infinité d'autres encore, qui relèvent des manifestations du culturel. Ou peut-on rencontrer tout ceci, sinon en littérature ? Quels textes en rendent mieux compte que les textes littéraires ? De ce point de vu, ils se distinguent substantiellement de tous les autres. » (1997, p 56).

La littérature véhicule en cela la culture d'une communauté et peut fournir au lecteur des éléments d'information précieux sur cette culture étrangère, mais également sur la langue et les formes employées pour la communiquer. Les textes littéraires sont donc une voix qui exprime une culture.

Autonomie

La pratique de la lecture littéraire offre aux apprenants les moyens de « tirer un maximum d'enseignement [...], à maîtriser les codes et les stéréotypes que tout texte véhicule » (Dufays et al. 1996, pp. 100-101). C'est en côtoyant les textes littéraires que l'apprenant va progressivement développer une autonomie dans la découverte et l'appréciation de ces textes. En intégrant des textes littéraires dans les cours de langue vivante étrangère, nous allons permettre cette rencontre entre le texte et l'apprenant. Une rencontre qui va contribuer à briser la barrière d'appréhension qu'un apprenant peut éprouver face à un texte littéraire, surtout dans une langue étrangère. En fait, cela va surtout permettre à l'apprenant d'avoir accès à ce genre de texte sans le biais de la traduction.

Authenticité

Nous entendons par un texte authentique, tout texte dont la langue est employée pour s'adresser aux locuteurs natifs de cette langue que ce soit par oral ou par écrit. En effet, en didactique des langues un document authentique est à la base un document qui n'a pas été fabriqué à des fins pédagogiques. Le texte littéraire est une œuvre créée dans le but de remplir une fonction particulière au sein de la communauté linguistique qui l'a produit, il présente ainsi un véritable caractère d'authenticité. De plus il est l'expression même d'un vécu qui restera identique quelque soit l'époque et qui ne vieillit pas avec le temps. Ainsi, Louis Porcher nous met en garde : avec les documents dits authentiques, mais non littéraire, on aboutit mieux à la connaissance de phénomènes réels, mais de façon momentanée. Il ajoute que « les documents authentiques (i.e., non littéraire) si plein de vertus pédagogiques par ailleurs, sont particulièrement redoutables par l'une de leurs caractéristiques majeures : ils sont très vite périmés, et cette péremption rapide induit aisément de fausses représentations. [...] leur durée de validité est si brève qu'ils n'autorisent aucune conclusion fiable » (Porcher 1988, cité par Séoud 1997).

De ce point de vue, les textes littéraires sont largement favorisés puisqu'ils s'adressent au lecteur indépendamment du contexte et de la situation.

Dimension esthétique

Les textes littéraires sont des textes linguistiquement et sémantiquement plus riches que les autres types de textes. En fait, ils possèdent une dimension esthétique que souvent les autres documents même authentiques n'ont pas. « Le terme de la littérature désigne l'ensemble des œuvres écrites, qu'elles soient de fiction ou qu'elles s'inspirent de la réalité, qui portent dans leurs expressions même la marque de préoccupations esthétiques. » (Cuq 2003, p 158) Cela parce que la langue y est plus variée et plus riche en métaphore. Elle offre de très nombreuses possibilités d'interprétation. Par ailleurs, le texte littéraire est un dialogue entre réalité et imaginaire, c'est l'expression des pensées et des expériences de son auteur. Ces métaphores et cet imaginaire dont les textes littéraires regorgent

sont susceptibles de multiples interprétations selon le lecteur, son vécu et ses expériences. Le dialogue entre un texte littéraire et son lecteur ne dépend pas uniquement de l'intention de l'auteur mais également de l'interprétation que le lecteur en fait. Il offre au lecteur (l'apprenant dans ce cas précis) la possibilité et l'expérience de la multiplicité des sens.

En résumé, nous pensons que l'ensemble de ces quatre points distinguent les textes littéraires et peuvent être à l'origine d'une incitation à la lecture.

Reste à souligner que la question essentielle que l'on doit poser quand il s'agit d'une lecture d'un texte littéraire réside dans le rapport entre la littérature et la lecture. Comment faut-il lire un texte littéraire ou existe-il une lecture que l'on peut spécifiquement qualifier de littéraire ? Dufays voit deux types de lecture littéraire, « fermée » et « ouverte », dont l'opposition correspond en grande partie à une évolution historique. Deux approches ségrégationniste et intégrationniste. La première consiste à étudier la littérature pour elle-même « tantôt en faisant l'exégèse minutieuse des œuvres particulières (études formelles, esthétique, stylistique...) tantôt en situant ces mêmes œuvres par rapport aux contextes littéraires qui les font signifier : l'évolution des courants des genres (histoire littéraire) la vie des auteurs (études biographiques), les sources [...] ; il s'agit ici de saisir le génie propre de la littérature [...], chaque œuvre impose, d'une certaine manière, sa propre lecture. La deuxième, « l'approche intégrationniste, affirme l'existence d'une lecture littéraire indépendante des textes [...] lecture plurielle : dès lors que la littérature se dissout dans la diversité des genres et des textes, il n'existe pas d'approches privilégiée pour la saisie des effets ; il faut au contraire tâcher de situer les fonctionnements des œuvres dites littéraires selon des voies qui conviennent à tous les textes : la voie sémiotique, la voie sociologique, la voie psychanalytique, la voie intertextuelle[...] ; ces diverses lectures peuvent s'appliquer aussi bien à une bande dessinée ou à un récit de science-fiction qu'à une pièce de Racine » (Dufays et al. 1996, p 69).

Présentation de notre texte exemple

Nous voulons présenter maintenant l'exemple que nous avons choisi. Il s'agit d'un texte authentique et sans adaptation : Tawk Al-Hamama¹ de Mouhammad Al-Maghout²

Nous avons choisi ce texte pour plusieurs raisons : tout d'abord pour la qualité et le niveau de la langue qui correspond au niveau B2³ (selon le classement du Cadre Européen de référence pour les langues) qui n'est pas un niveau avancé, puis pour les éléments culturels qu'il contient, ensuite pour sa dimension esthétique, enfin parce que son auteur Al-Maghout est un poète et écrivain, qui a écrit des poèmes, des pièces de théâtre, des scénarios et des essais exprimant de la colère face à la situation dans son pays la Syrie le monde arabe en général. C'est un écrivain engagé qui a toujours porté en lui les soucis et les espoirs de sa patrie. Et de qui le poète Abdellatif Laâbi qui a traduit son recueil de poème « la joie n'est pas mon métier » a dit « Les cibles privilégiées [d'Al-Maghout] sont les tabous, qu'ils soient d'ordre politique, religieux ou sexuel. En cela, il reprend à son compte une tradition séculaire d'impertinence, qui n'a cessé de travailler en marge le corps de la culture arabe. » (Laâbi 1992).

Nous tenions à démontrer que même un texte littéraire d'un auteur comme Al-Maghout peut être accessible linguistiquement et sémantiquement pour des apprenants de ce niveau B2.

Le collier de la colombe Al Maghout

¹ Un texte d'un recueil d'articles de Al-Maghout intitulé (*Sa 'akhounu Watani*, (سأخون وطني)

² Mohammed Al-Maghout (محمد الماغوط) (1934-2006) : Poète, dramaturge, écrivain et scénariste syrien. Pionnier de la poésie arabe contemporaine, il a renouvelé les formes traditionnelles dans des textes où se mêlent violence, désespoir et ironie. Sa vie fut marquée par la prison et l'exil au Liban, prix payé pour sa farouche indépendance.

³ B2 : Peut comprendre le contenu essentielle des sujets ou abstraites dans un texte complexe, y compris une discussion technique dans sa spécialité. Peut communiquer avec un degré de spontanéité et d'aisance tel qu'une conversation avec un locuteur natif ne comportant de tension ni pour l'un ni pour l'autre. Peut s'exprimer de façon claire et détaillée sur une grande gamme de sujets, émettre un avis sur un sujet d'actualité et exposer les avantages et les inconvénients de différentes possibilités.

هل يمكن يا حبيبتي أن يقتلني هؤلاء العرب إذا عرفوا في يوم من الأيام أنني لا
أحبُّ إلا الشعر والموسيقى ولا أتأمل إلا القمر والغيوم الهاربة في كلِّ اتجاه.
أو أنني كلِّما استمعتُ إلى السيمفونية التاسعة لبتهوفن أخرج حافياً إلى الشارع
وأعانق المارّة ودموغ الفرح تفيض من عيني.
أو أنني كلما قرأتُ "المركب السكران" لرامبو، أندفع لألقي بكل ما على مائدتي
من طعام، وما في خزائني من ثياب، وما في جيوبي من نقود وأوراق ثبوتية من
النافذة.
نعم فكلُّ شيء مُمكن ومُحتمل ومُتوقَّع من المحيط إلى الخليج، بل منذ رأيتهم
يُغديقون الرصاص بلا حساب بين عينيّ غزال مُتوسِّط أدركتُ أنهم لا يتورَّعون عن
أيِّ شيء.

Traduction :

Oh ! ma bien aimée me tueraient-ils ces arabes si un jour ils
apprennent que je n'aime que la poésie et la musique et que je ne
contemple que la lune et les nuages qui fuient dans tous les sens
ou que chaque fois que j'écoute la neuvième symphonie de
Beethoven je sors pieds nus dans la rue et j'embrasse les
passants en pleurant des larmes de joie
ou que chaque fois que je lis « Le bateau ivre » de Rimbaud je
me précipite pour jeter par la fenêtre tous ce qu'il y a comme
nourriture sur ma table, comme vêtements dans mon armoire,
comme argent dans mes poches et tous mes papiers d'identités.
Oui, car tout est possible, probable et attendu du golf à l'océan,
j'ai même compris
depuis que je les ai vus généreusement tirer des balles entre les
yeux d'une gazelle moyenne,
que rien ne les arrêterait.

Comment pouvons-nous associer à ce texte les quatre caractéristiques que nous avons relevées plus haut ?

Sensibilisation à la culture

Avec ce texte, la sensibilisation à la culture pourra, par exemple, consister en une présentation de la littérature contemporaine en Syrie, de ses auteurs les plus connus, de leurs œuvres et des soucis et objectifs qui animent cette littérature. Ensuite, il pourrait y avoir une présentation de l'auteur qui est un des premiers à avoir abandonné la voix traditionnelle de la poésie, ses formes et ses thèmes. Puis l'enseignant pourrait guider ensuite les apprenants dans leur découverte des éléments culturels présents dans le texte. Par exemple le titre du texte ; qui renvoie à l'œuvre d'Ibn Hazm¹, écrivain andalou du XI^e siècle, qui porte le même titre. Ce choix de l'auteur Maghout d'emprunter le titre de cette œuvre majeure de la tradition arabe renvoi à de nombreuses significations pour lesquelles l'enseignant pourra proposer des pistes de recherche. D'autre part les aspects politiques et ceux concernant les droits de l'homme que l'auteur évoque tels que l'absence de liberté d'expression pourront être soulignés. Enfin, l'auteur crée également un pont entre la culture arabe et la culture occidentale en citant Beethoven et Rimbaud. Ce pont culturel pourra favoriser chez les apprenants la compréhension du texte sur le plan linguistique et culturel, de plus, il pourra constituer une source d'inspiration sur le plan interculturel.

Cette sensibilisation à la culture permettra à notre avis une plus grande curiosité de la part des apprenants et créera plus de motivation à la lecture de ce genre de texte de la littérature arabe.

Autonomie

Le développement de l'autonomie des apprenants consistera ici à leur donner les moyens linguistiques, les codes et les stéréotypes

¹ Abû Muhammad Alî ibn Hazm az-Zahiri al-Andalussi (ابن حزم), (994-1064) : poète, historien, juriste, philosophe et théologien arabe de souche andalouse convertie à l'islam depuis plus de 2 siècles. Un des plus importants œuvres « le *Collier de la colombe* », un traité d'amour le situe parmi les représentants majeurs du platonisme en Islam

nécessaires à la compréhension de ce texte. En fait, le choix de ce texte qui correspond à leur niveau sur le plan linguistique et lexical, leur permettra d'accroître leur confiance en eux pour la lecture de ce type de texte.

En outre, dans l'approche choisie pour aborder ce texte en tant qu'enseignant, il faudrait veiller à ne pas imposer son interprétation du texte aux apprenants, mais à leur donner la possibilité de s'exprimer et de réagir et de reconstruire du sens à travers des lectures multiples. Cette démarche a pour but de leur offrir l'occasion de formuler leur pensée à l'oral et à l'écrit. Cela tendra à renforcer leur autonomie, leur maîtrise de la langue et pourra les inciter à la lecture.

Enfin, il ne faut pas oublier que ce texte littéraire va également fonctionner comme un modèle et une source d'inspiration pour les apprenants qui vont pouvoir aller vers d'autres lectures et pourquoi pas ainsi produire leurs propres textes.

Authenticité

Ce texte, malgré les quelques mots de vocabulaire ou éléments linguistiques que l'on devra peut-être expliquer pour certains, reste un texte accessible pour des apprenants de niveau B2 sans aucune adaptation. Il contient un lexique et une grammaire assez simple (comme par exemple: Rue / شارع, Jour / يوم, Armoire / خزانة, Ma bien aimée/حبيبتي). Il n'y a pratiquement pas de tournure de phrase compliquée. La force de ce texte réside dans l'usage particulier de la langue, dans les images qui sont utilisées ainsi que dans l'émotion qu'il peut procurer de par sa sincérité et son réalisme. C'est un texte de prose très poétique. L'auteur exprime ses propres émotions et traduit ses pensées et ses croyances d'une manière artistique et noble. C'est là où l'authenticité de ce texte peut toucher les apprenants et provoquer chez eux des émotions, mais surtout des questionnements et des interprétations.

En fait, ce texte est le résultat d'une situation authentique : l'auteur mentionne d'une façon indirecte et avec beaucoup de subtilité la situation politique en Syrie et dans le monde arabe,

tels que l'absence de liberté d'expression et artistique. C'est un témoignage historique de ce qui a pu se passer en Syrie et dans le monde arabe pendant cette période.

Un texte fabriqué, qui contiendra peut-être les mêmes éléments linguistiques et les mêmes informations que l'on voudrait transmettre, ne contiendra pas tous ces aspects du réel et d'authenticité. Il restera un texte artificiel, souvent banal et non convainquant. De plus, il ne pourra pas provoquer chez l'apprenant le même plaisir ni la même envie de lire. Si bien qu'un texte authentique, mais non littéraire, manquera d'intemporalité et sera moins poétique. En effet, l'authenticité dans ce texte se manifeste également à un autre niveau : il évoque une situation humaine réelle qui peut être vraie dans toute société qui vit la même situation de répression à un moment de son histoire.

Dimension esthétique

On pourrait ici citer beaucoup d'exemples qui témoignent de cette dimension esthétique que ce soit dans l'usage des mots, dans les métaphores créées ou le style plus proche de la poésie que de la prose. Par exemple : dans l'usage du verbe « agdaka » dans l'énoncé "يغدقون الرصاص" qui signifie la générosité et que l'auteur utilise en opposition avec le mot balles « rasas » qui renvoie à la violence.

Par ailleurs, ce texte a un fort pouvoir évocateur. Il nous transporte. Rien qu'en lisant nous arrivons à imaginer les scènes : on voit par exemple l'auteur "sortir pieds nu dans les rues et embrasser les passants". Un autre exemple de la dimension esthétique se trouve dans l'emploi du mot "gazelle" plutôt que "citoyen".

Enfin, un trait marquant de cette dimension esthétique se manifeste par l'absence du ton moralisateur de l'auteur, il présente ses idées de façon non figée et il n'adopte jamais le rôle d'un donneur de leçon. Il est uniquement et pleinement présent par son âme traduite en mots et images.

En somme il nous semble qu'un des aspects cruciaux pour la motivation des apprenants lecteurs réside dans le fait que le texte évoque, sous une forme ou une autre, une réaction émotionnelle. Un dialogue s'installe entre le texte, le récepteur (l'apprenant) et l'auteur, renforçant, pour revenir à notre objectif, le courage, l'envie et la capacité de l'apprenant à se confronter à d'autres textes et à profiter pleinement de ses lectures.

En guise de Conclusion

Ces caractéristiques que nous avons pu relever sont, à notre avis, susceptibles de distinguer le texte littéraire d'autres types de textes non littéraires (bien qu'authentiques) – sensibilisation à la culture, vecteur d'autonomie, authenticité, dimension esthétique. Elles pourraient susciter chez l'apprenant une motivation pour la lecture. Mais, si ce postulat est admis et les textes littéraires peuvent et doivent faire partie des supports pédagogiques adoptés en classe de langue étrangère, les approches doivent tout de même être revisitées selon les objectifs, le public mais aussi le type et le genre du texte choisi. Ainsi, l'innovation devrait s'opérer au niveau de ce que l'on fait du texte et comment on le fait. Ce qui nous semble primordial également c'est qu'il y ait un changement dans le rôle de l'enseignant au sein de ce processus de communication entre les apprenants et les textes. Il ne devrait plus être : « l'intermédiaire obligé [...] Son rôle est plutôt de montrer comment et avec quels outils il est possible de reconstruire du sens à partir d'un texte en langue étrangère. L'enseignant n'intervient pas en tant qu'intercesseur infallible interprétant le texte pour l'apprenant ; il est chargé d'indiquer les chemins à suivre pour parvenir à cette réponse à propos du sens, que l'étudiant lui-même doit apporter. » (Albert et Souchon 2000, p 52).

Enfin, il nous semble que si ce pari du changement dans le rôle de l'enseignant et de l'adoption d'autres types d'approches plus adaptées est gagné, l'intégration des textes littéraires en classe de langue pourrait être une source privilégiée de motivation à la pratique de la lecture même en langue étrangère.

Bibliographie :

Al-Maghout, M. (2003), *Sa 'akhoune Watani*, سأخون وطني 3^{ème} édition, En langue arabe, Dar Al-madaa. Damas, 508 p.

Albert, M.-C. & Souchon, M. (2000), *Les Textes littéraires en classe de langue*, Hachette, Paris, 190 p.

Bourgain, D. & Papo, E. (1989), *Littérature, communication, classe de langue*, Hatier, Paris, 159 p.

Cuq, J.P (dir), (2003), *Dictionnaire De Didactique Du Français*, Cle International. 303 pages

Dufays, J.-L.; Gemenne, L. & Ledur, D. (1996), *Pour une lecture littéraire. Approche théorique et historique, propositions pour la classe de français, tome 1*, De Boeck, Bruxelles, 302 p.

Dufays, J.-L.; Gemenne, L. & Ledur, D. (2005), *Pour une lecture littéraire. Histoire, théories, pistes pour la classe*, 2^{ème} édition, De Boeck, 370 p.

Germain, C. (1995), *Evaluation De l'Enseignement Des Langues-5000 Ans d'Histoire*, Cle International, 350 p.

Laâbi, A. (1992), Préface du recueil : Mohamed Al-Maghout, *La joie n'est pas mon métier*. Editions de la Différence, Paris, 188 p.

Peytard, J. (dir.), (1982) : *Littérature et classe de langue*, CREDIF, Hatier, Paris, coll. Langues et apprentissage des langues, 239 p.

Puren, C.,(1988), *Histoire des Méthodologies de l'Enseignement des Langues*, Cle International, Paris, 447 p.

Seoud, A. (1997), *Pour une didactique de la littérature*, Didier, Paris, 249 p.

Site web :

Le portfolio européen des langues, Division des politiques linguistiques, Conseil de l'Europe. Disponible sur : <https://www.coe.int/fr/web/portfolio> (consulté le 25/10/2017)

**A Think-aloud Protocol Investigation of Two EFL Students'
Essay Planning Strategies at Sétif 2 University, Algeria**

Samira Moussaoui

Doctorante, université de Sétif 2

Abstract

*A Think-aloud Protocol Investigation of Two EFL Students'
Essay Planning Strategies at Setif 2 University, Algeria*

This article summarises the results of a case study conducted to compare the planning processes and strategies of two EFL undergraduate student writers at the Setif University English Department. The study participants were selected and categorized as high-and low-intermediate achieving writers according to pre-test scores. The data were collected from the participants' think-aloud protocols and their written products to evaluate their writing quality. After the transcription and coding of the think-aloud protocols, the results were analysed qualitatively, and a comparison was made between the planning processes and strategies used by both participants. The results demonstrated that although both participants followed the fundamental stages of the writing process, the high-achieving writer planned more strategically and purposefully, at the local as well as the global level, than did the low-achiever. In addition, the written product of the former was of a better quality than that of the latter, mainly at the level of content and organization.

Key words: Expository writing, high-/ low- achieving writer, planning (processes/ strategies), think-aloud procedure/ protocols, writing performance.

Résumé

Une Étude à travers des Protocoles Verbaux des Stratégies de Planification d'un Essai chez Deux Étudiants de Langue Anglaise au Niveau de l'Université de Sétif 2, Algérie

Cet article résume les résultats d'une étude de cas qui a pour but de comparer les processus et les stratégies qui ont été utilisés par deux étudiants de langue anglaise langue étrangère, au sein du département d'anglais à l'Université de Sétif 2. Les participants de cette étude ont été sélectionnés et catégorisés en tant que scripteur ayant un haut ou bas niveau (de performance écrite) à l'aide des résultats d'un pré-test. Les données de cette étude ont été collectées à travers les protocoles verbaux des deux participants ainsi que leurs productions écrites qui ont servies à évaluer leur performance écrite. Après la transcription et le codage des protocoles verbaux, les résultats ont été analysés qualitativement, et une comparaison a été établie entre les stratégies utilisées par les deux participants. Les résultats ont montré, et cela malgré le fait que les deux participants ont respecté les étapes fondamentales du processus de l'écriture, que le scripteur ayant un haut niveau a planifié son essai d'une façon plus stratégique et avec des objectifs précis, au niveau global et local, comparé au participant ayant un bas niveau. De plus, la production écrite du premier était d'une qualité meilleure que celle du dernier, notamment au niveau du contenu et l'organisation.

Mots clés: Ecriture expositive, scripteur ayant un haut/ bas niveau, processus/ stratégies de planification, techniques/ protocoles verbaux, performance écrite.

Introduction

Writing in English as a foreign language (EFL) requires a thorough understanding of the writing skills and conventions. However, the mastery and the effective use of the writing

strategies require further skills and practice at the various stages of the writing process (pre-writing, drafting, revising and editing).

This study aims at examining and comparing the planning processes and strategies used by high-intermediate and low-intermediate achieving (HAW and LAW) EFL student writers in processing their essays. It also examines the effect of planning strategy use on their writing performance.

The Planning Processes and Strategies

Planning is considered to be a highly cognitive process that requires a significant mental effort. It consists of a set of strategies that guide the writer through various steps that are purposeful and self-regulated to build an organized, meaningful and coherent piece.

There are two approaches to the planning process that are referred to as the 'top-down' and the 'bottom-up' approaches. The former consists of an "advanced planning" that takes place at the pre-writing stage, by using "concept maps and outlining", and the latter involves a "discovery" of ideas through free writing, which is followed by a recursive process of revision and organisation (Alamargot and Chanquoy, 2001; Deane et al., 2008; Elbow, 1973; in Graham MacArthur, and Fitzgerald, 2013, p. 193). According to Graham et al., advanced planning (or the top-down approach) is more beneficial for the writers who find difficulties in handling various cognitive processes at the same time. Therefore, they think that it is important for writing instructors to explain, explicitly, to their students the advanced planning strategies because the latter have considerable effects on the organization of their writing. They consider that "even skilled writers can be limited by working-memory capacity so that they cannot handle all the aspects of the writing task simultaneously" (Deane et al., 2008, p. 36; in Graham et al., 2013, p. 194).

The bottom-up approach, however, can be explained through the recursive nature of the planning process, as it is the

case with the whole process of writing. Thus, as students continue to generate ideas throughout the writing process, they often make decisions on which ideas to maintain and which ones to delete through further reflection and reading. Some writers would simply read through what they have written so far and decide on what to revise in their original plans; others consider the planning process recursively as they change ideas and thoughts, “visualize, and reenvision the structure and content of a written composition” (Graham et al., 2013, p. 200).

In this study, the researcher refers to the type of strategies that writers employ in the process of generating, outlining, and organizing their ideas for the purpose of facilitating the production of a coherent and meaningful essay. Examples of strategies that facilitate the planning of writing include setting a goal for writing (also referred to as ‘local planning’), analysing a topic, evaluating information, ‘referring to audience, genre, or purpose’, and word choice.

The Planning Strategies of Skilled and Unskilled Writers

In examining the differences and the features that characterise skilled and unskilled writers, it is important to explain the concepts ‘skilled’ versus ‘unskilled’. Researchers, like Sasaki (2000), Graham et al. (2013), and Saddler, et al. (2004) use other terms to refer to these two categories of writers, such as ‘expert versus novice’, ‘proficient’ versus ‘non-proficient’, ‘good’ versus ‘poor’, or ‘professional’ versus ‘reluctant’ or ‘struggling’ writers. These, and other terms, may fit into any context of language learning. In the context of writing, the terms ‘skilled’ and ‘unskilled’ may relate to various aspects, including the overall performance of a student, with its different components. By the latter, the author means aspects like language proficiency (i.e., the appropriate use of the various aspects of the target language for a particular purpose and in a particular context), the use of the rhetorical skills and strategies, as well as the general conventions of good writing.

As far as the relationship between writing performance and language proficiency is concerned, studies (Graham et al.,

2013; Leki, Cumming, and Silva, 2008) found that the latter is not the main aspect of weakness in writing among unskilled writers; rather, the weakness may generally be attributed to their unskilful use of the writing strategies, mainly planning and revision. They consider that language proficiency generally facilitates writing development in terms of the amount of content, vocabulary and grammar use rather than the overall writing performance. Sasaki (2000), on the other hand, claims that language proficiency is partially an aspect of difference in strategy use between the ‘experts’ and the ‘novices’. Other studies (Akyel, 1994; in Leki, Cumming, and Silva, 2008) have yielded that both skilled and unskilled writers can produce organized compositions, with varying levels, regardless of their language proficiency level. This can explain the fact that planning strategy use may help struggling writers organize and produce coherent pieces, regardless of the amount of content and the variety and quality of the vocabulary generated. This can also entail the importance of planning recursively whereby the writers plan and reorganise their ideas as they write.

From the perspective of planning and strategy use, it is argued that some student writers tend to write freely, then add or delete as needed later because they think that there is no need for a structured outline or plan as the latter takes more time and mental effort, or because they already have a clear idea in mind, so for them, a plan is unnecessary. Thus, unlike skilled writers, developing or struggling writers tend to make minimal conceptual (mind-maps, conceptual maps) planning because they have a resistance towards taking an extra mental effort and the time required for planning, or simply because they ignore the importance of planning (McCutchen, 2006, in Graham et al., 2013). However, skilled writers plan more purposefully and strategically. They “put a great deal of thought” and effort into their text before and during writing. They may choose to use a “graphic organizer, a semantic map (for expository text), or an outline”, or, simply, try “free writing” before drafting their essays. Regardless of how much time it takes them, they

consider spending an effort for a given planning strategy and write with a plan (Graham et al., p. 200).

The Effect of Planning Strategy Use on the Writing Performance

Studies related to EFL writing show that although much research has been done on EFL students' writing processes, little research shows the effect of planning strategies on the writing performance.

An examination of what has been said so far about the importance of planning in the creation and organization of a coherent piece of writing entails that the actions of planning that writers engage in may affect positively their writing, whether these actions occur at the pre-writing stage (advance planning) or throughout the whole process of writing (in a recursive way) (Yousun, 2008). In this respect, it is argued that "planning eases the processing load during task completion and enables [student writers] to produce a high-quality written text" (p.35). This explains the fact that planning facilitates, not only the mental and behavioural multi-tasks that a writer engages in while writing, but also leads to a better written product at the level of text quality and organization.

Similarly, in a study conducted on the effect of outlining on the writing performance, Kellog (1990) states that planning enhances the writing performance, considerably, at the level of writing quality and fluency, and that the effect is greater on the generation and organization of the texts. Planning can, hence, affect on the process as well as the product of writing, which is referred to, in this study, as the writing performance.

Therefore, Graham et al., (2013), believe that it is important for writing instructors to teach, explicitly, the planning strategies to students, mainly those with a limited experience in writing because when student writers plan purposefully and strategically, they, consequently, develop organized and coherent pieces. Thus, the effective use of the planning strategies facilitates the processing and organization of ideas.

The Use of the Think-aloud Method to Uncover the Writing Processes

The think-aloud is a method of research that has been used by researchers to collect data about the participants' cognitive processes. Researchers investigating the writing processes have used this method extensively in the last few decades as it provides "a valid source of data about participant thinking, especially during language based activities" (Charters, 2003, p. 68).

The think-aloud technique is introspective (Mebarki, 2008) in the sense that it allows the researcher to obtain information about the informant's thinking processes and behaviours while performing a cognitive task that cannot be observed through other methods. The procedure requires from the participant to "verbalize everything that comes to their minds while performing the writing task" (Abdel Latif, 2009, p. 1). In doing so, they are "prompted to talk when a long period of silence occurs" without "try [ing]... to plan out what they say or try to explain what they are saying" (Mebarki, 2008, p.119). The verbalized data are recorded, transcribed, coded, and then analysed. These data, combined with the written text generated from these verbalizations, are referred to as verbal protocols (Abdel Latif, 2009). They can be analysed quantitatively or qualitatively, depending on the researcher's aims (Charter, 2003).

In this study, the researcher used the think-aloud method to infer the writing processes and strategies used by two writers while composing an expository essay in an academic setting.

Methodology Design

Method

This study is an attempt to investigate the writing processes and strategies of two undergraduate students at the Setif University English Department, Algeria. It is qualitative in nature and is based on introspection, a research technique used to collect data on the cognitive processes that learners make while

performing some mental activities like reading or writing. More precisely, the focus of this study is on the planning processes and strategies of two student writers (high- and low-achievers) and the effect of planning strategy use on their writing performance.

Research Questions

In conducting this study, the researcher seeks to answer three questions, embracing a comparison between the strategies used by the two participants, the quality of their written products and the effect of planning strategy use on the writing performance. The following are the questions posed by the researcher:

Do high- and low-achieving writers use similar or different planning strategies in expository essay writing?

What differences and similarities do they demonstrate in essay production?

What is the effect of planning strategy use on the writing performance?

Study Participants

The participants of this study were two undergraduate students who received an academic writing course on essay writing, embracing different types and genres. They had had a sufficient background on essay writing conventions, techniques, processes, and genres. They were categorised as high- and low-intermediate achieving writers as a result of a pre-test that they took prior to the study. They are referred to, in this study, as high-achieving writer (HAW) and low-achieving writer (LAW) respectively.

The pre-test was part of a doctoral research that was conducted by the author of the present article. It consisted of writing an expository essay on one of the topics that were suggested by the researcher. The written products of the essay were evaluated in terms of four criteria: content (of the essay), organization (essay, paragraph, and sentence organization), language (accuracy and appropriateness), and mechanics

(spelling, punctuation and capitalization, as well as the format of the essay).

Research Instrument

The researcher used the think-aloud procedure to collect recorded data on the participants' verbalized thoughts and processes as they wrote an expository essay. The task of the participants was to think-aloud for a period of time (limited to 120 minutes) to complete all the stages of the process: pre-writing, drafting, and revising) while they were writing. They were encouraged to use as many drafts as they needed.

Beside the verbalized data, the written drafts of the essay were also used to evaluate the written products at the level of: content, organization, language accuracy and fluency, and mechanics.

The Think-aloud Procedure and Training

Before the participants took the think-aloud, they were trained by the researcher during four sessions, of two hours each, in order to understand the nature of the think-aloud technique and use it effectively. During the training, the participants were set to write about different topics and verbalize their thoughts (think-aloud) as they wrote. They were recorded and feedback was provided, by the researcher, along each of the processes and the steps they went through. The procedure was repeated during every session so that the participants familiarize with the technique.

After the participants grasped the think-aloud technique, the researcher set them to write an essay on one of the new topics that she suggested. They were asked to verbalize their thoughts and processes as they went through the three phases of writing (planning, drafting, and revising). The verbalized data were recorded by means of professional recorders and were transcribed for analysis at a later stage.

The Procedure of Data Treatment

The recorded data was first transcribed, and then coded for analysis. In addition to the verbal protocols, the hand-written drafts of the participants were also evaluated qualitatively to examine the effect of planning strategy use on the writing performance.

Transcription of the Think-aloud Protocols

The transcription of the verbal protocols consisted of writing down (typing) all the verbalized sentences, phrases, and words. The researcher also considered the short (1-5 secs.) and long (+ 5 secs.) pauses that were made by the verbalizers. The short pauses were transcribed using ellipsis (...) while the long ones were written between brackets as 'long/ longer pause'. Sounds like 'cough, sneeze, sigh, hesitation, or murmuring/whispering' were written between brackets. The repeated words, expressions, or parts of/ full sentences were written according to the number of times they were verbalized, that is, in words. The researcher also considered utterances that referred to the use of another language (s), mainly French, but that was very rare.

Coding of the Planning Strategies

With reference to some strategy coding schemes used by Perl (1979), Raimes (1985), Akyel & Kamisli (1996), Mahfoudi (2003), and Wong (2005), the researcher adopted a scheme that is appropriate to the aims of the study, the focus of which was on the planning processes and strategies of the participants. She also considered some modified and new labels that were added after the transcription, coding and analysis of the strategies used by the participants.

In this study, the researcher was not interested in the amount (quantity), but rather in the type of strategies used by both writers. The type of strategies refer to the variety of strategies that a writer employs to generate, organize, and plan his/ her ideas during the pre-writing phase of the writing process. The list of the planning strategies, their definitions, and examples are given in the appendix.

Qualitative Analysis of the Think-aloud Protocols

In this study, the frequency and percentages of the planning strategies are not considered; rather, the focus is given to the type of strategies used by both participants in planning their essays. The analysis mainly considers a number of aspects that are explained in some detail in the following.

Deep versus surface level planning

It is clear from the verbal protocols that the high-achieving writer showed more skills and used more and varied strategies while planning, focusing more on the deep level analysis of the topic and the ideas while generating them, while the low-achiever went briefly through surface levels of idea generation and outlining. The latter gave little importance to the analysis of the topics that were suggested during the selection, which is an important aspect in goal-setting and decision-making in writing. The high-achiever, on the other hand, analysed the topics carefully before deciding on which one to write about. The decision was based, not on the writer's personal preference only, but was much more on the organizational pattern and the amount of information and knowledge the writer had about the topic.

In addition, in the process of outlining, the low-achiever used the listing strategy and then moved to mapping. The writer was repeating the same process twice, with minor modifications at the level of organization. However, the high-achiever used the listing strategy, taking into consideration the pattern of organization (cause-effect), and explaining the purpose behind each choice or decision he made. Decision-making was rarely considered by the low-achiever. The following is an extract from the HAW's analysis of the brainstorming strategy he selected and the purpose behind his decision. Thus, he explains:

... it helps me too much in I think in ... in planning also in generating the ideas ... and even I can tick the ideas and the phrases and even the expressions or the words that I think they are appropriate and even it helps me too much in planning and in the organization of ideas as well.

Moreover, while, generating ideas, the high-achiever was more analytical and a good manipulator of the knowledge he had about the topic. His analysis of each idea he generated was based on a close understanding he had of the topic. He evaluated his ideas as he generated them, and he also made an effective use of his short-term memory as he proceeded throughout the pre-writing stage of writing. In doing so, he often referred to the ideas he generated previously and connected them cohesively with those he had in mind while thinking aloud. The low-achiever, on the other hand, seemed to have interesting ideas about the topic, but lacked in the analytical skills, so, she made long pauses, hesitations while thinking, and questioning about information or structure. The following is an extract from the brainstorming and planning stage of the LAW.

No... to practise eh ...another ski... eh different ... practise ... practise different... different skills, such as having eh... eh... practise sport or... having eh... how to say? Having... examinations...and ...eh...having... How to say it? That...eh... many schools... eh em ... do... do...eh...do... How to say it? How? I want to say eh having school eh... make an opportunity to have ...to have eh... How to say it ... in English? How to say it in English?

The extract shows that while the writer was generating ideas, she often made hesitations and was often questioning about the way to express an idea, expression, or word, and this happened more often during the whole stage of planning.

In brief, although both writers used a few strategies in common, such as brainstorming techniques (listing), repetition, and goal-setting (in differing ways), the way they manipulated them and the way they proceeded through the planning stage differed considerably, mainly at the level of analysis, thinking, and the evaluation of ideas as well as strategy awareness and self-regulation.

Local verses general planning

General planning refers to the organization of thoughts and the decisions a writer makes to proceed; whereas local planning refers to the decisions he/ she makes about what to write next. Local planning is also known as goal setting. Examples about the latter include, but are not limited to: goal setting related to content (generation of ideas), structure, word choice, strategy use, and pattern of organization.

As far as local and general planning are concerned, the student writers planned in slightly different ways. The High-achieving writer (HAW) planned more strategically at both levels (general and local) and was more aware of how to proceed to the next step (s), using appropriate strategies. He was also aware of the benefits of each strategy he used. For instance, in referring to the next step he proceeded through, he explained clearly the purpose as well as the benefits of the listing technique in brainstorming as he states:

So I would like to mention here the listing technique in the brainstorming... since it helps me too much in I think in in planning also in generating the ideas and even I can tick the ideas and the phrases and even the expressions or the words that I think they are appropriate and even it helps me too much in planning and in the organization of ideas as well.

Likewise, the Low-achieving Writer (LAW) used local planning and, compared to the HAW, she demonstrated a limited level of awareness about the strategies she used. She also proceeded through the next steps smoothly, but in a slow manner, with a lot of hesitations and long pauses. She set the goal (s) for content generation and strategy use, but she rarely did for word choice, structure, and organization (sentence, paragraph, or overall essay organization). The following is a sample of the writer's local planning as she referred to the technique of brainstorming she used, and, then, proceeded to the next step (s) that consisted of rereading the generated sentences, and later, writing, or in her words "choose[ing]", a thesis statement for the introduction.

... I wrote my brainstorming as sentences... I will read... I will reread them... people go to school for several reasons for many years all over the world... first, what I'm going to say in my introduction and ... I will choose a thesis statement... then in my body... in the body... I'm going to write ... I'm ... I'm... How to say... Three paragraphs... three paragraphs are going to be about the causes ... the reasons why people attending school... So, I'm going to focus on the causes... So, I will mention three causes of... three causes of why people attend school...

The student writer referred to the overall organization of the essay in the sense that she planned to devote 'three paragraphs' for the body of the essay, with a focus on the 'causes' or 'reasons' in a cause-effect essay genre. She referred to paragraph division in a logical way, whereby she would discuss one main reason in each single paragraph.

Although both writers used varied strategies and approached the planning multi-tasks in differing ways, at the local level of planning, they seemed to have proceeded through the major steps and set goals for the overall paragraph and essay organization in quite similar ways, at the global level.

Organization and awareness about organizational skills

As far as organization is concerned, various aspects of similarity between both participants were observed, but with varying levels and ways of approaching and manipulating the tasks. Thus, both writers seemed to have respected the layout of the essay, with its different parts (introduction, body, and conclusion), the structure and components of each paragraph, but they demonstrated some differences at the level of awareness, analysis, and manipulation of the strategies they used.

To illustrate, the HAW showed more awareness regarding the essay organization pattern that is appropriate to the purpose and genre of writing. He expressed this explicitly as he showed concern about the structure and content of the thesis statement, which is an important part of the introduction that constitutes the purpose of writing.

So I think I would like to say... because I should have find ... and and even inside the thesis statement I should have a link between the causes and effects.

The writer was referring to the pattern of organization that, he thought, should be embedded in the thesis statement, where the purpose is expressed clearly and with focus.

Moreover, despite the fact that both writers had some aspects in common related to the overall organization, the HAW demonstrated more knowledge and awareness about the deeper aspects of organization. For instance, he explained the focus of his topic in terms of the plan or pattern of organization that is appropriate to the topic and purpose of the essay. To quote the writer:

So I would like to develop it by starting... by focusing much more eh... using block method ... where I'm going to focus on on the causes rather than the effects since the effects I think that they... they are ...they seem to me less than the causes...

The LAW, however, did not refer to the method/ pattern of organization (block versus point by point method); rather, she focused on the overall organization that she followed in relation to the topic of her essay. This indicates that although she had prior knowledge about essay organizational patterns, she was not aware of its importance; rather, she used the pattern unconsciously without referring to it. The writer also ignored and lacked in the deep level analysis and awareness of other organizational aspects related to paragraph and sentence levels, as well as the cohesive relationships among and between sentences and paragraphs.

Planning based on audience and purpose

Setting a goal for audience and the purpose of writing is considered to be of paramount importance in academic writing. It determines the writer's relationship with the reader as well as his/ her level of awareness about the genre, purpose, as well as the knowledge of the topic. The verbal protocols of the two writers showed that more often during the planning processes,

the high-achiever referred to the writing purpose and audience (i.e., considering the reader's feedback and/ or reaction towards the text) on many occasions, as in:

... because I think as much as ... as much as the writer is much stucked to his topic as much as he attracts the readers' attentions and to get fluency from the readers and and eh and at least reading or listening from... from the audience.

The HAW also evaluated and explained the benefits of the topic and concluding sentences in relation to the audience, as he states:

... but I think that as much more as you write the concluding sentence as if you give the points of view or your understanding or you direct the understanding of the readers..

The LAW, on the other hand, referred in no occasion to the audience throughout the planning processes, but she mentioned the purpose and the genre of writing at the beginning of the stage as she selected the topic. This indicates that although the writer was aware of the purpose and genre of writing, she ignored the importance of the reader. The latter is closely related to the decisions a writer makes in relation to other aspects of the writing activity, including, but not limited to, the register (vocabulary choice) and style (academic) of writing.

Length of planning: short verses long time spent on planning

As far as the time devoted for the planning processes is concerned, considerable differences were observed between the two writers. Theses consisted of two main aspects: the amount of time and effort spent in the planning processes as well as the speed of thinking, talk, and writing that each writer demonstrated.

Thus, compared to the LAW, the HAW spent almost the double amount of time (40 minutes) in generating, outlining and organizing his essay, taking into consideration the analysis and evaluation of content generated in relation to the topic, purpose, genre and audience of writing, as well as the strategies used in

relation to the writing activities he was engaged in throughout the planning processes. The writer devoted sufficient time and effort for every step he made, including the explanation and analysis of the strategies he used in completing the multi-tasks of mental and behavioural processes he went through during the planning stage of writing.

Another aspect that was clearly observed among the two writers was the speed of thinking, talk (verbalized), and writing. The HAW was faster than the LAW in many ways, despite the length of time spent in planning. Thus, the former used highly cognitive processes in analysing, evaluating and manipulating the information, the language (especially the choice of vocabulary, sentence structure, and grammar) as well as the organizational skills that are required in expository essay writing. He demonstrated a high level of knowledge about the topic, critical thinking, planning and organizational skills. In performing these tasks, his high speed level did not limit the time he devoted to each step, strategy or task; rather, he showed a deep level of thinking, analysis and manipulation of the writing strategies.

In contrast, the LAW devoted less time and effort for the planning processes and demonstrated lower level skills of analysis and manipulation of the planning strategies, despite the fact that she went through the major steps of planning and performed most of the tasks required in the planning stage of writing. Her slow performance did not hinder the completion of her writing activities, but it showed, through the protocols, that she often lacked in information about the topic and strategies, mainly at the local level of planning, and she sometimes lost focus while thinking or writing.

Pausing behaviours: long versus short pauses

Unlike the high-achieving writer, the low-achiever used long pauses (of more than 10 seconds) and hesitations more frequently and at various levels during the planning processes. The long pauses were mainly the result of a lack of information, strategy, or an absence of thinking/ lack of focus rather than a

thinking activity. However, the high-achiever demonstrated a more active thinking-aloud rather than silent thinking. This was shown in the reading and rereading of previous ideas/ parts of a sentence while thinking and trying to connect new ideas to the pre-generated pieces of information. The pauses that were made by the latter did not generally exceed five (05) seconds.

Thus, the pauses made by the writers while thinking aloud did not generally show silent thinking; rather, they were due to either a lack of information about the topic (while generating ideas) or a lack of analytical skills. Thus, skills and strategies like analysing and evaluating previous information, linking (between ideas), goal-setting strategies (local planning) (such as, reference to vocabulary choice, sentence structure/ meaning, or cohesion; reference to topic, genre, or audience), as well as an ability to generate more details about a particular idea were rarely used by the LAW. The HAW, on the other hand, showed a higher level of awareness, knowledge, and skills as he was reflecting and thinking, analysing and evaluating throughout the whole process of planning.

Discussion of the Results

The following is a brief discussion of the results obtained through the think-aloud protocols in relation to the questions posed by the researcher.

1. Do high- and low-achieving writers use similar or different planning strategies in expository essay writing?

The analysis of the verbal protocols showed that here was a wide range of planning strategies that were used by both high- and low-achievers, but they differed in type and the way they were employed. The strategies used by the high-achiever were more purposeful and self-regulated, as it was shown through the writer's awareness and skills in selecting appropriate strategies for a specific purpose/ genre and at a specific stage of writing. However, the low-achiever, demonstrated a limited awareness and use of the planning strategies and a lack of analytical skills related, mainly, to content generation and organization.

In more concrete terms, the high-achiever gave more importance to the deep level processes and used a combination of global and local planning strategies, while the low-achiever focused more on the surface level processes and showed a limited level of awareness about the local planning strategies and analytical skills. This can be explained by the fact that the planning strategies used by skilled writers may differ in type and use from those used by less-skilled writers, as it is proven in previous studies (Sasaki, 2000; Graham et al., 2013). Moreover, it was observed that the time allocated for planning processes is an important aspect that writers should consider. Studies (Manchon & De Larios, 2007; Yousun, 2008) have shown that unlike unskilled writers, the skilled ones take more time in planning. This results in more positive effects on their writing performance.

2. What differences and similarities do they demonstrate in essay production?

The essays were evaluated in terms of content (richness and amount of information, as well as vocabulary choice), organization (internal and external organization, at the sentence, paragraph and essay levels), language use (fluency and accuracy) and mechanics.

Thus, at the external level of organization, the written drafts were moderately short, comprising of two body paragraphs, with varying lengths. In addition, both essays seemed to abide with the general norms of surface organization, layout, and spacing. The differences, however, were shown in the deep level of organization and development, as well as language fluency and vocabulary choice. In other words, the low-achiever demonstrated some weaknesses at the level of internal organization and language use as compared to the high-achiever, who showed a better performance at the deep level organization and the development of ideas. The latter was observed clearly (in the verbal protocols) through strategy use and the way the knowledge of the topic and organization of ideas was manipulated and self-regulated.

3. What is the effect of planning strategy use on the writing performance?

Although both participants showed various differences in the types of planning strategies they used and the ways in which they employed them, their performance demonstrated that there was an effect, of varying degrees, on their writing processes and products. More particularly, the high-achieving writer planned more strategically and effectively, and showed a higher level of awareness and manipulation of the multi-tasks he was engaged in during the planning processes, compared to the low-achiever. His effective use of the planning strategies resulted in a better quality essay, especially at the level of organization and the development of ideas.

Moreover, it was observed that the high-achieving writer made an effective use of the planning strategies that facilitated the demanding mental multi-tasks as he planned (Graham et al., 2013). His high level of awareness was mainly observed through the way he evaluated the importance of the strategies he employed and the way (s) in which these strategies eased his planning processes. He, also, referred more frequently, to the steps and stages of planning, as well as drafting (the next stage after planning) that he was going to proceed through and how the strategies he used in advance would facilitate the (immediate as well as the upcoming) writing tasks for him. This can be interpreted by the fact that the writer was aware of the positive effects that the planning strategies have on the process of as well as the product of his writing.

As far as the product of writing is concerned, the effect of planning strategy use was clearly observed in the high-achiever's essay, which was generally organized, coherent, cohesive, and clear. It also demonstrated a logical organization, based on the purpose, topic, and the type of the essay. These aspects were relatively present in the low-achiever's essay, but with some

deficiencies in the internal organization and connectedness between ideas and sentences.

Implications for EFL Writing Instruction

This study brought about important findings that have contributed to a clear understanding and a body of knowledge on the planning processes and strategies used by High- and Low-achieving writers in an EFL undergraduate level.

The results of the study showed clearly that there is a tight relationship between planning and the writing performance. In other words, using effective planning strategies has a positive effect on producing an organized, clear and coherent essay. It is therefore, important for writing instructors to adopt effective techniques of teaching the writing strategies at the different levels of the writing process, and to emphasize the importance of planning through explicit teaching (Graham and Harris, 2005; Graham et al, 2013).

Moreover, and as part of the writing course, setting goals for a course based on regular practice of strategy use among different levels of learners and for different purposes of the writing program is the key for success in developing autonomous writers, who would implement the learned knowledge and skills on how to use the writing strategies more effectively and with ease. Writing instructors need to understand clearly the difficulties that struggling learners face as they approach writing tasks of differing purposes and demands. Therefore, dealing with these learners independently would guide them through to improve their skills and develop a sense of autonomy over time.

References

Abdel Latif, M. M. (2009). The problems identified in the previous coding schemes used for analysing L2/ FL writers' think-aloud protocols. *Language at the University of Essex (Lang UE) 2008 Proceedings*, 1-19.

Akyel, S. (1994). First language use in EFL writing: Planning in Turkish vs. planning in English. *International Journal of Applied Linguistics.*, 4, 169-196. In I. Leki, A. Cumming, and T. Silva. (2008).

A synthesis of research on second language writing in English. Taylor & Francis.

Akyel, A. and Kamisli. S. (1996). Composing in first and second languages: Possible effects of EFL writing instruction. ERIC Document, ED401719.

Alamargot, D., & Chanquoy, L. (2001). Through the models of writing. Dordrech, The Netherlands: Kluwer Academic.

Beare, S. (2000). Differences in content generating and planning processes of adult L1 and L2 proficient writers. Unpublished doctoral thesis, University of Ottawa, Ottawa, Ontario.

Charters, E. (2003). The use of think-aloud methods in qualitative research: An introduction to think-aloud methods. Brock Education, Vol. 12, No. 2.

Deane, P., Odendahl, N., Quinlan, T., Fowles, M., Welsh., C., & Bivens-Taum, J. (2008, October). Cognitive models of writing: Writing proficiency as a complex integrated skill. Princeton, NJ: Educational Testing Service.

Elbow, P. (1973). Writing without teachers. New York: Oxford University Press.

Graham, S. and Harris, K. R. (2005). Writing better: Effective strategies for teaching students with learning difficulties. Paul. H. Brookes Publishing Co., Inc.

_____ MacArthur, C. A., and Fitzgerald, J. (2013). Best practices in writing instruction. The Guilford Press.

_____ (2006). Handbook of writing research. The Guilford Press.

Hamlaoui, N. (2007). The writing processes of an EFL writer: A case study. In Proceedings of the 4th international conference on English language teaching: New directions in teaching and learning English for academic and professional purposes (pp. 127-141). University of Algiers. Alger: Thala Editions, El-Biar.

Kellogg, R. T. (1990). Effectiveness of prewriting strategies as a function of task demands. American Journal of Psychology, 103, 327-324.

- Leki, I., Cumming, A., and Silva, T. (2008). A synthesis of research on second language writing in English. Taylor & Francis.
- Manchon, R. M. and De Larios, J. R. (2007). On the temporal nature of planning in L1 and L2 composing. *Language Learning*, December, pp. 549-593.
- McCutchen, D. (2006). Cognitive factors in the development of children's writing. In C. S. MacArthur, S. Graham, & J. Fitzgerald (Eds.), *Handbook of writing research* (pp. 115-130). New York: Guilford Press. In S. Graham, C.A. MacArthur, and J. Fitzgerald. (2013). *Best practices in writing instruction*. The Guilford Press.
- Mahfoudhi, A. (2003). Writing processes of EFL students in argumentative essays: A case study. *ITL, Review of Applied Linguistics*, 139-140: 153-190.
- Mebarki, Z. (2008). A descriptive study of reading comprehension difficulties and strategies of fourth year microbiology students of Ferhat Abbas University at Setif. Doctoral Thesis. Mentouri University, Constantine.
- Murray, N. (2012). *Writing essays in English language and linguistics: Principles, tips and strategies for undergraduates*. Cambridge University Press.
- Perl, S. (1979). The composing processes of unskilled college writers. *Research in the Teaching of English*, 13(4): 317-36.
- Raimes, A. (1985). What unskilled ESL students do as they write: A classroom study of composing. *TESOL Quarterly*, 19(2): 229-258.
- Saddler, B., Moran, S., Graham, S. & Harris, K.R. (2004). Preventing writing difficulties: The effects of planning strategy instruction on the writing performance of struggling writers, *Exceptionality: A Special Education Journal*, 12:1, 3-17.
- Sasaki, M. (2009). Toward an empirical model of EFL writing processes: An exploratory study. *Journal of Second Language Writing*, 9, 259-291.
- Wong, A. T. (2005). Writers' mental representations of the intended audience and of the rhetorical purpose for writing and the strategies that they employed when they composed. *System*, 33(1): 29-47.
- Yousun, S. (2008). The effects of planning on L2 writing: A study of Korean learners of English as a foreign language. PhD diss.,

University of Iowa. Retrieved on January, 2017, from:
<http://ir.uiowa.edu/etd/44>.

Appendix: The List of the Planning Strategies, their Definitions and Examples

Planning Strategies	Code	Definition	Example
Assessing/ Evaluating/ analysing content or strategy	As.	Judging one's writing either positively or negatively	As I said before the concluding sentence is of paramount importance since it directs meaning and it provides some ideas about what is... about ... about what was discussed
General planning	GP	Organizing thoughts and deciding how to proceed	In this plan I have mentioned two paragraphs for the causes... because ... I think that they are divided into two sections ...
Goal setting/ decision making based on purpose/ genre or topic	GS	Making decisions related to the purpose/ genre, or the topic of writing.	So here I would like to write the concluding sentence...
Idea generation	IG	Generating a new/ completing an idea	And then also people would have a dissatisfied attitude ... attitude towards their ... their government ... towards the policy of the country...
Local planning/ goal setting	LP/ GS	Deciding what to write next	So here I would like to write the concluding sentence...
Periods of silence (pause)	PS	No action (writing/ thinking aloud) is taking place	(...)
Questioning about content/ structure/ other aspects of writing	Q	Asking questions related to content/ structure/ or other aspects of writing	And here is the problem or here is the question...How can I find the link between the causes and the effects in the thesis statement itself?

Reading/ rereading/ repetition	R	Reading/ rereading/ Repeating (a generated) word/ or part/complete sentence (s) while writing	So I... I think there is joblessness... poverty... unethical practices... the economy suffers from the underground of the eco... the economy suffers from the underground of the economy ...
Reference to audience, purpose/ genre, or topic	Ref.	Relating audience, purpose, or genre/ topic to the activity of writing	I think as much as ... the writer... [sticks] to his topic as much as he attracts the readers' attention...
Reference to cohesion/ coherence	Coh.	Establishing a link between sentences/ paragraphs	... and even inside the thesis statement I should have a link between the causes and effects
Reference to strategy use	SU	Mentioning the strategy used/ its importance	So I would like to mention here the listing technique in the brainstorming... since it helps me too much in ... planning also in generating the ideas
Editing	Ed.	Adding or deleting a word/ expression/ or an idea	I would like to to omit this one ... and... and leave just joblessness...poverty... unethical practices...

مجلة الآداب واللغات

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية
تصدر عن كلية الآداب واللغات جامعة محمد البشير الإبراهيمي

برج بوعريريج - الجزائر

ر.د.م.د: 2477-9792 ر.ت.م.د.إ: 2588-2422

رقم الإيداع: 342 / 2015

المجلد (04)، العدد(01) - ديسمبر 2017

العدد 07(خاص) من المجلة



مجلة الأدب واللغات

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تعنى بالأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية
تصدر عن كلية الآداب واللغات
جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج - الجزائر
العدد -02- المجلد -07- جانفي 2022

المجلد 04، العدد 01، ديسمبر 2017

ر د م د: 2477-9792 ر د م د: 2588-2422

رقم الإيداع القانوني: 342-2015